عبد الحميد جودة السحار

صور وذكريات

الكتاب السادس

عبدالله أبوبكر الأنصاري
2014

عبد الحميد جوده السحار

صور وذكريات

- ٨ اقاصيص جديدة
- صور من الحياة
- ذكريات ادبية
- النظرية الالهية والتفسير الروحى للتاريخ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

« ١ »

انت نور قلبى

كان القارب يشق طريقه فى الماء فى جهد فالأمواج تلعب به .. وكان قرص الشمس يغوص فى الأفق الغربى فانعكس لون الشفق على وجوه الركاب فزاد تجسيم الرعب الذى لاح فى العيون .. كانت القلوب كلها تكاد تنخلع من الهلع الا قلب شاب قوى البنية مفتول العضلات جلس عند مؤخرة القارب وقد أولى ظهره للشمس الغاربة . لم يتخذ ذلك المكان ليكون بعيدا عن الموج الذى يلطم جوانب القارب ويشب ليضرب ظهور الجالسين الذين توترت أعصابهم ، بل ليتمكن من أن يمد بصره الى امرأة يطل من عينيها الشباب والحسن .

وراح صاحب الزورق يجدف فى همة والعرق يتصبب منه ، ليصل الى الشاطىء قبل أن يسدل الليل ستائره على الكون .. وزمجر الموج وهبت الريح فمال الزورق حتى مست حافته سطح الماء فضج من فيه بالصراخ . وظل أبو الفيض الجالس عند مؤخرته يرقب المرأة .. ولما التقت عيناه بعينيها ابتسم ورمز لها بعينيه فغضت من بصرها حياء وان كانت فى قرارة نفسها تعجب من ذلك المجان الذى يعبث والموت يكاد أن يخطفه .

والتفت صاحب الزورق الى حيث وضع كيسا فيه ماله فلم يجد

الكبس ، فدق قلبه خوفا ونزل به هم ثقيل واضطرب نسته ، ولم يستطيع أن يستمر فى التجديف فترك المجدافين وهب صائحا :

ـ سرق مالى ـ لم يسرقه الا واحد منكم .

ولطمت الأمواج الزورق واخذت تعبث به ، ولم يحفل صاحب الزورق بما يعانيه زورقه من اضطراب بل صاح فى غيظ :

ـ لابد من تفتيشكم جميعا .

فصاح شيخ كان جالسا بالقرب من المراة :

ـ سنغرق .. عد الى مجاديفك واذا ما وصلنا الى الشاطىء فافعل ما بدا لك .

فقال صاحب الزورق والشر يطل من عينيه :

ـ مالى .. أعيدوا الى مالى والا فلن تصلوا الى الشاطىء أبدا .

وراح كل من فى الزورق ينظر الى الآخر فى توسل كأنما يقول له : اذا كنت قد اخذت ماله فأعده اليه .. اشتر به حياتنا .

ومال الزورق حتى كاد الماء أن يملأه ، فصرخت المراة صرخة عالية أنزلت الرعب فى القلوب .. وطارت احدى رجليها فى الهواء ، ولولا أنها تشبثت بالشيخ الذى كان يرتجف خوفا الى جوارها لسقطت فى اليم . ومد أبو الفيض عينيه الى الساق التى تعرت وراح يبلل بلسانه شفتيه . وقاومت المراة حتى استوت على مقعدها ، والتقت عيناها اللتان يترقرق فيهما الفزع بعينيه فازداد كربها واشتد وجيب قلبها .

وصاح صاحب الزورق :

ـ لابد من تفتيشكم جميعا .

وتقدم من رجل كان بالقرب منه وشرع يفتش جيوبه والزورق

يضطرب اضطرابا شديدا ، ولما فرغ منه تقدم من الشيخ الجالس الى جوار المراة وفتشه فلم يعثر معه على مالة ، فتقدم الى المراة ومد يده اليها ثم اعادها فى ارتباك ، واذا بابى الفيض يقهقه قهقهة عالية تطغى على زمجرة الموج وزئير الرياح ، فاتجهت العيون كلها اليه وقد لاح فيها الضيق والاستياء ..

وقالت المراة فى استحياء :

— اقسم بالله العظيم انى لم ار مالك ولم آخذه ..

فتركها صاحب الزورق واتجه الى ابى الفيض ومد يده ليدسها فى جيبه ، واذا بابى الفيض يدفع يده بعيدا ويقول له :

— لن يمد رجل يده فى جيبى ما حييت ..

وقال صاحب الزورق فى اصرار :

— والله لأفتشنك .

وهجم على ابى الفيض ليدس يده فى جيبه فدفعه أبو الفيض بعيدا ، فسقط فى وسط الزورق الذى زاد ترنحه فصاح كل من فى الزورق :

— نستحلفكما بالله رحمة بنا .. سنموت ..

ونهض صاحب الزورق وجذب مجدافا ورفعه فى الهواء وهوى به على راس غريمه ، بيد ان ابا الفيض ضرب رجليه بقدمه فى مثل لمح البصر فسقط الرجل والمجداف فى يده ، وهجم ابو الفيض عليه وقبض على عنقه بيدين حديديتين وجعل يضغط ويضغط بين صراخ من فى القارب وصفير الرياح وتلاطم الأمواج .

وقام الرجال ليخلصوه من اليدين الفولاذيتين وهم يتصايحون ويمرج بعضهم فى بعض فمال الزورق على جنبه ، وجاءت موجة عاتية فغمرت القارب وجرفت كل من فيه الى المـــاء فارتفعت

صيحات مرعوبة ، وشغل كل بنفسه عن كل ما حوله وراح يجاهد الموج الذى كان يرفعه ويحطه ويدور به ليغرقه .

وترك أبو الفيض صاحب الزورق بعد أن قضى عليه ، وتلفت وهو يسبح فرأى المرأة تكاد تغرق . فراح يشق الماء وينطلق فى سرعة السهم حتى اذا ما بلغها مد يده وجذبها من شعرها وطفق يسبح بها نحو الشاطىء .

والتفت خلفه فألفى قرص الشمس قد غاب فى الأفق البعيد والماء قد أطبق على كل من كان فى الزورق .. لا حس ولا حركة .. واستمر يضرب الماء برجليه وذراعيه ويجذب المرأة جذبا ، حتى اذا ما دنا من الشاطىء حملها بين ذراعيه وقد أسبلت جفنيها على عينيها وغابت عن الوجود ، وانطلق بها ثم وضعها على الرمال فى رفق وأخذ يتلفت ، حتى اذا ما وقعت عيناه على بعض أعشاب جافة خف يجمعها .

وقفل راجعا الى حيث رقدت المرأة ووضع بالقرب منها الأعشاب والحطب ، ثم تناول حجرين وأخذ يضرب أحدهما بالآخر ليقدح شرارة يشعل بها النار . وبعد جهد ارتفعت ألسنة اللهب تتراقص ، فاستدار يضرب وجه المرأة فى رفق حتى فتحت عينيها . فلما وقعتا عليه جفلت فى رعب فابتسم لها لينزل السكينة بقلبها ، ولكن هيهات فقد أحست أن فؤادها يكاد ينفطر من الفزع .

وراح يخلع ثيابه المبتلة ، ووضع على الأرض كيسا به مال فلما رأته غمغمت :

ـ كيس صاحب الزورق .

وأخفت عينيها بيديها ، وخطر لها أن تفر من الهول الذى

يترقبها فتحركت ، واحس حركتها فذهب اليها ومد يده يتحسسها ويقول :

ــ ثيابك مبتلة ، اخلعيها .

وسرت فى جسمها قشعريرة واتسعت عيناها رعبا وفغرت فاها دهشة . وظل يرقبها وهى تنكمش خوفا فقال لها :

ــ لا تخافى البرد ، ساحتويك بين ذراعى .

فقالت فى صوت متهدج وقد طفرت الدموع من مآقيها :

ــ بالله لا تفضحنى .

فابتسم ابتسامة تقطر سما ، ثم جثم عليها كما يجثم الذئب على الشاة . وراحت تقاومه وتضربه فى وجهه وفى صدره حتى خارت قواها .

وقام ابو الفيض يرتدى ثيابه ، ثم التقط كيس المال وتركها خلفه فى جوف الليل والنار تلفظ انفاسها ، ثم انطلق لا يلوى على شىء .

راح يضرب فى الظلام متجها الى المدينة ، ومس اذنيه وقع اقدام فارهف سمعه . انها ليست اقدام جندى من جنود السلطان . واخترق ببصره ستائر المساء السود فلمح شبح رجل يغذ السير وهو يتلفت خوفا . فهرع اليه فى خفة الفهد حتى اذا ما امسى بينهما خطوات صاح ابو الفيض بالرجل :

ــ قف .

وتسمر الرجل فى مكانه وكاد يسقط من الرعب ، ونظر بعيون زائغة وقد ارتعدت فرائصه وفغر فاه ولم يجد لسانه ، واخذت اسنانه تصطك هلعا وقلبه يقفز بين ضلوعه وهو مذعور .

وقال ابو الفيض آمرا :

ــ هات ما معك .

وقال الرجل فى حشرجة وهو يكاد يموت خوفا :

— ليس معى الا أجر يومى ، سأشترى به قوتا لعيالى .

وراح أبو الفيض يتحسس الثوب الذى يرتديه الرجل ثم قال :

— وهذا الثوب .

فقال الرجل فى ضراعة :

— ليس عندى غيره .

— اخلعه والا استللت روحك من بين جنبيك .

وأخرج الرجل ما فى جيبه وقدمه بيد مرتجفة الى ابى الفيض ، ثم خلع الثوب وركبتاه تضطربان وعيناه حائرتان لا تستقران على شىء ، وجذب أبو الفيض الثوب من يده وصاح به :

— اذهب .

وأطلق الرجل ساقيه للريح وهو مرعوب وان كان فى قرارة نفسه يحمد الله على نجاته ، وظل أبو الفيض يرقبه وهو يهرب من امامه كأرنب مذعورة ، ثم أطلق خلفه قهقهة مدوية كان وقعها فى اذنى الرجل كوقع الرعد .

وانطلق أبو الفيض حتى آنس نورا على البعد فاستشعر راحة ، فقد دنا من قصر السلطان وعما قريب يكون بين أصدقائه وخلانه . انه بطبعه يمقت النور ولا يستشعر الحياة تدب بين جوانحه الا فى الظلام ، ولكن نور قصر السلطان اقترن فى نفسه بلحظات صفوه ، فبالقرب من القصر دار السرور والانشراح .

وبلغ قصر السلطان وتمهل فى سيره يديم النظر اليه . انه معجب به ويرى فيه نهاية ما تترامى اليه امانى البشر ، ورن فى جوفه صوته يقول كما اعتاد ان يقول كلما وقعت عيناه على القصر : آه لو امضى فيه ليلة ثم تقبض روحى ! اجود بروحى راضيا لقاء

ليلة فيه . وطافت بذهنه صور البهجة التى يمكن أن تفيض بها جوانب ذلك القصر .. موائد عامرة بما لذ وطاب ، وجوار فاتنات ، وموسيقى ورقص وخمر ، وكل ما يشرح الصدر ويبهج القلب ويرطب الحلق .

وأحس جفافا فى فمه . انه يريد أن يرتوى فوسع من خطوه حتى بلغ دار السرور والانشراح فدفع الباب ودخل ، فاذا ببعض أصحابه قد جلسوا يصغون الى جارية تغنى وقد مدت أمامهم موائد الشراب ، فخف الى الجارية وقبلها ، ثم انضم الى رفاقه يشرب ويلهو ويضحك حتى لاح نور الصباح .

ونام النهار ، ولما جن الليل خرج الى أطراف المدينة يقطع الطريق ويسلب الناس أشياءهم . ويزهق فى يسر أرواح من يحاولون أن يقاوموه وما أقلهم ، فأشد الناس يرتجف بين يديه كعصفور وجل خائف .

ولمح شبحا يتقدم نحوه فى خطى ثابتة فوقف يرقبه ، حتى اذا ما بات على بعد خطوات منه لاح فى وجه أبى الفيض الدهش . انها امرأة تسير وحدها . وتفرس فيها .. لم تكن عجوزا بل كانت شابة جميلة سافرة الوجه تترقرق الطمأنينة فى محياها ، قال لها فى صوت أجش :

— من اين ؟

فلم ترتجف ولم تفزع ولم تند منها صرخة بل قالت فى صوت رقيق :

— من عند الحبيب .

وعجب من رباطة جأشها وقال لها :

— والى اين ؟

فقالت وقد شردت ببصرها :

ـ الى بيت الحبيب .

واتسعت عيناه ونشط ذهنه وقال وهو يقلب بصره فيها :

ـ من عند الحبيب والى بيت الحبيب . كيف يكون ذلك ؟ اانت سكرانة ؟

فقالت دون ان تنظر اليه :

ـ انا سكرانة وقلبى صاح ، انا مفتونة بحب حبيب لست ابغى من بابه من براح .

فمد يده اليها ليجذبها اليه فلم تذهب نفسها شعاعا ، بل قالت فى ثبات :

ـ ارجع يدك ، الا تخشى من بطش حبيبى ؟

فقال فى ضيق :

ـ اين حبيبك هذا ؟

ـ انه هنا .. معنا .

فراح يتلفت ويقول :

ـ انى لا ارى احدا .

فقالت فى صوت اخاذ :

ـ لو اردت أن ترى حبيبى فلابد ان يرتد بصرك الى بصيرتك .

فقال وقد استولت على انتباهه :

ـ ماذا تقصدين ؟ انا لا افهم ما تقولين .

ـ ان حبيبى لا تدركه الابصار ولكنه يرى بنور القلوب ، انه معى ، امامى وخلفى ، وعن يمينى وعن يسارى .

وفاض شوقها فطفرت الدموع من عينيها . فقال لها وقد برق فى سواد نفسه بصيص من رقة :

ـ أتبكين ؟ ممن ؟

فقالت فى وجد :

ـ هربت منه اليه ، بكيت منه عليه ، وحقه وهو مولاى لا زلت بين يديه .

وتركته وسارت كالطيف فالفى نفسه ينطلق خلفها كالمسحور ، وأرهف سمعه فألفاها تقول :

ـ يا حبيب القـــلوب انت حبيبــــى . يا سرور السرور أنت سرورى . يا حياة النفوس أنت حياتى وأنيسى ، أنت نور لنورى .

ووسع من خطوه حتى أصبح الى جوارها فالتفت اليها وقال :

ـ أتسمحين لى أن أسير معك ؟

فقالت له فى رقة :

ـ ارجع عافاك الله الى من هو خير منى ، ولا تشغلنى عمن هو خير لى منك .

فقال فى نبرات رقيقة كادت أذناه تنكرها :

ـ انى ذاهب الى السوق لأشترى طعاما ، أرجوك أن تسمحى لى بالسير معك .

فقالت دون أن تلتفت اليه :

ـ أى طعام تعنى ؟ طعام الأجسام أم طعام القلوب ؟

ـ لا أعرف الا طعاما واحدا ، طعاما يسكت صراخ البطن .

ـ هذا هو القوت ، هذا هو طعام الأجسام .

ـ وما طعام القلوب ؟

ـ الخشوع والتقوى وترك الذنوب واصلاح العيوب والتمتع بمشاهدة المحبوب .

وصمت وصمتت وراح يفكر فى نفسه وهو يعجب مما طرا

عليه ، انه يسير الى جوار شابة جميلة هو وهى ولا احد غيرهما ثم لا يجد فى نفسه القدرة على أن يضمها اليه ويرشف الرضاب من ثغرها الفتان .

ونظر اليها فازداد عجبا ، انها ثابتة الجنان مطمئنة القلب بينما بدأ هو يحس سريان تيار الخوف فى بدنه ، وخاف من الكون المطبق عليهما لأول مرة فقال :

ـ الا ما ابعد الطريق ؟

فقالت وهى شاخصة الى السماء :

ـ ما ابعد الطريق على من لم تكن دليله ، واوحش الطريق على من تكن له انيسا .

واطبق الصمت عليهما مرة أخرى وانتاب ابا الفيض قلق ، ليتها تقول شيئا فقد أمسى يرهب أن ينفرد بنفسه . واستمرت فى صمتها وان كانت كل جارحة من جوارحها تناجى حبيبها .

واراد أن يفر من ذلك السكون فقال لها :

ـ هل لك فى أن تتناولى طعاما معى ؟

ـ انى لا آكل طعاما الا اذا اشتريته من صنع يدى ، من عرق جبينى .

ـ لماذا ؟

ـ لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار اولى به .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ وانت ؟ اتاكل من طيب ؟

واخذ ولم يدر ما يقول ، واحست ما يكابده فاشفقت عليه ، ولكنها قالت له :

— ان الله يحب أن يرى أثر الصنعة في يد عبده ، أكثر من حبه ان يرى أثر السجود في جبينه .

وأطرق برأسه وسار صامتا حتى بلغا قصر السلطان ، فرد الى طبعه وراح يقلب عينيه في القصر وهو يعجب به ، ثم التفت اليها وقال :

— ما أجمل هذا القصر وأكمله !!

فقالت دون أن تلتفت الى القصر :

— فيه عيبان .

فقال في انكار :

— عيبان ؟ وما هما ؟

— تخرب الدار ويموت صاحبها .

فقال في سخرية :

— اتعرفين دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها ؟

ولم يجد لسانه ، والقى نظرة على القصر فلم يستشعر الروعة

— دار حبيبي .

ولم يجد لسانه ، والقى نظرة على القصر فلم يستشعر الروعة التي كانت تملأ نفسه كلما مد اليه بصره . وسار وهو غارق في الصمت يفكر في نفسه واذا بها تقول له :

— أين ستصلي العشاء ؟

— أصلي ؟ اتعرفين من أنا ؟

— عبد من عباد الله .

— لا .. ما في جارحة سلمت من المعاصي والأوزار ، عيناي مملوءتان بالنظر الى محارم الله ، أذناي مملوءتان بسماع الفواحش والمنكرات ، ولساني مملوء بالخوض وارتكاب

المحرمات ، ويداى مملوءتان بتناول الحرام ، ورجلاى لم تسعيا الا الى شيء .

ـ توبى الى الله .

ـ لن يقبل الله توبتى .

ـ انه يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين .

وشخصت ببصرها الى السماء وقالت :

ـ يا الهى وسيدى ومولاى ، بحبك لى اما غفرت .

ـ تقولين بحبك لى ؟ من اين عرفت أنه يحبك .

ـ أما سمعت قوله فى كتابه العزيز : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، فسبقت محبته اياهم قبل محبتهم اياه . قل : يا من لا تنفعه الطاعات ولا تضره المعاصى ، هب لى ما لا ينفعك واغفر لى ما لا يضرك .

ووقفت على باب دارها ترقب توبته ولكنه قال :

ـ لمن خلقت النار ان لم تكن لى ولأمثالى ؟

ثم دار على عقبيه وانطلق الى دار السرور والانشراح . كان الرجال يداعبون الجوارى الحسان ، والولدان يدورون على الجميع بكئوس الخمر ، وفتيات عاريات يرقصن رقصا يبعث النشوة فى الأبدان . ورأت جارية من الجوارى أبا الفيض فى اقباله فهرعت اليه وارتمت بين أحضانه ، فأخذها بين ذراعيه وقد افتر ثغره عن ابتسامة ، وقبلته هنا وهناك وراحت تهمس فى أذنيه بحديث رقيق ناعم ، وأخذت ترقبه بطرف عينيها فألفته شاردا ساهما فقالت له :

ـ ما الذى يشغل بالك يا حبيبى ؟

فقال لها ينتزع ابتسامة من بين شفتيه :

ـ لا شيء .

وراحت تعبث بأذنه وتمرر يدها عليه فى حنان ، ووسوست

له بكلمات كانت تملؤه حياة وتجعله يهصرها هصرا ويمطرها قبلات حارة تذيب ثلج قلبها الذى لا يعرف الخفقان والولهان الا بين ذراعيه .

واستشعرت اعراضه عنها وأنه مشغول بأفكار تلوح فى وجهه وعينيه ، فعادت تسأله فى رقة :

ـ ماذا فى رأسك يا حبيبى ؟

ولم يلتفت الى حديثها بل ظل شاردا ينظر الى بعيد ، فأدنت عينيها من عينيه ونظرت ثم قالت فى قلق :

ـ لست معى الليلة ، ماذا بك ؟ أنت لا ترانى يا حبيبى .

واذا بصوت الأخرى يرن فى أذنيه عذبا رقيقا أخاذا يستولى على قلبه ويستلبه لبه ، قائلا فى نبرات كأنها السحر :

ـ « اذا أردت أن ترى حبيبى فلابد أن يرتد بصرك الى بصيرتك » . انه بات يرى لأول مرة بعيون كثيرة غير عينيه اللتين تتوسطان وجهه .

ودفع المرأة التى كانت تتثنى فى أحضانه بعيدا ، وانطلق لا يسمع الضحكات المترددة فى جنبات الدار ولا يرى الأجساد العارية المتناثرة من حوله ، وخرج الى الطريق فأحس كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره وأن غشاوة انجلت عن بصره .

وسار كالمأخوذ ، واذا به يجد نفسه عند دار المرأة التى شغلت باله . وحركت فى نفسه مشاعر ما كان يصدق أنها كامنة فى نفس خبيثة كنفسه . وسمع همهمة فأصغى فاذا بالمرأة تناجى حبيبها فى هجعة الليل والناس نيام .. تقول فى صوت تخنقه العبرات :

ـ الهى ! لقد أغلقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح للسائلين .. الهى ! غارت النجوم ونامت العيون وأنت الحى القيوم الذى

لا تأخذه سنة ولا نوم .. الهى ! فرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه وانت حبيب المجتهدين ..

وقامت ثورة فى نفس أبى الفيض فتفتح قلبه وتدفقت الأفكار الى رأسه وراح يضرب على غير هدى ، فألفى نفسه خارج المدينة فى المكان الذى اعتاد ان يقطع فيه الطريق ، واحس برجل يسير على مقربة منه وهو يتلفت فى ذعر فلم يخطر على باله أن ينقض عليه بل تركه يمر بسلام ، ورفع رأسه الى السماء وهتف قائلا فى ثورة :

ـ ان كنت قد سرقت فقد كنت معى ، وان كنت قد قتلت فقد كنت معى ، وماأقترفت معصية الا وكنت معى ..

وماتت ثورته فجأة واحس نسائم من الرقة تهب على روحه ، فشخص الى السماء وقال :

ـ أحقا يارب ستعذب عبادك ؟ أحقا يارب ستعذبهم بالنار ؟ الهى ! انهم مساكين : ضعاف ترتعد فرائصهم منى ، يرتجفون فزعا من رؤيتى ، وتزهق ارواحهم فى قبضة من يدى .. فكيف يحتملون جبروتك ؟ وماذا يكون حالهم لو وقفوا بين يديك ؟ الهى ! انى غارق فى المعاصى حتى أذنى ، وانى من أهل النار ، فضع خطايا البشر جميعا فوق أكتافى . عذبنى بخطاياهم واغفر لهم واعفه عنهم .. انهممساكين اضعف من أن يتلقوا غضبك اويحتملوا سوط عذابك ..

وأطرق برأسه وأجهش بالبكاء ، واذا به يحس سواد قلبه ينقشع ، وبصيصا من نور ينبثق من سويداء قلبه لينير له بصيرته ، واستمر يناجى ربه والدموع تجرى على خديه :

ـ الهى ! ان كنت لا ترحم الا المجتهدين فمن للمقصرين ؟ وان كنت لا تقبل الا على المخلصين فمن للمسيئين ؟ وان كنت لا تقبل

الا الطائعين فمن للعاصين ؟ وان كنت لا ترحم الا المحسنين فمن للخاطئين ؟

وأخذته سنة من النوم فنام فاذا به يرى رجلين لم ير أحسن منهما ، وقال أحدهما :

ـ السلام عليك يا أبا الفيض .. أبشر فقد غفر ذنبك وعجلت لك البشرى فانطلق معنا .

فانطلق معهما واذا بخيل لا تسبقها خيل كأنها البرق الخاطف أو هبوب الريح .. فركبوا وانطلقوا حتى بلغوا قصرا شاهقا لا يبلغ الطرف منتهاه كأنه صنع من فضة وله نور يتلألأ ، فلما وصلوا اليه انفتح بابه من قبل أن يبلغوه فدخلوا ، واذا بحور ووصائف وولدان بعدد نجوم السماء هرعوا اليهم يستقبلونهم بأرق الكلام وأعذب الألحان . وساروا حتى انتهوا الى مجالس ذات أسرة من ذهب وعاج مكللة بالجواهر محفوفة بكراسى من اليواقيت ، وعلى كل سرير جارية أكثر وضاءة من القمر ، وفى وسطهن واحدة عالية عليهن فى طولها وكمالها وجمالها ، فقال الرجلان :

ـ هذا منزلك وهؤلاء أهلك .

ثم انصرفا عنه ، فوثبت الجوارى وحملنه حتى أجلسنه على السرير الأوسط الى جانب الجارية ، ثم قلن له :

ـ هذه زوجتك .

ونظر أبو الفيض اليها . انها تلك المرأة التى شغلته منذ أن التقى بها ، فغمره السرور ومد يده اليها فرد تهاردا رقيقا ثم قالت له :

ـ أما اليوم فلا .

واستيقظ من نومه وراح يهرول نحو دارها ، حتى اذا بلغها طرق بابها فى رقة ، فسمعها تقول :

ــ من ؟

ــ ضال هداه الله .

وفتح الباب فقال لها :

ــ أتأذنين ؟

ــ تفضل .

فدخل وقال فى اخلاص :

ــ جئت لأكون عبدك .

فقالت فى انكسار :

ــ أنا عبدة فكيف يكون لى عبد ؟

ــ أحببتك منذ رأيتك .. اقبليني زوجا .

ــ ليس الآن .

ــ لماذا ؟

ــ المحبة عروس مهرها النفوس ، وقد بعت نفسى لحبيبى .

ودار على عقبيه وهم بالانصراف فقالت له :

ــ الى أين ؟

ــ أبحث عن عمل شريف ليرى حبيبى أثر الصنعة فى يدى .

وخرج من عندها وتطلع الى السماء وقال :

ــ يا حبيب القلوب أنت حبيبى ، يا سرور السرور انت سرورى ، يا حياة النفوس أنت حياتى وانيسى ، انت نور لنورى .

« ٢ »

ورحـــلا عن باريس

خرج رجل فى الصباح يضرب فى طرقات باريس ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأنما يبحث عن صيد ، كان قصير القامة عريض الكتفين أصلع الرأس فى جبهته نتوءان صغيران كأنهما قرنان ، وفى عينيه المنحرفتين حمرة تكاد تخفى بياضهما ، قد استطال ناباه المقوسان حتى تدليا على شفته السفلى ..

وبلغ محل لافايت فانساب مع الجموع المتدفقة اليه واتجه فى خطوات ثابتة الى السلم المتحرك ، وقفز فى خفة الشـــباب يمتطى احدى الدرجات التى بدأت تتكون فى حركتها الصاعدة تحت قدميه ، وراح يعرج الى جناح ملابس النساء الداخلية . كان يعرف طريقه فيا طالما جاء الى هذا المحل منذ قام فى باريس يمارس نشاطه فيه ..

وراح الدرج يرقى به وهو يكشف من على جنبات المحل ، يرقب الرجال والنساء الذين سروا فى ممراته سريان الدم فى الشرايين فانفرجت شفتاه عن ابتسامة ، وفرك يديه سرورا ..

وبلغ الطبقة التى عرضت فيها ملابس النساء الداخلية فى اغراء يجذب العيون ، واتخذ طريقه الى معرض زجاجى فى مكان مكشوف صفت فيه مقاييس مختلفة لقطع دقيقة من القماش الرقيق استعاضت بها النساء عن ورقة التوت ، فمد يده والتقط قطعة

بنسطها أمام عينيه وأخذ يرصد من خلالها حركات الغادين والرائحين .

ومرت به فتاة ترتدى ثوبا من قطعتين فى لون زرقة السماء ، ناهدة الصدر مسترسلة الشعر فى اغراء ، ووقعت عيناها عليه بيد أنها سارت فى طريقها دون أن تحفل به فاستشعر شيئا من الضيق ، فقد كان وقوع العيون على مثل هذه القطعة فى الأيام الماضية يدفع دم الخجل فى الخدود .

ورأى من خلال القطعة الرقيقة فتى أسمر ممشوق القد أسود العينين والشعر يسير فى اثر الفتاة يرصد قوامها البديع فى اغراء ، فقال وهو يقترب منها :

— جميلة .. أليس كذلك ؟

فابتسم الشاب الأسمر وهز رأسه أن نعم . وأعاد القطعة الدقيقة الى مكانها وسار الى جوار الشاب وقال يستحثه على الاسراع خلفها :

— ماذا تنتظر ؟ أسرع اليها ؟

فقال له الشاب وهو يبتسم فى زهو :

— لماذا ؟

— لتسعد بهذا الجمال .

فقال الفتى وقد أشرق وجهه بالرضا :

— تواعدنا الساعة على أن نلتقى الليلة .

— اذا أردت شيئا أنا فى خدمتك .

— شكرا لك ! الأمور كلها ميسرة فى باريس .

وأحس الرجل شيئا من الضيق . فلو ان الشاب يسير فى طريقه الا انه فى غنى عنه . قال الرجل :

— ومتى جئت الى باريس ؟

— بالأمس فقط .

ولاحت أنياب الرجل بغيضة لما انفرجت شفتاه عن ابتسامة تقطر خبثا ، وقال :

ــ من أين ؟

ــ من مصر .. أتعرفها ؟

وقهقه الرجل قهقهة عالية وقال :

ــ ما أروع الصفقات التى عقدتها فيها !

ــ أزرتها ؟

ــ ما من مكان على وجه الأرض لم أذهب اليه ، وتجارتى رائجة فى كل مكان .

وتنهد الرجل وقال :

ــ كانت باريس قلب تجارتى النابض .

ــ اكسدت تجارتك فيها ؟

ــ ابدا . بيد انى أحس أن الناس فيها لم يعودوا فى حاجة الى . تجارتى رائجة أما أنا فلا أحد اصبح يحس وجودى . شىء اليم اليس كذلك ؟

ولاح فى الوجه الأسمر الدهش . ورنا الشيخ الى الشاب بعينيه المنحرفتين وقال :

ــ ألا تفهمنى ؟

ــ لا أفهم مم تشكو ، ما دامت تجارتك رائجة !

ــ اشكو من اهمال الناس هنا الأمرى . لم يعد أحد يذكرنى هنا بخير أو شر . كان مجرد ذكر باريس على الشفاه يجعل افئدة الناس تهفو الى ، أما الآن فاذا ما ذكرت باريس فالقلوب تحن اليها دون أن أخطر أنا على قلب الناس .

وكانا قد خرجا من محل لافاييت الى الطريق ، فوقعت عيونهما

على شاب أسود غليظ الشفتين مفلفل الشعر يضم فتاة ناصعة البياض الى صدره وقد غابا عن الوجود فى قبلة ، فنظر الشاب الأسمر اليهما فى شىء من الدهشة بينما لاح عدم الرضا فى وجه الرجل .. ساءه أن يحدث ذلك فى غيبة منه .. لم ينتظرا حتى يزين لهما ما فعلاه .. أصبح لا عمل له ! انه عاطل وان كانت تجارته فى أوج مجدها !!

والتفت الى الشاب الأسمر وقال له :

— الى أين ؟

— ذاهب للقاء بعض الزملاء ..

— انى أدعوك لتشرب معى كأسا تحية لقائنا ..

— شكرا سأشرب مع زملائى ..

ولم يدر الرجل أيحزن أم يفرح ، فالشاب ذاهب ليشرب فهو فى طريقه ليستهلك سلعة من أحب السلع التى ينتجها . سلعة يشرح صدره رواجها ، ولكن الشاب قال مقالته فى بساطة تؤكد أنه لم يخطر له على بال ، فغام وجهه بسحابة كدر فبضاعته توزع فى كل مكان بعد أن محى اسمه من عليها !!

والتفت الشاب الأسمر اليه وتأهب لوداعه وهو يقول له :

— اذا فكرت فى زيارة مصر فأنا فى انتظارك ..

ثم قال بالعربية :

— السلام عليكم ..

واربد وجه الرجل . ترى أيسخر منه الشاب لما ألقى عليه السلام ؟ أيدرى مقدار ما حرك فى نفسه من شجن لما قال ما قال ، واستشعر ضيقا فى صدره فدار على عقبيه وهو يتمنى لو أن النار تندلع فى كل مكان ، ثم انطلق دون أن يرد التحية !

وسار وهو حانق يتلفت يبحث عن صيد يعيد الى نفسه الثقة التى تزعزعت ، فوقعت عيناه على فتى وفتاة واقفين جنبا الى جنب يمعنان النظر فى شىء خلف الزجاج ، فخف اليهما مهرولا وقد عقد العزم على أن يستغل كل ما فى طاقته من دهاء .

ونظر الى حيث ينظران ، ووقعت عيناه على كتب كثـــيرة عرضت خلف الزجاج عرضا جذابا يخطف الأبصار ، فزفر زفرة حارة كادت تلهب المكان وكاد الشرر يتطاير من عينيه ، فهو يعرف هذه الكتب ويعرف ما فيها حرفا حرفا ، يحفظه عن ظهر قلب . فهو يذكر أنه هو الذى كان ينفث أفكارها فى أدمغة مؤلفيها ، بل انه يذكر انه كان يحرك الأقلام فى أيديهم فى حماسة فقد كان يسطر أروع ما سيجرف الناس إلى طريقه .

وراح يوسوس للناس أن يقرءوها ويزين لهم أن يعجبوا بها . وتحقق له ما أراد فقد ساقت الناس اليه زمرا غير أنها طعنته فى قلبه طعنة لا يزال يترنح منها ، فقد سلبت منه بضاعته لتغمر بها الأسواق مرة أخرى بأسماء من وضع أفـــكاره فى أدمغتهم وأجرى أقلامهم بتعاليمه . نسى اسمه وذاع فى الأسواق صيتهم !

ورن فى جوفه صوت يقول : « انهم تلاميذك . عليك أن تفخر بهم كما يفخر الأستاذ بتلاميذه المتفوقين . انه يفرح بهم حتى اذا فاقوه » واذا بصوت آخر فى أذنيه غاضبا : « ولكنه لا يغفر لهم أن يمحوا اسمه ليثبتوا أسماءهم . انى أنا الذى خلقتهم وأنا الذى سأقضى عليهم » .

وأشارت الفتاة بأصبعها الى كتاب وقالت :

ــ أريد هذا .

فقال الفتى :

ــ كتاب رائع .. انى قرأته .
فدنا الرجل من الفتاة وقال :
ــ حرام أن تضيعى وقتك فى مثل هذا العبث . انى قرأت كل هذه الكتب . كلها عبث . لا تبعث الا الملل ، ولا تحرك الا السخف والاشمئزاز .
فقالت الفتاة :
ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟
فقال الرجل فى اغراء :
ــ أن تهجرى أوهام الكتب وأن تسعدى بالحيـــاة . أن تمارسى التجارب وأن تعيشيها بكل كيانك بدلاً من أن تعيشى فى الخيال .
فانبرى الشاب له وقال :
ــ تجاربنا مهما تعددت محدودة والقراءة تضــيف تجارب الآخرين الى تجاربنا .
فابتسم الرجل ابتسامة صفراء وقال :
ــ نجحوا فى ان يضللوكم بهذا الكلام . التجــربة واحدة واللذة واحدة وان عرف بعض هؤلاء المضللين أن يخدعوكم عن هذه الحقيقة .
وأشار بأصبعه في غضب الى الكتب المعروضة خلف الزجاج ، ثم راح يوسوس للفتاة :
ــ نشوة كأس ولذة قبلة ومتعة فراش . هذه هى حصيلة كل تجارب الحياة .
فقال له الشاب :
ــ نشوة القراءة قد تكون أمتع من نشوة الكأس ، ولذة المعرفة أبقى من لذة القبلة ، ومتعة اكتشاف النفس أدوم من متعــة الفراش .

ودنا الرجل من الفتاة حتى كأنما يريد أن يحتويها بين ذراعيه ، وراح يهمس لها :

ـــ لا زلت شابة جميلة ، فحرام أن تدفنى هذا الجمال وهذا الشباب مع مثل هذا الذى ذوت رجولته قبل الأوان . فرى منه .. اهربى الى الحياة ، الى الدنيا ، الى اللذة .. لقد شوهوا اللذة يوم فلسفوها وعقدوا الناس بالمخاوف من ممارسة الحياة التى حشوا بها رؤوسهم .

واحس الرجل قهرا .. انه اصبح يذكر مسمياتهم التى عاونهم على ابتكارها ليجرفوا الناس الى طريقة كما يذكرها كل الناس من يدرى منهم ومن لا يدرى .. كان يمتلىء بالحنق لأنها جرت على كل لسان بينما اختفى اسمه واذا بها تجرى الآن على لسانه .. وزفر فى غيظ وهو يتحسر على تلك الأيام التى كان يعلل فيها كل ما استعصى من أمراض بأنه مس من الشيطان .

ونظر الفتى الى الرجل فى تحد وقال :

ـــ الحياة طويلة طويلة ... أطول من أن يملأ فراغها نشوة كأس ولذة قبلة ومتعة فراش ، لا يملأ هذا الفراغ الا لذة المعرفة .

فقال الرجل فى نبرة بذل كل جهده لتنم عن الاشفاق :

ـــ الحياة قصيرة قصيرة ، فحرام أن تضيعاها فى العبث والأوهام ، اذهبا لتنعما بما فيها من لذاذات قبل فوات الأوان .

ووقفت الفتاة حائرة تقلب وجهها بين الفتى والرجل ، الرجل يشير لها الى الطريق والفتى يشير لها الى المكتبة ، ومرت لحظة قلقة واذا بالفتى يمد يده ويجذب الفتاة من يدها فتتبعه كالمسحورة الى داخل المكتبة .

وانقلبت سحنة الرجل وتطاير الشرر من عينيه وجز بأنيابه

البارزة على شفته السفلى حتى كاد يدميها ، وهم بأن يحطم المكتبة ويمزق كل ما فيها من كتب كتبها تلاميذ تمرذوا عليه وسلبوا فى غفلة منه كل سلطانة ، الا انه عز عليه أن يقر بهزيمته وراح يقنع نفسه أن نصرهم هذا الى حين وما أسرع ما يقضى عليهم ، فما أكثر المحن التى مر بها وانتهت جميعا بانتصاره المبين .

وانطلق يضرب فى جنبات باريس حتى بلغ المادلين ووقعت عيناه على كنيسة المجدلية ، فمد بصره الى داخلها فلم يجد فيها احدا .. مقاعد خالية ومذبح الرب فى الصدر ولا شىء غير شموع بهرت الشمس نورها . ووقف وقد شرد ذهنه الى تلك الأيام الخالية .. لقد اقترفت المجدلية الخطيئة باسمه ولم تذكر عليها اسما غيره .. أنها تابت الى الله .. هذا حق ، وانتصرت عليه .. هذا حق ، وقد لعنت يوم وقعت فى الخطيئة .. هذا حق . ان هذه التوبة وهذه اللعنة احنقته ولكن يكفيه أنها ذكرته يوم وقعت فى الخطيئة . أما الآن فما أكثر الخطايا التى ترتكب دون أن يذكر عليها اسمه أو تتحرك الشفاه حتى بلعنه .

وسار ولاح له برج ايفل فاستشعر حسدا ، فالناس كلهم يذكرون اسم المهندس ايفل الذى بنى البرج بينما هو لم يعد أحد يذكر اسمه فى باريس على الأعمال الحافلة التى يقوم بها فى الليل والنهار فى مدينة النور .

وتقدم واشترى تذكرة ليصعد الى أعلى طبقة فى البرج ، ودخل المصعد واذا بصوت ينبعث من المذياع يحذر الناس من النشالين ، فارتسمت على شفتيه بسمة تقطر مرارة . كان يحرض الناس على السرقة وما دار بخلده ابدا أن سيأتى اليوم الذى سيسرق الناس منه كل شىء ، حتى اسمه سيسلبونه منه !!

وراح المصعد يعرج الى السماء وهو يسأل نفسه : ترى هل أنا الآن شيء ؟ لعلني لاشيء ! وأفزعه أنه أضحى يفكر فى الأشياء التى تسها عن طريق تلاميذه الجاحدين فى أذهان البشر واخذ يهذى : ترى هل أنا هزمت ؟ هل فقدت شبابى وسحرى ؟ لا ، لا زلت ساحرا كما كنت ... قويا كما كنت . ان هى الا نكسة وسرعان ما أعبد هنا باسمى كما كنت أعبد من قبل .

وبلغ المصعد آخر طبقة فى البرج فخرج من فيه ، وسار الرجل عابس الوجه ثم وقف ينظر من عليائه الى الكنكورديا والمسلة التى بدت فى الميدان كعـــود ثقـــاب ، ثم راح يرقب الشانزلزيه ويصوب بصره الى الليدو ، واخذ يدور فى كل اتجاه ليرى مونمارتر والفولى برجير والحى اللاتينى ... ان له فى كل ركن سوقا رائجة كان ينبغى أن ينشرح لها قلبه . الا أنه حزين يستشعر الهوان بعد أن طمس اسمه وتلألأت أسماء أعوانه من البشر .

وتلفت خلفه فوقعت عيناه على فتاة جميلة لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، فانسل اليها فى خفة وجلس الى جوارها وهى غارقة فى تأملاتها فقال لها :

ـ جميل أن نتأمل الكون .

وظلت الفتاة ترنو امامها دون أن تتحرك شفتاها بكلمة ، فقال دون أن يحفل بصمتها :

ـ وليس جميلا فى شىء أن تنزوى فتاة جميلة مثلك فى ركن مثل هذا وحدها .

وظلت شاردة ولم يبد عليها أنها تستمعه . ولمح صليبا قد تدلى على صدرها فقال لها :

ـ أتؤمنين بالله ؟

فقالت في هدوء دون أن تلتفت اليه :

ــ ولا بالشيطان .

فارتسمت على شفتيه بسمة مريرة وقال :

ــ شكرا لك . لابد انك تؤمنين بنفسك .

فقالت في صوت متهدج ينم عن الضياع :

ــ من انا ؟ أنا لا شيء .. انا العدم .. انا غير موجودة .

ونهضت وسارت في خطى بطيئة فخف اليها يوسوس لها :

ــ بل أنت الحياة . انت كنوز النشوة . انت خزائن اللذة . افتحي أبوابك المغلقة تنعمي بأجمل ما في الدنيا من متعة .

فالتفتت اليه وقالت في ثورة :

ــ اين الأمس ؟ انه عدم ، واليوم أضحى عدما ، والغد سيصبح عدما . كل شيء عدم .. عدم عبث .. أنا لست موجودة .. أنا لا شيء .

ــ تعالي معي أفتح عينيك على ما في الحياة من جمال .

فقالت في سخرية :

ــ رأيت كل شيء ، وذقت كل شيء ، واستنشقت عبير كل شيء ، ومارست كل تجربة فوجدت الكل باطل .. كل ما في الحياة عبث .. بل لا شيء .. أنا وأنت لا شيء .. كل ما حولنا لا شيء .

وأشارت بأصبعها الى الأرض وقالت :

ــ ما هذا الذي يجري هناك ؟

ــ نهر .

ــ اني أراه ثعبانا . أرأيت ؟ ليس هناك شيء ، بل أوهام مجرد أوهام . من أدراني ؟ .. اني انا وانت لسنا أوهاما ، بل لسنا شيئا على الاطلاق .

فلكزها بيده فى ذراعها لكزة قوية فقالت :

ــ آه !!

فابتسم الرجل فى انتصار وقال :

ــ انا أتألم اذن أنا موجود .

وسرعان ما غاضت ابتسامته ، فطن الى أنه يستخدم تعبيرات من مطبوع وجوده ، وانقشع ألم اللكزة الذى أحسه وقال لها :

ــ ما رأيك ؟

ــ فى ماذا ؟

ــ فى لذة الألم التى سرت فى كيانك ؟ فى الحياة التى نبضت فيك فجأة ؟

فقالت فى اصرار :

ــ عدم .. كل شىء عدم . لم اعد أحس شيئا .

ثم عادت تتلفت وتقول :

ــ من انا ؟ انا لا شىء ... أنا العدم ... أنا لست موجودة .

ثم سارت شاردة اللب لا تلوى على شىء ، فأسرع اليها يقول لهـــا :

ــ حرام أن تحكمى على هذا الجمال بالموت ... حرام عليك هذا العبث . افتحى شبابيك نفسك تنسكب فيك دنان النشوة ، تعالى معى ساعة ... ساعة واحدة .

وظلت فى وجومها لا تسمع شيئا مما يقول . أصمت أذنيها عن وسوساته وانطلقت الى المصعد وهى لا تكاد تحفل بشىء مما حولها .

وعاد الرجل الى حيث كانت ، وجلس فى الركن المنزوى وقد أخفى وجهه براحتيه يحس ضيقا فى صدره وقلقا يسرى فى جوفه

يكاد يعصف به . وراح يسأل نفسه : لماذا لا يوطد نفسه على أن يفرح كلما رأى تجارته فى رواج حتى ولو ذكر عليها أسماء غير اسمه ؟ رضايقه أن يطوف به هذا الخاطر ، فهب من جلسته ثائرا وصاح : لا . انا لا اقبل أن يطغى اسم على اسمى ، لابد أن يعود لاسمى مجده . لقد تحملت كل صنوف الهوان ليظل اسمي خفاقا فى كل مكان .

وانطلق وهو يوسع من خطوه ويتلفت باحثا عن صيد .

وغابت الشمس وولى النهار وسبحت باريس فى بحار من النور ، وانساب الرجل فى الشانزلزيه يرقب السيارات الفاخرة التى تحمل الرجال والنساء وقد لعبت برءوسهم النشوة والمقاهى والبارات التى غصت بطلاب المتعة ، فلم ينشرح صدره .. احس بأن أحدا لم يعد فى حاجة اليه .. ولمح شابا جالسا وحده فى الحديقة الصغيرة التى تطل على الشارع الكبير ، فخف اليه وحياه بانحناءة من رأسه وقال له :

ــ وحدك هنا ؟ هذه اهانة لباريس .

وابتسم الشاب ابتسامة عذبة كان لها أجمل الوقع فى قلب الرجل ، فجلس الى جوار الشاب وهو يحس أن نصره قريب وقال :

ــ ما رايك فى فتاة فى السابعة عشرة رائعة الحسن لم يمسسها بشر ، وكأس من النبيذ .

ونظر فى عينى الشاب وقال :

ــ اتفضل النبيذ ام الويسكى ؟

ورفت على شفتى الشاب ابتسامة عذبة وقال فى هدوء :

ــ شكرا لك ، انى سأتزوج غدا وأريد أن اتنازل عن الفتيات اللاتى كنت أعرفهن الى رجل آخر .

واخرج من جيبه ورقة قدمها الى الرجل وهو يقول :

ـ هذه عناوينهن وأرقام تليفوناتهن .

ولم ييأس الرجل وقال له :

ـ أفي باريس رجل متزوج ليست له خليلة ؟ الزواج لا يحول بينك وبين أن تمتع نفسك ، أن تسعد بحياتك .

فقال له الشاب في هدوء :

ـ لست عاجزا عن أن أجد خليلة ـ لو أردتها ـ وحدى .. لست في حاجة الى معونة أحد .

ونهض الشاب والتفت الى الرجل وقال له :

ـ لا تنس أن تبلغهن شكرى على الساعات السعيدة التى أمضيتها معهن .

وانطلق الشاب في طريقه ، ونهض الرجل متثاقلا وسار يجر رجليه جرا حتى اذا بلغ الليدو ووقعت عيناه على رهط من الأجانب دبت فيه حيويته ، وزحف كالأفعى الى امرأة بدينة وقال لها :

ـ ما أروع العرض في الليدو !

فقالت المرأة في بساطة :

ـ لقد قالوا لى ذلك .

ـ من أين ؟

ـ في سان فرانسسكو .. أمريكا .

ـ بلاد جميلة .

ـ هل زرتها ؟

ـ مع أول من هاجروا اليها ، ومنذ ذلك الوقت أزورها دواما .

وضحكت المرأة ضحكة عالية طليقة فقال لها :

ـ هذه حقيقة .. والناس دائما لا يصدقون الحقائق .

ـــ ظريفة !! قالوا لى ان الرجال ظرفاء فى باريس .

ـــ ما رأيك فى أن نتناول العشاء معا ؟

ـــ كان يسرنى ذلك لولا أن شابا ظريفا دعانى للعشاء أول ما مست قدمى أرض المطار .

وضحكت فى سعادة وقالت :

ـــ حقا ما أظرف الرجال فى باريس !! .

وجاء شاب أنيق ووضع ذراعه فى ذراعها ودلفا الى الليدو والرجل واقف ينظر فى استياء ، فما حياه أحـــدهما ولم يدعه أحدهما مجاملة ، الا ما أهون شأنه الآن فى باريس !!

وسار مطأطىء الراس فى حلقه غصة ومن عينيه يتطاير الشرر ، ورأى على ناصـــية الطرقات شبانا وفتيـــات كالكلاب الضالة . كانت خطيئة واحدة فى الماضى تملأ نفسه انشراحا فقد كانت ترتكب باسمه ، أما هذه الخطايا التى تمارس بالجملة فى كل مكان فانها تثير حنقه ، فهى ترتكب استجابة لشعارات كثيرة ليس من بينها شعار واحد يحمل اسمه .

ولم يحتمل أن تجحده باريس كل هذا الجمود ، فأشار الى تاكسى وخف اليه والقى بنفسه فيه . وما سار التاكسى قليلا حتى التفت السائق اليه وقال له :

ـــ هذه اهانة لباريس أن تذهب الى بيتك الساعة . لقد بدأت الحياة تنبض فى باريس . ما رأيك فى فتاة فى السابعة عشرة رائعة الحسن لم يمسسها بشر وكأس من النبيذ ؟

وساد الصمت برهة فعاد السائق يقول :

ـــ اتفضل النبيذ أم الويسكى ؟

فصاح الرجل فى ضيق :

ــ اسكت .. اسكت أرجوك .

وصمت السائق وهمس فى جوف الرجل هامس يقــول : يا للسخرية ! من ذا الذى اجرى كلماتى على لسانه ولم يوسوس له بها ؟ لا ، لم يعد لى مكان هنا . أفسد حياتى المفكرون والكتاب بعد ان كانوا اخلص جنودى ، استكنت لهم فطعنونى ، سممتهم فاكلونى ..

ووقف التاكسى أمام فندق متواضع ، والتفت الرجل الى السائق وقال له :

ــ انتظرنى .

فالتمعت عينا السائق سرورا وقال :

ــ كنت واثقا يا سيدى انك ستأتى معى ، انها فتاة رائعة فى السابعة عشرة .

وقبل ان ينتهى السائق من مقالته كان الرجل قد اختفى فى جوف الفندق .

ومرت لحظات عاد بعدها الرجل وهو يحمل حقيبة كبيرة ، فهرع اليه السائق يحملها ويضعها فى السيارة ثم قال :

ــ الى أين يا سيدى ؟

ــ الى المحطة .

وانطلقت السيارة والرجل صامت ينظر من الشباك وهو شارد ، وبلغ المحطة فحمل حقيبته ودخل ، وما تقدم خطوات حتى رأى رجلا يرتدى الثياب البيض فى وجهه سماحة يشع من عينيه بريق لطيف والى جواره حقيبة كبيرة ، فأسرع اليه وقال له :

ــ الى اين ؟

فقال الرجل والنور يتألق فى وجهه :

— انى راحل .

— لماذا ؟

— نصحتهم فأعرضوا عنى ، حاولت أن أقودهم الى الطريق المستقيم فوضعوا أصابعهم فى آذانهم . لم يجد فيهم نصحى بعد أن افسدتهم فكان علىّ أن أرحل .

ورأى الرجل السمح الرجل الآخر يجز بأنيابه التى استطالت على شفته السفلى والشرر يتطاير من عينيه ، ووقع بصره على الحقيبة الكبيرة فقال له :

— الى اين ؟

— انى راحل معك .

— اتسخر منى ؟

— ابدا .

— ولمن ستترك الليدو والفولى برجير ومونمارتر والتوبيرى وأموالك واملاكك الواسعة فى باريس ؟

فقال الرجل وهو مطرق وقد اكتسى وجهه بالحزن :

— لقد سلبت منى عقود كل هذه الممتلكات وزورت وادعى ملكيتها أناس فاقونى فى فجرى ، وقد اعترفت كل المحافل بهذا التزوير ، لم يعد لى وجود فى باريس .. انى راحل معك .

وصمت قليلا ثم قال :

— ما ألذ أن نتصارع معا ! أهزمك مرة وتهزمنى مرة ، فما أبشع الحياة بلا كفاح ! .

« ٣ »

الشـبابيك المغلقـة

وقف المعلم ابراهيم على باب قهوته وفى يده خرطوم الماء ، يرش الطريق وهو متجهم الوجه مقطب الجبين ، كأنما كان قابضا على مدفع رشاش ، يصوبه الى صدور الناس . وكان يحرك يده حركات رشيقة فى ثقة واعتداد ، ليتحاشى أن يبل المارة بالماء المتدفق فى قوة من طرف الخرطوم النحاسى الذى كان يتألق فى الشمس ببهر العيون . وجاء شاب يسعى حتى اذا ما أشرف على المقهى رفع عينيه الى الطبقة التى تعلوه . كانت الشبابيك مغلقة عليها تراب كثيف ينم عن أنها لم تفتح من سنين . ولمح المعلم ابراهيم عينى الشاب المتلصصتين اللتين تجرأتا على أن ترفعا عن مواطن قدميه فصوب اليهما فى سرعة البرق الماء المنساب من الخرطوم ، فالتفت الشاب وهو ثائر غاضب ناحية المعلم وقد هم السباب بأن ينطلق من بين شفتيه ، ولكنـه كان يرى الشرر المتطاير من العينين المصوبتين اليه ، وأرهبته الشوارب المفتولة فآثر السلامة واغتصب من نفسه ابتسامة وقال :

— لا مؤاخذه يا معلم ! حصل خير .

وانسل لا يلوى على شىء ولا يلتفت خلفه ولا يحفل بملابسه التى ابتلت . كل ما كان يحسه ذلك الخـوف الذى سرى فى نفسه ، خشية أن يرتفع كرسى ويهوى على رأسه أو تقتفى أثره

منضدة من المناضد القريبة من يد المعلم . وما أن ابتعد عن الخطر حتى زفر فى راحة وحمد الله على نجاته ، فهو يذكر ما حدث لشاب مثله تجرأ يوما على رفع عينيه الى تلك الشبابيك فقد جدع أنفه وسالت دماؤه ، ولولا تدخل الناس لبر المعلم بقسمه الرهيب الذى أقسمه . ورن القسم مخيفا فى أذنيه : « والله العظيم ثلاثا لأضعن أصابعى فى عينيك » واغمض الشاب عينيه ثم فتحهما وهو يشهق وانطلق فى الطريق .

واغلق المعلم صنبور الماء ولف الخرطوم فى عناية ووضعه بيده فى صندوقه ، ثم جذب كرسيا وجلس يرقب من عليائه القادمين والرائحين . وأقبل سليمان صديقه ثم قال :

ـ السلام عليكم يا معلم .

فقال المعلم دون أن ينظر اليه :

ـ وعليكم السلام .

وسحب سليمان كرسيا وجلس بالقرب منه وظل صامتا ، فقد كان معارف المعلم لا يبدءونه بالكلام الا اذا بدأهم بالكلام وتبسط معهم ، أما اذا لزم الصمت فقد كانوا يحبسون السنتهم فى أفواههم خشية غضبه الذى يثور غالبا لكلمة أو همسة أو اشارة يؤولها على هواه ، ولا يكون رده عليها الا لطمة من ظهر يده .

ومرت أمامه فتاة عارية الذراعين مكشوفة الصدر وقد رفعت ثوبها بيدها خشية أن يتلوث طرفه بالطين الذى غطى الطريق . ووقعت عينا المعلم على الساق العارية فبصق على الأرض فى استياء . ورأى سليمان الامتعاض الذى ارتسم على وجهه فقال فى حسرة ليتملقه :

ـ لم يعد فى الدنيا رجال .

ورمقه المعلم بنظرة غاضبة ، وتململ فى حنق وكأنما يقول له : « نحن هنا » . وفهمها سليمان فقال معتذراً :

ـ لم يعد فى الدنيا رجال مثلك يا معلم ، أصبح الرجال كلهم « نعاج » .

وبرم المعلم شاربه فى زهو ثم نهض ورمى ببصره الى الشبابيك المغلقة . ولأول مرة منذ الصباح رفت على شفتيه بسمة رضا .

وسار المعلم الى الجزار والى دكان الخضرى واشترى ما يريد ، ثم حمل ما اشتراه بين ذراعيه وسار صوب البيت .

★ ★ ★

كان باب البيت فى الحارة الضيقة التى تطل عليها ناحية من القهوة ، وكان مفتاحه فى جيبه لا يغادره .. واذا دخل لينام وضعه تحت الوسادة وما كان يفتح باب البيت احد غيره . وعلى الرغم من أنه كان يحكم اغلاقه فقد كان يرصده طوال يومه وليله ، وينقل بصره بينه وبين النوافذ المغلقة .

ووضع المفتاح فى الباب وأداره ، ثم دفع الباب الخشبى الضخم بجسمه ثم عاد وأغلقه خلفه ، ولم ينس أن يدير المفتاح دورتين . وانطلق فى فناء واسع تطل عليه شبابيك الدار حتى بلغ السلم فراح يصتعده فى خفة النمر ، حتى وصل الى الطبقة التى يسكنها ولم يكن فى الدار غيرها .

ودلف الى الردهة ونادى :

ـ فكيهة ، لواحظ . بنت يا فكيهة .

وفى مثل لمح البصر خفت اليه فتاتان ، احداهما فى الثانية والعشرين بيضاء البشرة ممتلئة الجسم ، والثانية فى التاسعة عشرة حلوة خفيفة يتألق فى عينيها الشباب وتترقرق الصحة فى

وجنتيها ، وتقدمت لتحمل ما كان بين يدى أبيها ، وأسرعت فكيهة تعاونها وجاءت الأم تهرول تحاول هى الأخرى أن تفعل شيئا لتثبت وجودها ، والتفت المعلم اليها وقال :

ــ بماذا نحلى اليوم ؟ بطيخ أم شمام ؟

فقالت الأم فى سرعة :

ــ كله حلو يا معلم . ربنا يبارك لنا فيك يا سيدى .

وقالت فكيهة :

ــ بطيخ .

وقالت لواحظ :

ــ شمام .

وانكمشت الأم خشية ان ينفجر فيهما المعلم ، وراحت تنظر الى البنتين نظرات زجر ثم قالت :

ــ كله شهد من أيدك يا سيدى .

وانصرف المعلم دون أن ينبس بكلمة ، وزفرت الأم فى راحة وانثنت تحذر بنتيها من معاودة اظهار الاختلاف امامه وقالت :

ــ الحمد لله . وقف لنا نبى الساعة ! بركة سيدى البيومى .

★ ★ ★

وأتى المساء وغصت القهوة بروادها كان أغلبهم من طائفة المعمار ، وراح المعلم يجوس بين المناضد ويدور فى أرجاء المكان وحول الموائد التى انتشرت على الطوار يرقب الخدم ، ولما اطمأن الى كل شىء سحب كرسيا وجلس الى جوار باب البيت ، وبينما هو فى جلسته تقدم منه شاب على استحياء وقال فى صوت متهدج :

ــ السلام عليكم يا معلم .

ــ وعليكم السلام . تفضل يا سرحان .

وجلس الشاب وراح يرمى المعلم بنظرات شاردة ويفرك يديه ويتململ فى جلسته ويحاول أن يتحدث ، ولكنه لا يجد لسانه .

وفطن المعلم الى أن الشاب يريد أن يفاتحه فى أمر فقال :

ــ ماذا بك يا سرحان ؟

فقال الشاب فى تلعثم :

ــ والله يا معلم لا أدرى كيف أبدا .

واحس المعلم أن الشاب يخشاه ، فانتفخت أوداجه وقال :

ــ تكلم ولك الأمان .

فقال سرحان وقد أطرق ببصره :

ــ أريد يا معلم أن يكون لى شرف .. شرف مصاهرتك .

واربد وجه المعلم وأطل الغضب من عينيه حتى نفرت عروق رقبته وقال فى انفعال :

ــ ماذا تقول يا سرحان ؟

وقال الشاب وهو يفرك يديه :

ــ أريد يا معلم أن تزوجنى احدى بناتك .

وزاد غضب المعلم وقال :

ــ واين رايتهن ؟

ــ لم أرهن . كل ما أريده أن أصاهر رجلا مثلك يعرف كيف يصون بناته .

ولم تهدأ ثورة المعلم على الرغم من أن ذلك القول قد أرضى غروره وقال فى انفعال :

ــ ومن قال لك ان عندى بنات يتزوجن ؟

وتلعثم الشاب .. اكتشف ثورة المعلم أخيرا فراح يفكر فيما

عساه يكون سبب غضبه ، ولكنه لم يهتد لشيء ، ولاح في وجهه الارتباك وزاد في ارتباكه أن صرخ المعلم في وجهه قائلا :

ــ اياك أن يجرى لسانك بمثل هذا الحديث مرة أخرى والا قطعته .. قم من أمامي .. قم .

وقام الشاب وهو يتلفت في ذهول ، وهم بأن يفتح فمه ولكنه رأى المعلم يهب واقفا ويقبض على مسند كرسيه بقبضة من حديد ، فانسل سرحان هاربا قبل أن يرتفع الكرسي ليهشم رأسه .

★ ★ ★

ظل المعلم يزفر في غيظ ، ورفع عينيه الى الشبابيك المغلقة وأخذ يتفرس فيها وفي قلبه ريبة لعله يلمح خلفها أحدا يتحدى اوامره وينظر من خصاصها ، ولكنه لم ير شيئا . وعلى الرغم من ذلك لم يخب اوار الثورة التى اندلعت في أحشائه بل كانت أفكاره تمدها بوقود يزيد نارها ضراما .

وصعد الى البيت وهو عابس مقطب الجبين ، وخفت اليه زوجه وعرفت الغضب في وجهه فقالت له في رقة :

ــ ما الذى يغضب سيدى ؟

فقال في انفعال :

ــ الكلب سرحان ابن أم سرحان .

ــ وماذا فعل ؟

فقال وهو يطرق برأسه كأنما يفضى اليها بشيء مشين :

ــ تجرأ الكلب وطلب منى بنتا من بناتى .

فقالت في حرص :

ــ وما الذى أغضبك في هذا يا سيدى ؟

فقال في ضيق :

ـ من قال ان عندى بنات يتزوجن ؟
فنظرت اليه فى دهشة وقالت :
ـ لو تزوجت فكيهة فى أوانها لكانت اليوم أما لثلاثة ، ولو تزوجت لواحظ ..
فقال فى ثورة :
ـ اسكتى .. اسكتى .. بناتى لن يتزوجهن رجل غريب .
ـ ولكنه يا سيدى لن يكون غريبا بعد الزواج ، سيكون اقرب الى قلب كل منهما منا نحن .
فقال وهو يرنو الى لا شىء وقد امتلأ غضبا :
ـ ان يغلق على بنت من بناتى ورجل غـــريب باب أبدا .. ابدا .
ـ ولكن هذه يا سيدى هى الحياة .
ـ انا لن اقبل هذه الحياة ابدا .. كيف تلتقى عيناى بعينى رجل بعد أن ينام مع بنت من بناتى فى فراش واحد ؟ أنا لا احتمل هذا الذل .. الموت أهون .
ـ انك تظلمهما بهذا ظلما عظيما .
فقال محتدا :
ـ انا لا أظلمهما .. ماذا ينقصهما ؟ اينقصهما طعام أم شراب ؟ انا احضر لهما كل ما يشتهيان .
ـ البنت تفرح بما يقدمة لها زوجهـــا اكثر من فرحهـــا بكل ما نقدمه لها وان كان ..
ولم يتركها تتم حديثها بل صاح فيها :
ـ اخرسى ! لا اريد ان اسمع شيئا . لن تخرج بنت من دارى الا الى القبر . هذا قرارى وما جرؤ أحد على ان يعصى لى امرا .
وذهب الى فراشه وسارت خلفه دون أن تنبس بكلمة ..

أمسكت لسانها فقد علمتها طول عشرته أنه اذا اتخذ قرارا فلا يحيد عنه وان انطبقت السماء على الأرض ، ورأته يهم بأن يصعد الى سريره فقالت :

ـــ أأعد العشاء ؟

فقال وهو يزفر فى غضب :

ـــ سد نفسى ابن أم سرحان ، الله يسد نفسه .



وتمدد فى فراشه وحاول ان ينام ، ولكن أفكاره راحت تعذبه وتطير النوم من عينيه . كان يرى سرحان يضم فكيهة اليه مرة ويضم لواحظ الى صدره مرة اخرى ، ورآه معهما فى فراش واحد فى أوضاع تجعله يستشعر بالدماء تتدفق الى مخه حتى تكاد تفجره .

وهب من سريره وانتصب فى منتصف الغرفة وهو يصيح فى غضب وضيق وثورة :

ـــ الله يخرب بيتك يابن ام سرحان .

وخفت اليه زوجه وقالت له :

ـــ اهدأ يا سيدى وانس ما قال .

ـــ كيف انساه ؟ قد اذلنى ابن ام سرحان .

وتمدد فى فراشه وراحت زوجه تمرر يدها على رأسه وتضمه الى صدرها لتطرد الأفكار التى احتلت خياله ولكن هيهات !



وفى الصباح اجتمعت الأم وفكيهة ولواحظ بعد أن احضر لهما المعلم اللحم والخضار والفاكهة ، واخذن فى تقشير البطاطس .

وكانت الأم تنظر اليهما فى اشفاق ، وبينما كن يتبادلن الحديث اليومى اذا بلواحظ تقول لأمها فجأة :

ــ اريد يا امى أن اخرج من هذا السجن يوما .

واحست الأم كأن شيئا ثقيلا سقط فى قلبها ، وقالت وهى شاردة البصر تتحاشى أن تلتقى عيناها بعينى ابنتها اللتين تألقتا ببريق الرغبة :

ــ وأين تريدين ان تذهبى يا لواحظ ؟

ــ الى اى مكان غير هذا المكان . سئمت يا أمى هذه الحياة .. اريد ان أشم هواء غير هذا الهواء ، ان أرى حيطانا غير هذه الحيطان .

فقالت الأم فى خوف :

ــ لواحظ . اياك ان يسمع أبوك هذا القول .

ــ وماذا سيفعل اذا سمعه ؟

ــ سيذبحنا كلنا يا لواحظ . اعقلى يا بنتى اكراما لى .

وصمتت لواحظ وإن كانت الأفكار تنثال على رأسها ، وراحت فكيهة تنظر الى أختها الصغرى فى اعجاب ودهش . انها تحس ما تحس ولكن لم يدر فى خلدها يوما أن تثور على الحياة التى تحياها ، بيد أن ما قالته لواحظ أطلق لخيالها العنان وأمدها بشوق تواق للفرار من السجن الذى عاشت فيه أكثر من عشرين سنة .

ومر الوقت وجاء الأب وجلس وحده يتناول طعام الغداء ، وما انتهى منه حتى تقدمت اليه لواحظ وقالت :

ــ أريد يا ابى أن اخرج اليوم .

واحس المعلم كأن تيارا كهربيا سرى فيه وصعقه ، فظل ينظر اليها لحظة وهو فى دهشة ثم قال :

ــ ما شاء الله ! واين تريدين أن تذهبى ؟
فقالت فى ثبات :
ــ اريد أن أخرج معك أو مع امى الى أى مكان ، أريد أن أرى الدنيا كما يراها الناس .
وارتفعت يده وهوت على وجهها ، فدوى صوت اللطمة دويا انخلع له قلب الأم وجعل فكيهة تنكمش فى مكانها ، وقال :
ــ والله لأذبحنك ذبحا اذا سمعت منك قلة الأدب هذه مرة اخرى .
واسرعت زوجه اليه وقالت :
ــ سامحها يا سيدى ، انها لا تعرف ما تقول .
ونظر الى زوجه نظرة كلها شر وقال :
ــ تريد أن تخرج معك ! عشنا وشفنا !!
وغادرت لواحظ المكان وذهبت الى غرفتها ، وانسلت فكيهة خلفها وقالت لها :
ــ ما كان أغناك عن هذا القول وانت تعلمين انه لن يرضى بخروجنا أبدا .
فقالت لواحظ فى حزم :
ــ انتهى ما كنت اخشاه . ساخرج ولو اضطررت الى الهرب من هذا البيت .
ــ لواحظ ! أجننت ؟ لعل اللطمة أطارت صوابك .
ــ انها اعادت الى عقلى .
ــ وكيف ستخرجين من هذا السجن وهو كالسجان يغلق الباب بالمفتاح كلما خرج وكلما دخل ؟
ــ فكرت فى كل هذا و قد وجدت مخرجا .
وراحت لواحظ تفضى الى اختهــا بخطتهــا . وجاءت الأم

واستمرت لواحظ فى حديثها دون أن تخشى شيئا ، وقالت الأم فى رعب :

— والله يالواحظ لو عرف أبوك ما تفكرين فيه لذبحك .

فقالت لواحظ فى هدوء :

— انى لا افكر بل سأنفذ الفكرة .. الآن .

وسارت لواحظ واعترضت الأم سبيلها وهى تقول :

— لواحظ .. ارجوك .. اعقلى ا سيذبحنا ، والله لن يتردد فى ذبحنا جميعا .

وقالت فكيهة :

— دعيها يا أمى انى ذاهبة معها .



انسلت الفتاتان من الغرفة وهبطتا الى فناء الدار ، وانطلقتا ناحية تكعيبة العذب وأختا فى نقب الجدار الذى يطل على حارة خلفية .

واستمرت الفتاتان فى العمل ، حتى اذا ما رفع من الجدار أول حجر أطلت لواحظ الى الحارة فى فرح ، وهرولت فكيهة مبتعدة فى خوف وشبح أبيها يبدو لها أينما ولت وجهها فينزل قلبها خوف ويجف حلقها من الهلع .

واستأنفت لواحظ العمل فى عزم ووقفت فكيهة بعيدا وهى تنظر ، ثم جمعت أطراف شجاعتها وتقدمت تعاون أختها ، وجاءت الأم تصرخ وتولول وتقول :

— انتهينا .. انتهينا ..

وفتحت فتحة فى الجدار تسمح بمرور شخص ، وانسلت لواحظ منها وفكيهة ترنو اليها فى خوف واعجاب ، والأم تتلفت فى ذهول تكاد تسقط مغشيا عليها .

وحان ميعاد حضور الأب ولم تعد لواحظ ، فأخذت الأم تغدو وتروح تكاد تموت من الخوف ، وأخذت تردد :

ــ ضعنا .. ضعنا ..

وسمع وقع أقدام المعلم تقترب ، فالتفتت الأم الى فكيهة وقالت لهـا :

ــ ادخلى الحمام حالا وأغلقى الباب خلفك .

وظنت فكيهة أن أمها تريدها أن تتحصن من غضب الأب ، فانطلقت الى الحمام مرعوبة وأغلقته خلفها وهى ترتجف من راسها الى قدميها ، ودخل الأب وقال :

ــ أين البنات ؟

ووضعت فكيهة أذنها على الباب وقلبها يقفز فى رعب فى صدرها ، ويبلغ سمعها صوت الأم وهى تقول :

ــ فى الحمام .

فأحست فكيهة راحة ، فأمهما معهما فى ثورتهما .. أخفت عن الأب غياب لواحظ . ترى أين أنت يا لواحظ الآن ؟

• وفى جنح الليل دخلت لواحظ من النقب الى فنـاء الدار ، وسارت على أطراف أصابعها الى غرفتهما . ولمحتها الأم فزفرت فى راحة ، ، وخفت اليها فكيهة تسمع منها أنباء مغامرتها وهى مشدوهة . كانت كل عواطفها معها وكان خيالها يمد ما تقوله لواحظ بظلال جميلة فتهيم فى رؤى مجنحة تملأ النفس بالرضا والأمل .

وفى الصباح انسلت فكيهة من النقب دون أن تصغى الى تهديد أمها ووعيدها ، فقد أيقنت أن لسان الأم عليهما وقلبها معهما ، وراحت تجوس الطرقات كأنما تهيم فى عالم مسحور . وكانت

مغازلة الرجال لها تدغدغ حواسها وتوقظ فى نفسها مشاعر جميلة تهفو اليها كل خلجة من خلجات نفسها .

* * *

وذات صباح راحت لواحظ تغرى امها بالخروج وتزين لها التمرد على أوامر الأب الجائرة ، قالت :

ــ أمى ! الدنيا جميلة فى الخارج ، حرام أن تدفنى نفسك بنفسك .

فقالت الأم فى خوف :

ــ لا يا لواحظ ، انى راضية بحياتى .

ــ هذه ليست حياة .

فقالت الأم وهى ترتجف :

ــ انى سعيدة ، فلا تنغصى على حياتى .

وطفرت من عين الأم دمعة ، فقد كانت تتوق بكل جوارحها الى الخروج .. الى الانطلاق من الاسر الذى عاشت فيه ، ولكنها كانت أضعف من أن تستجيب الى نوازع نفسها .

وعادت لواحظ ذات ليلة وقد غاض لونها ، فخفت اليها فكيهة وقالت لها :

ــ ماذا بك يا لواحظ ؟

فابتسمت لواحظ وقالت :

ــ لا شىء يوجب الجزع .

ثم راحت تقص على أختها مغامرتها مع رجل دعاها الى بيته ، وأخذت تسهب فى وصف ما كان بينه وبينها ، وما كان فى صوتها رنة أسى بل كانت تموج بالفرحة ، فقالت لها فكيهة فى استنكار :

ــ لا يا لواحظ ما كنت أظن أن يصل الأمر الى هذا .

فقالت لواحظ فى حقد :

ـ لقد انتقمت لنفسى منه .

فقالت فكيهة فى رعب :

ـ ممن ؟

ـ ممن سجننا . من المعلم .

وطافت بفكيهه موجة عارمة من الرهبة ، بيد ان الوصف المثير الذى وصفته لها لواحظ ملك كل عواطفها . وفى صبيحة اليوم التالى كانت فكيهة تنطلق فى الطـــريق وقد أسرفت فى زينتها ، فدنا منها رجل وراح يغازلها وما أسرع ما استجابت لندائه !

وعرف شباب الحى طريقه الى لواحظ وفكيهـــة ، وطافت الفتاتان بغرف طلاب المتعة ، وارضى المعلم أن خبت الثورة التى ارثها ذات ليلة ، والتى حسب أنه قضى عليها بلطمة من يده .

★ ★ ★

وذات يوم جلس المعلم أمام مقهاه شامخا ينظر من عليائه الى الغادين والرائحين وفى نظراته زراية للبشر جميعا ، واقبل صديقه سليمان وقال :

ـ السلام عليكم يا معلم .

فقال المعلم وهو يبتسم :

ـ وعليكم السلام يا أبا داود .

واحس سليمان أن المعلم مقبل عليه ، فدنا منه وقال :

ـ ابلغتك الفضيحه ؟

فقال المعلم فى اهتمام :

ـ اية فضيحة ؟

ـ فرار بنت مصطفى النجار مع ابن عمها وزواجهما فى القسم .

فقال المعلم :

ـ أعوذ بالله ، وماذا فعل مصطفى النجار ؟

فقال سليمان وهو يضحك ساخرا :

ـ يصم فى القسم وهو كالجردل بألا يتعرض لهما .

فقال المعلم فى زراية :

ـ ما أكثر المغفلين فى البلد !

ثم التفت الى الشبابيك المغلقة وقال :

ـ صون النساء بعد الرجال عنهم .

فقال سليمان متملقا :

ـ حكم ، لم يعد فى الدنيا رجال مثلك يا معلم .

فقال المعلم وقد انتفخت أوداجه غرورا :

ـ الرجال قليل يا أبا داود . أنا بيتى لا يعرف طريقه الذباب الأزرق .

ثم انتصب واقفا وعاد ينظر الى الشبابيك المغلقة وقد ارتسمت على شفتيه بسمة عريضة .

« ٤ »

مـــال الله

دوت القاعة بالتصفيق وانحنى عبد الرحمن وقد أفعم بالنشوة يرد تحية الجماهير التى أسكرتها أغانيه العذبة ، واسـدلت الستار فانسل عبد الرحمن وحده وخرج من باب المسرح الخلفي وأصداء الليلة العظيمة ترن فى أغوار نفسه وتشرح صدره وتجعل روحه تهيم فى عوالم من الرضا والغبطة .

وانساب فى جوف الليل كالطيف ، وراح الهواء البارد يداعب وجهه فيزيد فى تألق الاشراق الذى انتشر بين جوانحه والسكينة التى استقرت فى رأسه والسرور الذى يغشـاه ، كان مزهوا بالشهرة التى بلغها واعجاب الناس به والتكريم الذى يلقاه فى كل مكان .

وفى مثل لمح البصر طاف بذهنه بيته الفاخر ، وزوجته الجميلة وابناؤه الأعزاء ، وسيارته السوداء الفخمة التى تنتظره أمام باب المسرح ، ورصيد حسابه الذى يتضخم فى البنوك يوما بعد يوم ، فراح يستنشق الهواء فى طمأنينة ويزفره فى راحة ، واستشعر رغبة فى أن يغنى لنفسه واذا بأصوات تتجاوب فى أغواره تهتف أنت عبقرى .. عبقرى .. فذ .

ورفع رأسه وقد تملكه الزهو وشاعت فى جوانحه بهجة روحية جعلته يرضى عن وجوده ، ويرى فى كل ما يمد اليه

عينيه جمالا تنتشي به ذاته التى فاضت سعادتها حتى كادت تغمر كل شيء .

وسار يتلفت كالمسحور وهو مفعم بالسرور ، واذا بعينيه تقعان على صبى صغير نام الى جوار جدار ، لا يستر جسده الضاوى الأسمر الا القذارة وخرقة ممزقة تناثر عليها هنا وهناك أشكال غير منسجمة من الطين . وفى مثل لمح البصر أشاح بوجهه عن الصبى وانطلق فى طريقه ، بيد أن منظر الصبى الصغير احتل صفحة رأسه وعكر صفوه لحظات ، فقد راحت مشاعر الشفقة نزحف الى صدره لتنحسر عنه موجات الغبطة والرضا والسرور .

وانساب فى طريقه ومس أذنية صوت ربابة تسرى فى سكون الليـــل ، فأصـــاخ سمعه ووسع من خطـــوه وسار ناحيـــة الصوت حتى اذا ما اقترب منه قرع مسامعه صوت أجش بغيض يغنى على الربابة . وبلغ صاحب الصوت فألفاه رجلا يرتدى جلبابا مخططا فوق جاكتة ممزقة برز منها مرفقاه ، وتفرس فى وجهه فألفى آثار الجدرى انتشرت فى صفحته ، وابيضت عيناه ، ويبدو عليه أنه تجاوز الخمسين .. كان ينسول بكل ما عنده من طاقات !

ورن فى أعماق عبد الرحمن صوت يقول فى انكار وشفقة وخوف : « انه يتسول بفنه ! » وتسمر عبد الرحمن فى مكانه لما راح الصوت يهمس فى ضميره : « أنت تغنى وهو يغنى » وانقلب الهمس الى صراخ .

وراحت الأفكار تتدفق الى راس عبد الرحمن : انت لم تخلق حنجرتك .. صوتك الجميل لا فضل لك فيه .. انه هبة .. المال الذى جمعته ليس لك وحدك .. لك شريك فيه .. لا ، انه مالى جمعته بالجهد والكفاح وسهر الليالى وعرق الجبين .

وعاد يتفرس فى وجه الـــرجل الأعمى الذى كان يتســـول

بأغانيه ، فاشتد خفقان قلبه وراح صوت ضميره يقول : « كان من الممكن أن تكون مثـله لولا أن لطف الله . المال الذى جمعته لا فضل لك فيه .. لك فيه شريك . ومن شريكي ؟ الله شريكك .. بل أنه مال الله استخلفك فيه ، للناس كلهم حق فيه » .

ومد يده فى جيبه وأخرج بعض أوراق مالية دسها فى يد الرجل الأعمى ، ثم دار على عقبية ليعود الى سيارته التى تنتظره وقد شغلت راسه أفكار جديدة تمد قلبه بالشفقة والنور .

ونام ليلته وهو سعيد ، وفى الصباح خرج يضرب فى أرجاء المدينة وهو يترقب . كان يبحث بعينيه عن انسان يمد له عونه ، فراى رجلا يرتدى جلبابا قصيرا فوقه جاكتة صفراء يبدو كأنما غمسا فى الزيت والشحم ، ووضع على كتفه حبلا متينا وأسند ظهره الى جدار ينتظر الفرج .. أن يدعوه أحد ليحمل له حملا ثقيلا .

وسار عبد الرحمن الى الرجل ووضع فى يده ورقة مالية ، فاذا بأسارير الرجل تتهلل واذا بلسانه يتحرك فى فمه ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر ليسمع ما يقول ، بل وسع من خطوه وسار بعيدا ليبحث عن آخر يعطيه حقه فى المال الذى يجود الله به عليه .

وانطلق يتلفت فوقعت عيناه على بائع صـحف ينهر ابنـه الصغير ، ثم يمسكه من ذراعه ويدفعه بعيداً وهو يسبه فى حنق ، فاقترب منه وقال له :

ـ لماذا تقسو على الصبى ؟

فقال الرجل فى انكسار :

ـ يريد قرشين ، من أين سآتى له بالنقود ؟

فوضع عبد الرحمن يده فى جيبه واخرج ورقة مالية دفع بها الى الرجل وهو يقول :

ـ خذ واشتر له كل ما يشتهيه .

وقبل أن يفيق الرجل من دهشته كان عبد الرحمن تد انسل وذهب بعيدا عن العيون ليضع فى أيدى من يتفتح لهم قلبه من الشيوخ والضعفاء والمساكين بعض المال الذى استخلفه الله فيـه .

وفى ذات يوم كان منطلقا بسيارته فى طريق قفر ، وكان الحر شديدا والعرق يتصبب من كل مسام جسمه ، ولمح طفلا يرتدى ثيابا بالية يدفع أمامه عربة بها زجاجات فارغة ، يلتقط أنفاسه فى جهد والعرق يتساقط من وجهه على الأرض ، فدنا منه وناداه ، فأقبل الطفل وهو يتلفت فى خوف ، ولما رأى الورقة المالية الممدودة اليه اتسعت عيناه رهبة وقال :

ـ لا ، لا ، لا أريدها .

ووضعها عبد الرحمن فى يده ، ولكن الطفل ألقاها فى فزع وقال وهو يضطرب :

ـ لا ، لا أريدها .

فقال له عبد الرحمن فى حنان :

ـ خذها يا بنى ، انها لك .

وأعادها عبد الرحمن اليه وهم بأن يتحرك بسيارته ، الا أن الطفل تعلق بالسيارة وهو يقول :

ـ لا ، لا أريدها . ارجوك يا سيدى .

وتمهل عبد الرحمن وقال فى هدوء :

ـ انها لك .

فقال الطفل فى تخاذل :

ـ أنا جائع .. أعطنى قرشين . هذا كل ما أريده .

ووضع عبد الرحمن الورقة المالية فى يده فى رفق وقال :

ـــ خذها ، ارجوك .

وقبض الطفل على الورقة وهو ذاهل ، وانساب عبد الرحمن فى طريقه وهو سعيد .

كان عبد الرحمن يمتلىء نشـــوة كلما داعبت اذنيه آهـــات الجمهور ودوى التصفيق ، ولكن تلك النشوة سرعان ما تتبخر وتتلاشى ، اما الغبطة التى يحسها كلما أعطى انسانا حقه فى ماله فانها تتغلغل فى سويداء قلبه وتجعله يعيش فى نعيم مقيم .. وأرضاه أنه استبدل سعادة طارئة بسعادة دائمة ترفرف بهـــا الروح .

وجاء شاب مهدم الى بيت عبد الرحمن ودق الجرس ، وراح يلتقط أنفاسه فى جهد . ومرت لحظات وانفرج الباب عن زوجة عبد الرحمن فوقعت عيناها على الرجل وهو يسند قلبه بيده ، ونظرت اليه نظرة تقول فى ضيق : « نعم ! » ولم يأبه الرجل لنظرتها وقال فى صوت خافت :

ـــ الأستاذ موجود ؟

ومس سمعه صوت عبد الرحمن يقول فى رقة :

ـــ تفضل .

فأشرق وجه الرجل بابتسامة ، ودارت الزوجة على عقبيها وغابت فى البيت ، وما لبثت أن عادت تسترق السمع فقد رابها كثرة الذين يترددون على بيتها فى الأيام الأخيرة من ذوى الذلة والمسكنة .

وترامى الى سمعها صوت الرجل المهدم يقول :

ـــ قال لى الطبيب : لابد أن تأخذ ابر الذهب وأن تتغذى جيدا والا تموت .. سأموت . من اين لى ثمن ابر الذهب ؟ من اين اجد

ما اتغذى به وانا لا أجد ما آكله ! طردونى من العمل لما عرفوا أنى مريض بالسل .

وسمعت زوجها يقول :

ــ اطمئن ! ربنا موجود .

ومدت رأسها ونظرت فرأت زوجها يضع فى يد الرجل شيئا فاستشعرت ضيقا على الرغم من أنها رأت الدموع تغسل وجه الرجل ، أحست أنه يسرق منها حقا من حقوقها وحقوق أبنائها .

وخرج الرجل وبين جوانبه بصيص أمل ، وعاد عبد الرحمن الى حيث كانت زوجه وهو مطرق يفكر فى ذلك الرجل الذى يهدده فقره بمصير مشئوم ، وقال فى صوت خافت :

ــ مسكين .

فقالت زوجه فى سخرية :

ــ والله نحن المساكين .

فرفع رأسه ونظر اليها فى دهش ، وفطنت الى نظرة الانكار التى نرقرتت بها عيناه ، ولكنها لم تحفل بمشاعره وقالت :

ــ انت لا تفكر فينا ولا فى أولادك .

فقال فى الم كأنما طعن قلبه خنجر :

ــ أنا !

ــ لو كنت تفكر فينا ما بعثرت مالك ولضمنت لنا مستقبلنا .

ــ وهل ينقصكم شىء ؟

ــ ماذا فعلت لمستقبلنا ؟ ماذا يكون حالنا لو حدث ــ لا قدر الله ــ لنا حادث ؟

فقال فى ضيق :

ــ لو مت .

فقالت في بساطة :

ـ لا قدر الله ! لابد يا عبد الرحمن أن نضمن مستقبل أولادنا .

ـ وهل ينقصهم شيء ؟ كلهم في احسن المدارس ولا ابخل عليهم بشيء . ماذا يمكن ان افعله لهم ولم افعله ؟ !

فدنت منه وقالت وهي تضمه اليها :

ـ تشتري لهم شيئا ينفعهم في مستقبلهم بدلا من بعثرة مالك .

ولم يعجبه قولها له : « بعثرة مالك » .. وهم بأن يقول لها : « انا حر في مالي أنفقه كيف أشاء » الا انه كبت ثورته التي اندلعت في صدره وقال :

ـ تريدون ما ترثونه بعد موتي ؟

فراحت تمسح رأسه بيدها وقالت :

ـ وهل يشقى الآباء الا ليتركوا لأبنائهم ما يسعدون به ؟

ـ أريد لأبنائي أن يكدو وان يسعدوا بعرق جبينهم .

ـ أن كل قطرة دم تجري في عروقهم منا ، ورثوا عنا كل صفاتنا ، كل ما فينا من فضائل ونقائض ، ذكاءنا وغباءنا ، فطنتنا وحماقاتنا . فلماذا تريد أن تحرمهم من ثمرة جهدنا ؟ هذا حقهم .

ـ والله ما افلح أبدا الذين ينتظرون ما يرثونه .

ـ ومن قال لك انهم ينتظرون ؟ انهم يعملون ويتمنون أن يصلوا بجهدهم ، ولكن علينا ان نؤمن لهم الطريق .. أن نجعلهم يشعرون انهم مطمئنون .

ـ وماذا تريدون ان افعل ؟

ـ ان تشتري لهم أرضا بدلا من بعثرة مالك .

وخزه قولها : « بعثرة مالك » ، وهم بأن يثور الا انه مضغ غضبه وهو كاره وقال :

ـــ ومن يديرها ؟

ـــ أنت .

ـــ انا رجل خلقت لأغنى لا لأدير ارضا . انا لا أقبل ابدا أن أجنى ثمار عرق فلاح فقير !

فقالت فى سخرية :

ـــ ولماذا تقبل أن تجنى ثمار عرق رجال فرقتك الموسيقية ؟

فقال فى حدة :

ـــ انا أعطيهم أجورهم . أنا لا أجنى ثمار عرقهم .

ـــ وستعطى الفلاح أجره .

ـــ هذا يختلف . أنا اعمل مع رجال فرقتى فى الشتاء والصيف ، فى البرد والحر ، أعرق كما يعرقون وأنتفض من البرد كما ينتفضون ، أما الفلاح الذى يفلح الأرض فأنا لا أشاركه تعبه .

ـــ فلماذا تأخذ أنت وحدك جل الايراد ؟ لماذا ؟

ولم يدعها تتم حديثها بل قال فى انفعال :

ـــ انى آخذ ريع موهبتى ، ثمن فنى ، الناس يأتون ليسعدوا بغنائى ، يدفعون ما يدفعون وهم راضون ليتمتعوا بصوتى .

وهمس فى جوفه هامس : « ولكن ذلك الصوت لم تخلقه .. لك فيه شريك » ، واذا بصوت آخر يقول :

« انى أدفع للناس نصيبهم فى كل قرش يرزقنى الله به . أؤدى حق مالى .. لا بل مال الله » .

وأحس انه يتضاءل وقالت زوجه :

ـــ ابن لنا بيتا ، ان كنت لا تريد أن تستغل احدا .

وشغل بالأفكار التى كانت تتدفق الى راسه عن كل شىء حوله ، فقال فى صوت خافت لينهى المناقشة الدائرة بينه وبين زوجه :

ـ سارى .

وخرج الى الطريق وانطلق على غير هدى يتلفت ، فوجد طفلة صغيرة أمامها مشنة بها ليمون ، فذهب الى الطفلة وتناول ليمونة وقال :

ـ بكم ؟

فقالت الطفلة وهى تنظر الى وجهه لتكتشف أثر كلامها فيه :

ـ الليمونة بقرش صاغ .

وتناول خمسا وعشرين ليمونة ووضع فى يد الطفلة خمسين قرشا وأولاها ظهره ، فراحت الطفلة تنقل عينيها بين الورقة المالية وظهر عبد الرحمن فى دهش ، ولما وجدته يبتعد عنها ارتسم على وجهها الفرح الشديد ، ولم تستطع أن تكتم فرحتها فنادت على من حولها ومالت فى سرور وهى تلوح بالورقة المالية وتشير الى عبد الرحمن الذى ابتعد عنها :

ـ ضحكت على هذا الرجل .

وتبسم عبد الرحمن وهمس : « ليت كل الذين يستغلوننى كانوا مثلك ! » وراح يفكر فيما كان بينه وبين زوجه : ان غاية أمانيها أن تملك شيئا ينزع من قلبها خشيتها من المستقبل . انها لا تستطيع أن تنسى ان عمها هو الذى كفلها بعد موت أبيها ، ويا طالما قالت له انها تدعو الله فى جوف الليل أن يجنب أبناءها الحاجة الى عطف الآخرين ! .

وراح يخاطبها فقد ملأت صورتها الطريق : « أنت ضعيفة الايمان كثيرة القلق . هل نفع ابن عمك المال الكثير الذى تركه له أبوه ! أنفقه فيما لا ينفع وهو الآن فقير . ليت عمك سلح ابنه بالعلم بدل ذلك المال المدود الذى تركه له . انه لو فعل ما كان هذا

حال ابن عمك الآن .. اريد ان اجنب ابنائى مصير ابن عمك العزيز » .

وسمع صوتها فى وضوح يقول له : لو سقطنا فى الطريق فمن ذا الذى سيأخذ بأيدى ابنائنا ؟ ما يحتاج اليه البيت يحرم على الجامع ، افق لنفسك يا عبد الرحمن ولا تبعثر مالك » .

« لا ، لا .. انه ليس مالى انا انه مال الله ، وهو قادر على أن يحبسه عنى الآن » .

وراح يتحسس حنجرته فى خوف ويفكر فيما يكون عليه حاله لو أن ذلك الصوت ضاع ، وتملكه فزع وراح يدندن ليطمئن على انه ما يزال يملك هبة الله ، وتجاوب صوته فى ارجائه عذبا كما كان فقال فى رضا : « للناس كلهم حق فيه » .

وعادت تراوده فكرة بناء بيت : « ولماذا لا افعل ؟ سيسوق الله الى أناسا لهم حق فى هذا المال ، لهم فيه نصيب . ساغدق عليهم فى العطاء حتى ترضى نفسى .. وسيرضى ذلك زوجتى وابنائى » .

واشترى ارضا ، وغمرت البيت موجة فرح ، واتفق مع مهندس رشحه له صديق . كان الاتفاق مبلغا دفعه للمهندس بشيك قبل أن يخط على الورق خطا ، وكان هذا هو كل ما بينهما من عقود ، وفى ذات ليلة عاد الى البيت وهو يحمل رسم البيت المنشود فأخذه ابنه امين وعكف عليه يدرسه ، ولما انتهى من الفحص والتدقيق دخل على ابيه ممتعض الوجه وقال فى نرفزة :

ــ انا لا اوافق على هذا الرسم .

وبسط الورق ليناقش اباه ، ولكن عبد الرحمن لم تتفتح نفسه للمناقشة وقال :

ـــ لست صغيرا يا أمين . اذهب الى المهندس وناقشه فى كل ما تريد ادخاله من تعديلات .

وذهب أمين وعاد وهو غاضب حانق ، وقال لأبيه فى ثورة :

ـــ نصيحتى يا ابى ألا تستمر مع هذا الرجل .

ـــ لماذا يا أمين ؟

ـــ لم أرتح اليه ، طريقته فى النقاش لم تعجبنى .

فقال عبد الرحمن فى حدة :

ـــ حرام يا أمين أن تظلم الناس .. أعطه فرصة .

فقال أمين فى حدة :

ـــ يتخرب بيتنا !

فقال عبد الرحمن فى انفعال :

ـــ أمين ! انا لا اسمح لك بأن تجرى وراء عواطفك وأن تطعن الناس .. الرجل لا غاية له الا خدمتنا .

وخرج أمين غاضبا وأحس عبد الرحمن ضيقا ، فما قامت بينه وبين ابنه مشادة قبل أن يشرع فى بناء البيت . وكان يستشعر فى أعماقه أن ابنه فى جانب الحق فهو لم يسترح الى ذلك المهندس بعد أن تكشفت له نذالته فى كثير من افعاله ، الا أنه أبى أن يجرحه بعد أن تكشفت له نذالته فى كثير من افعاله ، الا انه أبى أن يجرحه ووطن العزم على أن يتحمل مضايقاته حتى ينتهى من تشييد ذلك البيت الذى بدأ يحس وطأته على روحه .

وراح ينفق بسخاء على العمال ويعطى المهندس كل ما يطلبه وهو على اليقين من انه لا يستحق الاموال التى يأخذها ، وكان يعلل النفس بأنه ما من احد يستحق عن جدارة ما يفيض عن حاجته وانما هى أرزاق .. يرزق الله من يشاء بغير حساب !

وتكدست مواد البناء واخذ العمل يسير فى بطء شديد والاموال

تتسرب من بين يدى عبد الرحمن ، حتى بدأ يحس ضيقا ماليا ، ولم يكن ذلك الضيق يؤذيه مثل ذلك الضيق النفسى الذى كان يستشعره عقب المشادات التى كانت تشتعل فى البيت كل يوم بينه وبين أمين وزوجه ، فقد كانا يتهمانه بأنه يترك أمواله نهبا للمهندس ورجاله الذين تجاوز استغلالهم له كل حد .

وفى ذات يوم دخل أمين على أبيه وقال :

ـ الى متى ستسكت على هذه المهزلة ؟ أرسل المهندس من سرق نصف حديد التسليح فى الليل .

وانقبض عبد الرحمن وثارت دماؤه فى عروقه وأحس رغبة فى أن يبطش بأحد .. وكاد يهم بالثورة على ابنه ولكنه كبح جماح غضبه وقال فى هدوء وان كانت أعصابه تتمزق :

ـ هذا أمر يستوجب الشكر .

فقال أمين وهو يكاد يثب من الغيظ :

ـ اتريدنى أن أشكر المهندس لأنه يسرقنا ؟

ـ هذا أمر يستوجب الشكر لله ، لأنه أعطانا ما يسرقه الناس ولم يحرمنا ويضطرنا الى سرقة الناس .

ولم يستطع أمين صبرا فقال دون وعى :

ـ يا للبرود !

وأحس عبد الرحمن كأن خنجرا مسموما يسدد الى قلبه وأن كبرياءه تمرغت فى الأوحال ، وهم بأن ينهض ويصفع ابنه ولكن أمين انسل من الغرفة وهى يرغى ويزبد ، وجاءت الخادم وقالت :

ـ رجل فى الخارج يسأل عنك يا سيدى .

فقال لها عبد الرحمن وهو ينهض :

ـ قولى له : تفضل .

ودخل الرجل .. كان ذلك الشاب الذى طرد من عمله بعد أن مرض بالسل ، كان ذاويا ذابلا وكاد نور عينيه ينطفىء ، وتلاشى الغضب من صدر عبد الرحمن وشاعت فيه رحمة فقال للشاب فى رقة :

— تفضل يا بنى .

فقال الشاب والدموع تنهمر من عينيه :

— سأموت يا سيدى ، أنا واثق من ذلك ولكن على أن أصارع الموت . قال لى الطبيب لابد أن آخذ مزيدا من ابر الذهب . آسف يا سيدى ان كنت أثقل عليك .

فقال عبد الرحمن فى صدق :

— أبدا يا بنى ..

ونهض عبد الرحمن وذهب ليأتى ببعض المال . فلما دس يده فى جيبه لم يشعر بتلك النشوة التى كان يستشعرها كلما أعطى ، فقد كان يعطى من مال أعده لتسديد بعض مطالب البيت الجديد .. وعاد الى الشاب ووضع فى يده المبلغ وقد ثار القلق بين جوانحه

وخرج الشاب وهو يجر حطامه ، وأخذ عبد الرحمن ينظر اليه وهو شارد .. انه كان طليقا يحلق فى السموات قبل أن يشده ذلك البيت الى الأرض . كان ناعم البال يشدو شدو البلابل ، فاذا به يصبح قلقا خائفا من غده يخشى الزوابع التى كانت تهب فى منزله فى أى وقت ، كان يعطى الناس نصيبهم فى ماله وهو راضى النفس خفيف الحركة ، فصار يعطيهم والقلق يخفق فى كيانه ، وخطوه ثقيل وعيناه زائغتان لا تستقران على شىء ، فهو لا يعرف الى أين يمد بصره ؟

وفى ذات يوم هبت الزوبعة بينه وبين أمين .. قال أمين :

ــ الى متى نصبر على هذا اللص ؟ سرق مواسير الكهرباء وباع اقفال الشقق ومرغنا فى التراب .

ودخلت الزوجة وجذبت أمين من يده وهى تقول له :

ــ تعال ! اهدأ يا بنى .

فقال أمين وهو يكاد ينشج بالبكاء :

ــ تعالى اسمعى ماذا يقول الناس عنا ، العمال يقولون لم نر تغفيلا مثل هذا التغفيل أبدا .

أنيابه فى غيظ وتملكه غضب شديد حتى كاد يضرب ابنه ويخرج

وكادت الدموع تطفر من عينى عبد الرحمن ، وراح يصرف ليبحث عن ذلك اللص الذى جعله أضحوكة بين الناس ، ولكنه راح يراود نفسه ويقنعها أن مال الدنيا كلها لا يستحق أن يرتكب مثل هذه الحماقات . انه عاهد نفسه أن يحتقر المادة ليسعد .. وكان سعيدا حقا قبل أن يصغى الى زوجه التى نجحت فى أن تجذبه الى الأرض ، انها سحابة تطوف بحياته سرعان ما تمر .

وانتهى البيت ــ وكان لابد أن ينتهى ــ بعد أن مر المهندس بكل ما استطاع أن يسرقه ، وبعد ان ترك العمل يسير على هواه .. ودخل عبد الرحمن على زوجه وأبنائه وقال لهم :

ــ خذوا البيت ودعوا الى تغفيلى .

واحس كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره ، وأن الصدأ الذى ران على روحه قد ذاب ، وان النور بدأ ينتشر فى كيانه ، فقد خرج من سجنه وعاد طليقا ليعطى الناس ــ وهو راض ــ نصيبهم فى ماله .. بل فى مال الله .

« ٥ »

وكـــان صـــــباح

اقبلت عليه متهللة الأسارير وقالت والدنيا لا تكاد تسعها من الفرح :

— مبروك يا رشاد .

ورأى رشاد فى عينيها بسمة جعلته يحس أن الكون كله يبتسم له ، فقال لها :

— والله يا فاتن لقد سررت بنجاحك أكثر من سرورى بنجاحى .

فقالت فاتن وهى تقترب منه وتعبث بأصابعها فى كرفاتته :

— اخيرا لم نعد أطفالا ، اصبحنا قادرين على أن نرسم مستقبلنا بأيدينا ، أن نقرر ما نريد وان نصنع ما نريد . انا سعيدة .. سعيدة يا رشاد .

فقال لها وهو لا يشبع من اجالة عينيه فى وجهها الجميل :

— وأنا أكاد أطير من الفرح .

فقالت فى ثبات وأن تهدج صوتها تهدجا زاده رقة وتأثيرا :

— لم يعد هناك ما يحول دون زواجنا ، لقد نلت يا رشاد الثانوية العامة وحصلت أنا على الثانوية الفنية .. نستطيع ان نعمل . أنت قادر الآن على ان تحصل على اثنى عشر جنيها ، وانا استطيع أن احصل على مثل هذا المبلغ .. أربعة وعشرون جنيها كافية لأن نبدأ حياتنا .

فراح ينظر اليها فى قلق ثم قال :

ــ ولكن أمنية أبى أن ادخل الجامعة .

فقالت له :

ــ تستطيع أن تنتسب الى الجامعة يا حبيبى . ساكون زوجة تعرف واجباتها ، سادفعك الى النجاح دفعا .

فقال لها فى تردد :

ــ ولماذا لا ننتظر يا فاتن حتى ننتهى من أيام التلمذة ؟

ــ ننتظر ! نضيع أسعد أيام حياتنا فى الانتظار ؟ انك لا تحبنى يا رشاد .

فقال فى صدق :

ــ بل أعبدك يا فاتن .

فقالت فى دلال :

ــ إذا كنت تحبنى فلنتزوج . اننا اذا انتظرنا فسيرغمنى أبى على أن اتزوج رجلا آخر ، فلن يقبل أن انتظرك اربع سنوات . ان زوجونى رجلا آخر فساقتل نفسى .

فضمها اليه فى وجد وقال فى استسلام :

ــ لا يا فاتن ، لا أستطيع أن أعيش بدونك ، ماذا تريننا أن نفعل ؟

فقالت فاتن وهى مستكينة بين احضانه :

ــ نهرب يا رشاد .

فقال فى خوف :

ــ نهرب ؟ الى اين ؟

فقالت فى هدوء ، دون أن يبدو فى نبراتها خوف او فزع :

ــ الى اى مكان نكون فيه معا .

ــ ولماذا الهرب ؟

ـــ حتى لا نعود فى قرارنا الذى اتخذناه .

ـــ ولماذا لا ننتظر يا فاتن حتى نجد عملا ثم بعدها نتزوج ؟

ـــ أنت لا تريد أن تهرب معى يا رشاد لأنك لا تحبنى ، فلو كنت تحبنى ما ترددت .

فقال لها رشاد وهو يضمها الى صدره :

ـــ بل أعبدك يا فاتن .

ورفعت اليه عينين آسرتين وقالت :

ـــ كم معك فى صندوق البريد ؟

ـــ خمسة عشر جنيها .

ـــ هذا المبلغ يكفينا حتى نجد عملا .

وابتعدت عنه قليلا ثم قالت :

ـــ أذهب يا رشاد وأحضر المبلغ وما ستحمله معك من ملابسك ، ثم عد فستجدنى هنا فى انتظارك .

فقال فى صوت مضطرب :

ـــ وأنت ؟

ـــ سأذهب الى البيت أحضر ملابسى ثم أعود الى هنا .

وقرأت الفزع فى وجهه فقالت له وهى تبتسم :

ـــ خائف ؟

فقال فى صوت خافت وقد أسبل جفنيه على عينيه :

ـــ نعم .

فقالت فى ثبات :

ـــ ما كان ينبغى أن تخاف وانا معك .

وابتسمت له ابتسامة انقشع بعدها خوفه ، أو لعلها سلبته ارادته فدار على عقبيه وهو يقول :

ـ بعد أقل من ساعة سأكون هنا .

وانصرفا ، ومر الوقت وسرعان ما عادت فاتن تحمل حقيبة وضعت بها ما استطاعت حمله فى غفلة من والديها .

وأقبل رشاد يحمل حقيبة كبيرة ، وما أن وقعت عليه عينا فاتن حتى هرعت اليه وقالت فى مرح :

ـ ما كل هذه الحقيبة ؟ أحملت كل ما فى البيت ؟

فقال وهو يفتصب ابتسامة :

ـ جئت ببعض الطعام والعلب المحفوظة حتى لا نموت من الجوع .

فقالت فاتن فى ثقة :

ـ لن نموت من الجوع ابدا . معك سلاحك ومعى سلاحى .

ثم نظرت اليه بعينيها اللتين لا يستطيع أن يعصى لهما أمرا وقالت :

ـ احضرت النقود ؟

فأخرجها من جيبه وقدمها اليها وقال :

ـ ها هى ذى .

وتناولتها منه واخذت منها بعض جنيهات وقالت :

ـ هذه رسوم الزواج واجر المأذون لن نمسها ابدا .

وقال رشاد وهو يتلفت فى حيرة :

ـ الى اين نذهب الآن ؟

فقالت فاتن فى سرعة كأنما قد أعدت لكل شىء عدته :

ـ الى أى فندق من الفنادق الرخيصة حيث نضع حقائبنا ، ثم نذهب للبحث عن عمل .

وانطلقا الى فندق فى حى من الأحياء الوطنية ، وتقدم رشاد

وهو خافق القلب ثم التفت الى فاتن وهو مذعور وقال :

ــ أننزل فى غرفة واحدة ؟

ــ بل فى غرفتين ، أنسيت ما اتفقنا عليه ؟ لا يعرف أحدنا الآخر قبل الزواج أبدا .

ــ لم انس ، ولكنى أخشى أن تتبخر النقود التى معنا .

فقالت فاتن فى يقين :

ــ سنحصل على عمل قبل أن تنفذ النقود التى معنا ، وبعدها سنتزوج .

وشردت فاتن لترى المستقبل البسام بعين خيالها ، وتقدم رشاد ليحجز لنفسه غرفة وهو خافق القلب واجف يترقب .

وحجز لنفسه غرفة وحجز لفاتن غرفة ملاصقة لغرفته ، ثم عاد اليها فألفاها شاردة وفى وجهها أسى ، فدنا منها وهو خائف وقال لها :

ــ انادمة أنت على ما فعلنا ؟

فأفاقت من شرودها وقالت فى عتاب :

ــ ارجو الا تجرى هذه الكلمة على لسانك مرة أخرى .

فجلس على مقعد بالقرب منها وقال لها :

ــ كنت شاردة .

فقالت وهى تغتصب ابتسامة :

ــ كانت اغلى امانى ان ارتدى ثوبا ابيض ليلة زفافى ، وان يحمل أطفال الأسرة طرف ثوبى .

واحس بالدموع تبلل عينيه ورغبة فى ان يجهش بالبكاء ، ولكنه ملك زمام امره وقال :

ــ اذا كنت نادمة فلنعد قبل فوات الاوان .

فقالت فى حدة وهى تهب واقفة :

ـ قلت لك : لا احب أن تجرى هذه الكلمة مرة اخرى على لسانك .

ـ هل اسأت اليك ؟

فقالت له وهى تحمل حقيبتها :

ـ هيا نضع امامعنا فى غرفنا ثم نذهب نبحث عن عمل . ينبغى الا نضيع الوقت .

وانطلقا يضربان فى شوارع المدينة ، وقبيل الساعة الثالثة عادت فاتن وجلست تنتظر اوبة رشاد . وما انقضى كثير وقت حتى جاء مطرقا يجر رجليه جرا ، ولما رأته خفت اليه وقالت فى لهفة :

ـ ماذا فعلت ؟

فقال فى أسى :

ـ لم اجد عملا . اينما ذهبت كان يقال لى : لا توجد وظائف خالية .

ـ ثم راح يقول فى سخرية مقلدا الرجال الذين مر بهم :

ـ آسف ! تعال بعد شهر ... مع السلامة .

والتفت اليها وقال :

ـ وأنت . ماذا فعلت ؟

فقالت فى هدوء :

ـ وجدت وظيفة لا تليق بمؤهلى .

ـ ولماذا لم تقبليها الى أن تجدى وظيفة افضل ؟

ـ لم يمض الا يوم ، غدا ستجد فرصا كثيرة أمامنا .

ثم نظرت اليه بعينيها الآسرتين وقالت :

ـ اظن انك جائع .

ـ اكاد اموت من الجوع . ساحضر بعض العلب المحفوظة التى جئت بها .

ـ لسنا فى حاجة اليها الآن ، وانا واثقة من اننا سنجد عملا قبل أن نحتاج اليها . تعال !

وسار معها الى مطعم قريب وتناولا فولا وطعمية ، وبينما كان يأكل قالت له :

ـ لذيذ ! أليس كذلك ؟

فقال فى حماس :

ـ جدا ؟

ـ وانتهيا من غذائهما وذهبا الى حديقة قريبة وجلسا يتناجيان ، قالت :

ـ أيهما أوفر يا رشاد ؟ أن نؤجر غرفة نؤثثها أثاثا بسيطا ، أم نظل فى غرفة من غرف الفندق ؟

فقال رشاد وهو شارد :

ـ سنحتاج الى سرير والى فراش والى بعض أدوات المطبخ ، وأظن أن الاربعة والعشرين جنيها لا تكفى اجر الشقة وشراء هذه الأشياء .

ـ من رأيى أن نعيش بعد الزواج فى غرفة من غرف الفندق ، ونستمر فيها حتى ندخر ما نشترى به ما يلزمنا من أثاث وأشياء .

وظلا يهيمان فى دنيا الأمانى ، حتى اذا ما جاء المساء قالت فاتن :

ـ هيا لننام حتى نستطيع أن نستيقظ مبكرا .

ودخل كل منهما غرفته ، وارتمى رشاد فى سريره الخشن وراح يتقلب فيه . كان خياله هناك فى الغرفة الملاصقة لغرفته ،

وسولت له نفسه أكثر من مرة أن يذهب الى الشرفة وأن يعبر منها الى حيث ترقد حبيبة الفؤاد يضمها الى صدره ليطفىء الرغبة المتأججة بين ضلوعه ، ولكن صوتا صارما كان ينبعث من اعماقه ينهره وينهاه ، وضاق بذلك الصوت فهب من سريره وهو يقول فى ضيق :

ــ أقمت بهذه المغامرة لأنام نومة الكلاب هذه ؟

ثم ارتمى مرة أخرى فى سريره ، وظل يتقلب فيه حتى خطفه النوم .

وفى اليوم التالى انطلقا يبحثان عن عمل ، وبعد أن كلت اقدامهما من التعب عادا مطرقين ، وقال رشاد فى يأس :

ــ لا توجد وظائف خالية .

وقالت فاتن :

ــ غدا سنجد الوظيفة المناسبة .

مرت أيام وفاتن ورشاد يخرجان كل صباح للبحث عن عمل ثم يعودان مطرقين ، وراحت الجنيهات القليلة تتسرب من بين أيديهما . وذات ليلة فتحا علبة من العلب المحفوظة التى جاء بها رشاد وجلسا يأكلانها ، وقال رشاد وهو يتنهد :

ــ اين أنت يا فتات مائدة أمى ؟

وأحست فاتن دمعة تكاد تفر من عينيها ، وملأت رأسها صورة امها وأبيها واخواتها فأحست حنينا طاغيا يملأ نفسها . ونظرت الى رشاد بطرف عينها فألفته مشغولا بنفسه عنها فحمدت ذلك فى نفسها ، فلو انه نظر اليها لانفجرت باكية .

وقال رشاد وهو يحلم :

ـ كنت لا آكل الا حمامة محشوة بالأرز والكبد والكلاوى ، وكنت أغضب اذا ما وضعت أمى أمامى صنفا واحدا .

فقالت فاتن فى صوت ضعيف :

ـ غدا سنأكل حماما .

فقال رشاد فى فزع :

ـ فاتن ! من أين ولم يبق معنا الا المبلغ الذى احتجزناه لرسوم الزواج وأجر المأذون ؟

ـ غدا سنجد عملا .

فقال فى صوت خافت :

ـ واذا لم نجد ؟

فقالت فى عناد :

ـ سأبيع بعض ثيابى .

فهب واقفا وقال :

ـ لا ، لا يا فاتن .. لن اقبل هذا ابدا .

ودخل كل منهما غرفته وهو مهموم ، وفى الصباح انطلقا فى جنبات المدينة يبحثان عن عمل ، وبعد أن أغلقت المصالح والدواوين عادوا الى الفندق وقال رشاد :

ـ طلبوا منى أن أقدم طلبا وأن أرفق به ايصال الفيش والتشبيه ، وقد قدمت الطلب ووعدتهم بتقديم الايصال غدا .

وأطرق ، كان يعلم انه سيأخذ الثمن من المبلغ الذى احتجزاه لرسوم الزواج وأجر المأذون ، ومن بين أهدابه المسبلة رأى فاتن تخرج من حقيبة يدها جنيها وتقدمه له وهى تقول :

ـ لا بأس . نؤجل زواجنا شهرا حتى تقبض مرتبك .

فقال رشاد فى ضيق :

ـ ولم كان فرارنا ؟

فقالت فى قوة كأنما تحاول أن تقنع نفسها :

ـ؟ اننا ما فررنا الا لنؤكد حقيقة رغبتنا فى الزواج .

وذهب رشاد الى قلم تحقيق الشخصية ، ثم انطلق بالايصال الى المصلحة التى يرجو أن يعمل بها وأرفقه بطلبه ، ووقف يتحدث مع موظف شاب يسأله ويحاوره ويعبس ويقطب ما بين حاجبيه .

وعاد الى فاتن وقال لها :

ـ سنحتفل الليلة بالنصر الكبير الذى حققناه .

وذهب الى غرفته واحضر كل ما بقى عنده من العلب المحفوظة وراح يفتحها جميعا ، وفاتن تصيح به :

ـ رشاد .. اعقل ! ماذا تفعل ؟ لن نجد ما نأكله غدا .

فقال وهو ينظر الى بعيد :

ـ سنأكل غدا أشهى طعام .

وجاء المساء ودخل كل منهما غرفته ، وتمدد رشاد فى سريره وراح عقله يعمل ، وانقضى الليل ولم ينم الا غرارا .. وما أشرقت الشمس حتى غادر غرفته وذهب الى غرفتها وراح يطرق بابها ، قالت فاتن :

ـ من ؟

ـ أنا رشاد .

وفتحت الباب ودخل رشاد وكان صباحا لا ينسى ، قالت له :

ـ ما الذى جاء بك الساعة ؟

ـ جئت أقول لك اننا نخدع أنفسنا يا فاتن ، اننا حتى لو وجدنا عملا اليوم فعلينا أن ننتظر شهرا قبل أن نقبض أجرنا ، واننا

عاجزون عن أن نعول أنفسنا شهرا آخر . اننا تسرعنا يا فاتن .. أخطأنا ..

فقالت في عناد :

ـ لا ، اننا لم نخطيء ، بل لم تكن ظروفنا مواتية .

ـ كانت كل ظروفنا طيبة الا اننا أردنا أن نلوى عنق الزمن بأيدينا ، لا أدرى كيف وافقتك على أن نرتكب هذه الحماقة ؟ كيف قبلت أن أحطم مستقبلي بيدى ؟

فقالت في غضب :

ـ قل انك سئمتني ، انك لا تحبني .

ونظرت اليه بعينيها الآسرتين بيد أن واقعهما كان أقوى من سحر عينيها ، فقال لها :

ـ اننا نعبث يا فاتن .. عودى الى أهلك وسأعود الى أهلي .

وألفاها ترتجف فقال لها :

ـ أخائفة يا فاتن ؟

فقالت في كبرياء :

ـ لا .. عندى من الشجاعة ما يجعلني أقص على أهلي كل شيء . لم يكن بيننا ما نخجل منه .

فقال في سرور :

ـ سأدخل الجامعة يا فاتن .. وستنتظرينني .

ـ سأنتظر .

ـ وسأخطبك من أهلك ، وسترتدين ليلة الزفاف ثوبك الأبيض وتتحقق أحلامك الجميلة .

واجهشت بالبكاء لأول مرة ، فضمها اليه وقال :

ــ الآن استراح قلبى .

وابتعدت ماتن عنه وراحت تضع أشياءها فى حقيبتها والدموع تملأ عينيها ، كانت صورة أمها وأبيها وأخوتها تحتل كل تفكيرها . وحملت حقيبتها وسارت وقال لها رشاد فى وجد :

ــ مع السلامة .

فالتفتت اليه وقالت :

ــ الى اللقاء يا حبيبى .

ثم انسلت من الغرفة وانطلقت لا تلوى على شىء .

« ٦ »

لقــاء فى فرســـــاى

ذهب الى شباك التذاكر فى قصر فرساى وقال للمرأة العجوز الجالسة خلف الشباك :

ــ تذكرة من فضلك .

فقالت له وهى تنظر اليه من خلف نظارتها :

ــ أى جناح من اجنحة القصر تريد ان تزور يا سيدى ؟

فقال فى هدوء :

ــ مخدع الملكة .

وتناول منها التذكرة واتجه الى غرفة جانبية ووقف ينتظـــر وصول الدليل الذى سيقوده مع رفاقه فى أرجاء القصر العظيم .. ووقف يقلب وجهه فى الذين قدر له أن يرافقهم فى هذه الجولة .. كانوا ستا من العجائز وطفلة صغيرة وغلاما لم يبلغ الحلم وشابا لف ذراعه حول عنق شابة وراح يعبث بأصبعه فى خدها ، وبين لحظة وأخرى يميل عليها ويقبلها .

وتذكر صديقه الذى جاء معه من مصر ، لقد فضل أن ينام فى الظهر ليستطيع ان يقوم الليل فى باريس على أن يضيع وقته فى زيارة اثر لا يهمه : « ليته جاء معى ليحمل نصيبه فى هذا القرف » .

وراح ينقل عينيه بين وجوه الرفاق وقد لوى شفته استياء .

وجاء الدليل .. كانت شابة ممشوقة القامة ناصعة البياض

لها عينان فى لون الفيروز يعلو رأسها شعر أسود مسترسل ، ترتدى جاكتة من الشاموا البنى .. التفت عليهم نظرة سريعة ثم قالت :

— تفضلوا .

وسارت ثابتة الخطو وسار خلفها وقد أحس الحياة تدب فيه ، وراح يفرزها بعينيه من رأسها الى القدم وهى فى طريقها الى المعبد .

وبلغوا أول غرفة من غرف الجناح الخاص ، ووقفت الشابة الجميلة تتحدث فى وقار كأنما كانت تلقى محاضرة قالت :

— كان الملك يتناول الشاى فى هذه الغرفة ، وكان يتناول الشراب فى الغرفة التى ستزورها بعد هذه الغرفة ، أما الغرفة الثالثة فقد كان يستمع فيها الى الموسيقى ، لم يكن الملك يفعل أكثر من شىء واحد فى مكان واحد .

فقال لها وهو يدنو منها :

— كان مؤمنا بالتخصص .

ولم تلتفت اليه واستمرت فى شرح تاريخ صورة من صور لويس الرابع عشر ، ثم سارت الى الغرفة الثانية وهم خلفها ووقفت تقول :

— هذه هى غرفة الشراب . كان الملك يجلس هنا مع ندمائه .

وقالت امرأة عجوز :

— أكانت عشيقته تجلس معهم ؟

فقالت الشابة فى هدوء :

— لا ، كانت عشيقته فى جناحها الخاص ولم تكن الملكة تدرى من أمرها شيئا .

ونظر اليها نظرة كأنما كان يقول لها : « معقول ؟ » .

وفهمت نظرته ، بيد ان وجهها ظل صارما والتفتت الى صورة لمارى انطوانيت وراحت تتحـــدث عنها فى سلاســـة وتدفق ، وما كادت تنتهى من حديثها حتى قال لها :

— وأين اثاث هذا القصر ؟

— باعه الثوار بعد الثورة .

فقال لها وهو يتظاهر بالجد :

— خسارة ! ما جئت إلا لأشتريه .

وابتسم الرفاق وقطبت هى جبينها وانطلقت الى الغـــرفة الثالثة ، وعند صورة رجل يلعب بالقيثارة وقفت وقالت :

— هذه غرفة الموسيقى وكان يطلق عليها اسم « غـــرفة القيثارة » ، كان الملك يشنف اذنيه هنا بالألحان الجميلة .

فقال لها :

— أمن الممكن ان نرقص التويست اليوم على انغام القيثارة ؟

وزمت شفتيها وتظاهرت بالعبوس ، بيد أن شيئا ما ولد فى عينيها تحس له راحة ، واقتربت منه سيدة عجوز وقالت له :

— التويست ! انها رقصة جميلة .

فقال لها مداعبا :

— ترى لو أن التويست عرفت أيام لويس الرابع عشر أكان يرقصها مع الملكة أم مع عشيقته ؟

فقالت وهى تضحك فى سرور :

— مع عشيقته طبعا .

ورأى الشابة ترمقهما فى عتاب فقال وهو يتنهد :

— ما اجمل باريس !

وهمت الشابة بأن تتحرك فقال لها وهو يشير بأصبعه الى السقف :

— من هؤلاء الأطفال ذوو الأجنحة ؟

فقالت وعيناها فى عينيه :

— هؤلاء هم الملائكة .

فقال فى خبث :

— أكان فى باريس ملائكة فى تلك الأيام ؟

فقالت وقد شمخت برأسها :

— فى خيال الشعراء والرسامين وأهل الفن .

وقالت السيدة العجوز التى كانت تحدثه :

— لو طاف الملائكة بباريس يوما لفر منها عشاقها .

وانطلقوا الى غرفة أخرى ، ووقفت الشابة عند بابها تقول :

— هذه غرفة الحرب .. انظروا الى هذا الباب .

وراحت تتحدث عن الباب وهو يرمق ساقيها ، وأفاق لنفسه لما رأى الساقين الجميلتين تتحركان فأسرع خلفهما ، وأشارت الشابة الى السقف وقالت :

— هذه الجميلة التى فى وسط السقف فرنسا ، وهؤلاء الذين حولها هم أعداؤها يتربصون بها .

فقال لها وهو يرنو اليها فى حب :

— لماذا العداوة ؟ لماذا لا يحب الناس بعضهم بعضا ؟

فقالت له وهى تتلقى نظراته فى ثبات :

— هكذا خلق البشر .

وفطن الى أن السيدة العجوز ترمقه فى عتاب كأنما تقول له : « أنا هنا . حدثنى أنا » فقال لها :

ـ لماذا يصور الرسامون فرنسا دائما فى صورة امــرأة جميلة ؟

ـ لان المرأة اجمل ما فى الوجود ،وفرنسا أجمل بلاد الدنيا .

ولم يستطع أن ينظر الى وجه المرأة العجوز طويلا ، فأسرع ينظر الى الشابة الجميلة ليغسل عينيه من القبح الذى ركد فيهما .

وانطلقوا الى غرفة أخرى ونظرت الشابة الجميلة اليهم نظرة خاطفة ثم قالت :

ـ اننا ناقصون .. أين باقينا ؟

والتفت الجميع حولهم واذا بالشاب والشابة قد غابا عن الوجود فى قبلة طويلة فى ركن من أركان غرفة الحرب ، وهم بأن يقول لهما « انتظرا حتى نصل الى مخدع الملكة » الا أنه حبس لسانه فى حلقه وراح يصغى الى الشابة الجميلة التى راح الحديث يتدفق من بين شفتيها ، « آه لو أسير معك فى الشانزلزيه وذراعى حول خصرك وشفتاى تتجولان بين شفتيك وخدك ! » .

وقالت الشابة الجميلة :

ـ هذه غرفة نوم الملك ، وهذا الممر يفصل بين جناح الملك وجناح الملكة .

فقال معلقا :

ـ بين جناح الرجال وجناح الحريم .

واستمرت الشابة فى حديثها ، قالت :

ـ طول هذا الممر أربعة وسبعون مــترا ، وكان مغــطى بسجادتين فقط .

ودنت المرأة العجوز منه وقالت فى انفعال :

ـ الحريم ؟ كم أحب أن أصغى الى حديث الحريم . من أين انت ؟

ـ من مصر .

وكانت الشابة قد وقفت عند شباك يطل على حدائق القصر ، مخف اليها فرارا من المرأة العجوز فألفاها تقول :

ـ انظروا الى هذه الترعة انها تجرى فى منحدر ، فاذا ما سقطت الشمس عليها أصبحت مرآة تتألق بين بساط الزرع الأخضر . روعة ! أليس كذلك ؟

واقتربت المرأة العجوز منهم وقد أخرجت مرآتها من حقيبتها وراحت تصلح زينتها ، فقال وهو ينقل عينيه بين الشابة والمرأة العجوز :

ـ مرآة ينعكس عليها التاريخ .

وفطنت الشابة الى سخريته فرفت على شفتيها بسمة لأول مرة .

ودخلوا غرفة وضع فى صدرها مكتب عادى ، التفتت اليه الشابة الجميلة فى اجلال وقالت :

ـ هذا مكتب تاريخى ، على هذا المكتب وقعت معاهدة فرساى بين الحلفاء والألمان .

وعادت الشابة لتسير فى الممر الطويل الى مخدع الملكة فسار الى جوارها وقال لها :

ـ أرأيت التابوت الذى وضع فيه موسى بعد ولادته وألقى به فى اليم ؟

فقالت وهى تنظر اليه فى اهتمام :

ـ لا ؟ واين ذلك التابوت ؟

وأرضاه أنه أثار اهتمامها فقال لها :

ـ أنه محفوظ عندنا فى مصر .

فقالت فى انكار :

ـ لم أسمع بهذا من قبل .

وكانوا قد وصلوا الى مخدع الملكة فأخذت تتحدث عن المجوهرات التى كانت تحفظ فى الصوان الموضوع فى ركن من الغرفة ، ثم التفتت الى السجادة التى تغطى الأرض وقالت :

ـ هذه السجادة كانت فى حوزة أحد الهولنديين الأثرياء ، وقد اشترتها بربارا هاتون المليونيرة الأمريكية وأعادتها الى القصر .

والفى نفسه يتلفت الى المرأة العجوز ، « لعلها هى الأخرى مليونيرة ! » وفى مثل لمح البصر طاف بذهنه الليدو والفولى برجير والمولان روج . ودنت المرأة العجوز منه وقالت له :

ـ متى ستحدثنى عن الحريم ؟

وقبل أن يفتح فمه سمع الشابة الجميلة تقول :

ـ شكرا لكم ، آسفة لقد حان وقت انتهاء الزيارة .

فاذا به ينجذب اليها ويقول :

ـ جميل أن تنتهى الزيارة فى مخدع الملكة !

وسارت وسار الى جوارها وقال لها :

ـ أين ستذهبين الليلة ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأحدثك عن التابوت الذى وضع فيه موسى والقى به فى اليم .

فقالت فى انكار :

ـ لم أسمع أبدا أن هذا التابوت موجود فى مصر أو فى أى مكان آخر .

فقال فى ثبات دون أن يتلعثم :

ـ أنه موجود عندنا فى مكان يطلق عليه « أثر النبى » .

ثم قال وهو راض عن نفسه لأن كذبته كادت تنطلى عليها :

ـ سأحدثك عن كل ذلك الليلة .

فقالت وهى تبتسم :

ـ واين سنلتقى ؟

ـ فى الفوكيه . سأنتظرك فى الساعة التاسعة .

ـ الى اللقاء .

وسعت من خطوها . وتذكر شيئا فخف اليها وقال لها :

ـ معى صديق يسره أن يقضى سهرة الليلة معنا . أستأذنك فى أن ادعوه .

فقالت فى عزم :

ـ لا ، لا ، أرجوك .

وسارت فى طريقها وأحس بالسيدة العجوز تسعى اليه فأسرع بالهرب .

وفى المساء أخذ يغدو ويروح فى الشانزلزيه أمام الفوكيه . يسير مرة فى اتجاه قوس النصر ويسير أخرى فى اتجاه المسلة وقد بهرته الأنوار المتألقة وجموع البشر المتدفقة كالسيل .

وعاد مرة أخرى الى الفوكيه وراح يتسلى بقراءة قائمة الطعام وأسعارها فانقبض : « أهذه الأسعار بالفرنك القديم أم بالفرنك الجديد ؟ » . كانت الأسعار عالية . ان طعاما بسيطا يتناوله هو ومى يكلفه ما يكفيه طعام شهر فى بلاده !

ودار على عقبيه ، وقبل أن يملك زمام أمره لمحها قادمة . كانت رائعة الحسن ترتدى معطفا أسود قصيرا وثوبا أسود ، فبدا وجهها تحت شعرها الفاحم كهالة من نور ، فالتمعت عيناه سرورا وانفرجت شفتاه عن ابتسامة وتقدم خطوة ليستقبلها .

وهم بأن يمد لها يده ليصافحها فاذا بها تقدم له خدها ليقبلها فارتبك وخاف أن يتحرج الموقف بينهما فطبع على خدها قبلة وهو يكاد يذوب خجلا ، فقد كانت أول قبلة يمارسها فى الطريق وان كانت القبلات تتبادل من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره بغير حساب .

وأراد أن يتجه بها الى الفوكيه ولكنها وقفت وقالت له :

— الى أين .

— نتناول عشاءنا ثم نذهب الى حيث نمضى سهرتنا .

وابتسمت ابتسامة جعلته يرتجف قليلا : ترى هل أسأت اليها ؟ هل خانني التوفيق ؟ .

وقبل أن يسترسل فى محاسبة نفسه قالت :

— هل انت غنى ؟

فقال دون تفكير :

— أبدا .

— اذن تعال معى .

وسارت به الى مطعم رينو . كانت سيارات جميلة على أحدث طراز تعرض فى الواجهة أما فى الداخل فقد نسقت المناضد فى داخل هياكل سيارات تمثل كل الانماط التى انتجها رينو . وقادته الى الطبقة العليا وفى ركن منها جلسنا فى داخل هيكل سيارة .

وكانت الأضواء خافتة فأمدت وجهها بسحر جديد ، فأخذ يرمقها وهو مأخوذ ، ثم قال :

ــ كنت فى فرساى جميلة ، ولكنى لم أكن أتصور أنك بهذه الأناقة .

فقالت وهى تبتسم :

ــ أنسيت أننا فى باريس ؟

وضحك وقرأت فى عينيه أنه يضحك من شىء دار فى ذهنه ، فقالت له :

ــ ماذا يدور فى راسك ؟

فمال نحوها وقال لها :

ــ كثيرا ما يتصور الانسان أشياء سخيفة . خيل الى وأنا أنتظرك أنك ستأتين فى ملابس مارى أنطوانيت .. الخصر نحيل والأرداف ممتلئة .

فابتسمت وقالت وهى تجيل عينيها فى هيكل السيارة الضيق :

ــ وكيف كنت سأدخل من هنا ؟

ــ ما دار بخلدى أن فى باريس مثل هذا المكان ، لو كنا اتفقنا على أن نلتقى هنا لأعيانى التفكير فى دخولك الى السيارة وأنت فى ثياب مارى أنطوانيت !

وابتسمت ثم نظرت اليه نظرة دلال وقالت :

ــ ألم تتصور الشعب وهو يقودنى الى المقصلة ؟

ــ لم أفكر فى شىء بشع كهذا ، ولكننى فكرت فى أشياء جميلة تهب الحياة ملامحها الفاتنة .

ودار الحديث بينهما عذبا كالألحان ، وما خطر لها على قلب أن تسأله عن تابوت موسى .. كانت على يقين من أنه اخترع هذه

الأكذوبة ليثير اهتمامها ويدعوها لتمضية الليلة معه ، وقد قبلت الدعوة وان كان أساسها كذبة : « أهو وحده الكذاب ؟ . الناس يكذبون . وما أكذب التاريخ الذى ترويه كل يوم على أسماع الناس ! » .

وفى غمرة سروره تذكر صديقة : « ترى أين أنت الآن ؟ ومع من تمضى ليلتك ؟ » والتفت اليها وقال :

— لماذا رفضت أن يشاركنا صديقى هذه السهرة ؟

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— السبب بسيط .

— ما هو ؟

— حكاية سمعتها ذات يوم وأنا فى سفينة فى طريقى الى بريطانيا .

— وما هى الحكاية ؟

— سأقصها عليك .

وضحكت ضحكة كلها اغراء وقالت :

— غرقت سفينة واستطاع رجلان وامرأة أن ينجوا من الغرق وأن يصلوا الى جزيرة مهجورة .

— وبعد ؟

— كيف يكون تصرف هؤلاء الثلاثة حيال بعضهم بعضا ؟ لا تنس انهم رجلان وامرأة ؟

— لا أدرى .

فابتسمت وقالت :

— ان كانوا ايطاليين فالمرأة تقتل أحد الرجلين وتستولى على الآخر .

فقال لها وهو ينظر فى عينيها الفيروزيتين :

ـ وان كانوا فرنسيين ؟

ـ يعيش الثلاثة معا فى سلام ولن يدب الخلاف بينهم ابدا .

وكأنما أعجبته القصة فقال لها :

ـ وان كانوا انجليز ؟

فضحكت وقالت :

ـ كأنك تعرف القصة ؟

ـ أبدا . أستنتج فقط .

ـ ان كانوا من الانجليز فلن يحدث بينهم شىء ولن يجرى بينهم حديث ، سيكونون فى حاجة الى رابع يقدم كلا منهم للآخر .

ـ وان كانوا مصريين ؟

فالتمعت عيناها سرورا وقالت :

ـ هذا ما جعلنى اشفق عليك وارفض دعوة صديقك ليمضى الليلة معنا . ان كانوا مصريين يقتل احد الرجلين الآخر ليستولى على المرأة .

وضحكت ضحكة ممدودة ثم قالت :

ـ كنت ستقتل صديقك او يقتلك صديقك .

وقبل أن ينبس بكلمة مالت عليه وقبلته ، وهم بأن يتلفت خشية أن يكون أحد قد رآهما ولكنه تذكر انه فى باريس .

ووضعت خدها على خده وهمست قائلة :

ـ أغاضب انت لاننى رفضت دعوة صديقك ؟

فقال والدم يتدفق الى وجهه :

ـ ابدا ! لا أدرى كيف اشكرك .

وكأنما تذكر كيف يشكر الناس بعضهم فى باريس ، ضمها إليه وقبلها قبلة طويلة تتميز بحرارتها عن القبل التى تطبع على الخدود أو الشفاه فى غابات باريس وحدائقها وشوارعها وميادينها وملاهيها وأماكن عبادتها .

كان شكره لها عميقا !

« ٧ »

تحت الرمـــاد

كان« الجو باردا والشمس مشرقة فكان الناس يهرعون الى حيث كانت الشمس ، يلتمسون الدفء اللذيذ الذى يسرى سريانا منعشا فى الأجسام المقرورة .

وخرج من بيته شيخ جاوز الستين من عمره ، طويل القامة نحيل الجسم أبيض الشعر حنت السنون ظهره قليلا ، يرتدى بذلة من الصوف الثقيل فوقها بالطو من وبر الجمل، ولف حول عنقه كوفية ، يمسك فى يده حفيده وكان طفلا فى الثامنة من عمره له عينان واسعتان سوداوان تجذبان اليهما الأبصار ..

ووقف الشيخ أمام باب البيت لحظة يتلفت يكشف الطريق قبل أن ينقل رجلة ، ثم سار وحفيده فى يده الى حيث كانت الشمس مشرقة ، واتخذ طريقه الى الحديقة القريبة من البيت وكان يمضى فيها مع حفيده أيام الجمع شتاء طلبا للشمس ، وصيفا ابتغاء للنسيم الذى يهب رخاء .

وبلغ الحديقة فوقعت عيناه على مقعد طويل من جذوع الشجر غارقا فى الشمس ، فخف اليه راضيا ، وجلس وهو يفرك يديه فى راحة ويرقب حفيده وهو يجرى ويلعب وبين جوانحه سعادة هادئة استعارت وقارها من وقاره .

وجاءت سيدة عجوز شعرها ناصع البياض ممتلئة الجسم

قصيرة القامة ، يبدو أنها على ابواب الستين ، فى يدها طفلة فى السادسة من عمرها ترتدى بنطلونا أحمر وبلوفر من الصوف من نفس لون البنطلون ، والقت السيدة على المكان نظرة سريعة ثم اتجهت فى خطوات ثابتة الى المقعد الذى جلس عليه الشـيخ وجلست وهى تقول :

ـ صباح الخير يا بسيونى .

وقال الشيخ وقد لاح فى وجهه دهش :

ـ صباح النور .

والتفت الى السيدة بعينين مضعضـعتين ، ثم هتف فى استغراب وترحيب :

ـ سنية ! ما هذه الصدفة السعيدة ؟

فقالت السيدة فى بساطة :

ـ انها ليست صدفة يا بسيونى ، علمت انك تأتى الى هنا صباح يوم الجمعة فجئت لأراك .

فقال فى انشراح :

ـ شكرا .

ثم نظر الى الأفق البعيد وقال فى صوت خافت :

ـ من كان يظن أننا نلتقى بعد أربعين سنة ؟

والتقطت اذناها كل كلمة فقالت فى هدوء :

ـ كنت معى يا بسيونى طوال هذه السنين .. لم يمر يوم دون أن أفكر فيك . كنت اتتبع أخبارك ، ولما علمت انك ستسافر الى بريطانيا أول مرة فكرت أن اذهب الى المطار لأراك من بعيـد ، الا أننى أحجمت لما طاف بى خاطر يزجرنى ويؤكد لى انى بفعلتى هذه أسرق من زوجتك شيئا غاليا ليس من حقى .

ولما علمت بيوم عودتك من سفرك راودتنى فكرة أن أهرع اليك اختلس نظرة ، ولكنى خفت أن تزيد تلك النظرة نارى ضراما ، كنت كنت أتعذب وكنت اجاهد لأحتمل ذلك العذاب المرير . وكثر سفرك وكثرت أوبتك وكثر تفكيرى فى أن أسعى اليك ولكنى كنت أجاهد الأكتم أنفاس تلك الرغبة التى كانت تغرينى بمقابلتك .

ومنذ شهر علمت أنك عدت من الكويت .

وهم بأن يقول لها : « لأموت فى وطنى » ، ولكنه وجد أن تذكر الموت فى هذه اللحظة التى يحس فيها صحوة منتشية تترقرق فى كل كيانه ما كان ينبغى أن يطوف بذهنه ، فأمسك لسانه وراح يصغى اليها بكل جوارحه ، واستمرت فى حديثها قالت :

ـ وعادت رغبتى التى عاشت معى طوال تلك السنين تلح على وتحرضنى على أن القاك . ولما كنت أعلم أنك تأتى الى هنا صباح كل يوم جمعة فقد جئت اليوم لأراك .

واستشعر بسيونى كأن ريحا هبت لتزيح رماد السنين ، وان جذوة من شبابه عادت تشتعل فى أعماقه تمد الجسد الواهن المقرور بدم حار جديد ، فأشرق وجهه ونظر الى سنية نظرة طويلة حالمة .

لم ير شعرها الأبيض ولا التجاعيد التى رسمتها يد الزمن على عنقها وصفحة وجهها ، بل رأى تلك الفتاة الحلوة التى شغفت بها حبا ، حتى الثوب الذى كانت ترتديه آخر مرة وقعت فيها عيناه عليها من أربعين سنة رآه فى وضوح . لم يكن يراها بعينيه بل كان يراها بقلبه الذى عاد اليه شبابه من جديد .

وعمرته سعادة ملأت كل نفسه وكاد فى لحظة أن يسقط من حياته كل الزمن الذى فصل بينه وبينها ، الا أن حفيده جاء اليه وارتمى فى أحضانه فأعاده الى واقعه الذى يعيش فيه .

ونظرت سنية الى الطفل طويلا وثبتت عيناها على عينيه ، وأحست أن بسيوني يرقبها فقالت :

ــ عيناه جميلتان .

وقال بسيوني وهو يضمه في حنان :

ــ انهما مثل عيني أمه .

والتفت الى الطفل وقال :

ــ سامح ابن ابنتي .. هو الذي يشجعني على المجيء الى هنا في يوم عطلته .

ومدت سنية يدها الى الطفل وجذبته في رفق وعيناها لا تتحركان عن عينيه ، وراحت تضمه الى صدرها وتقبله هنا وهناك ، ثم أخذت تقبل جفونه فاذا برعدة خفيفة تسرى في بدنها لما أحست بالمشاعر التي تحركت بين ضلوعها ، وأصغت الى الصوت الهاتف المنبعث من أعماقها : « عيناه جميلتان كعيني أمه . واها لك يا سنية ! » .

وأحست أن انفعالاتها بدت على وجهها ، وأرادت أن تفر من أصوات اللوم التي راحت ترن في وجدانها ، فالتفتت الى حيث كانت الطفلة تلهو وتلعب ونادت :

ــ ناهد .. تعالى .

وجاءت الطفلة وقالت الجدة لبسيوني :

ــ ناهد .. بنت ابني .

فأخذها بسيوني في رفق ورفعها ووضعها على فخذه ، ثم قبلها وخاطر يطوف برأسه يقول : « لو سارت الأمور كما كنت اشتهى لكانت ناهد الآن حفيدتي » .

وخفق قلبه خفقة حنان وكان سعيدا بذلك الخفقان فقد كان

يحسب أن معين الهوى قد نضب فى فؤاده ، وأطلق الطفلة فى رفق وهو يقول :

ــ سامح ، العب مع ناهد .

فمد سامح يده ووضعها فى يد ناهد وسار بها مترفقا ، والجدان يرمقانهما بنفوس راضية وإن شردت منهما الأذهان لتهيم فى متاهات الذكريات ، وتنهد بسيونى وقال :

ــ آه لو عرف الشباب !

وأفاقت سنية من شرودها وقالت :

ــ الا تزال حاقدا على يا بسيونى ؟

فرماها بسيونى بنظرة عتاب وقال :

ــ لم أحقد عليك يوما ياسنية .

فقالت سنية فى صوت خافت ، فقد كانت تحس مقدار ما سببته له من الآلام :

ــ كيف لا تحقد على بعد كل ما كان منى ؟

فقال فى هدوء وإن أحس دقات قلبه الناعمة :

ــ كنت يا سنية حبى الكبير ، والمحب يغفر كل شىء للحبيب .

فقالت سنية وهى تتلفت حتى لا تلتقى عيناها بعينيه ، كانت لا تزال تستشعر الذنب العظيم فى ضميرها :

ــ عشت طوال حياتي وأنا أفزع من حقدك الذى كان ينمو فى خيالى على مر الأيام ، حتى صار وحشا لا هم له الا التنكيل بى .

فقال بسيونى فى عتاب :

ــ لو أحببتنى يوما ما طاف بذهنك أنى أحقد عليك .

فقالت سنية فى حماس :

ــ أحببتك يا بسيونى حبا ملأ شعاب قلبى حتى أننى لم أعرف

الحب بعدك ، كان حبى لك عظيما حتى اننى عشت عليه طوال حياتى .

فنظر اليها فى دهش وقال :

ـ فما الذى دعاك للفرار منى ، للهروب من حبك الكبير ؟

فأطرقت فى أسى وقالت :

ـ اتذكر آخر مرة إلتقينا فيها ؟

ـ أذكرها بكل صغيرة وكبيرة ، بكل ما دار بيننا من أمانى وأحلام . فطالما فكرت فى هذا اللقاء الأخير لعلى أجد مبررا واحدا لاعراضك عنى ، لتلك القطيعة المفاجئة التى اذهلتنى . ولكننى لم أهتد الى شىء ، وامتلكتنى الحيرة وكانت تزداد حيرتى كلما تذكرت تلك القبلة الطويلة التى غبنا فيها عن الوجود لتكون حدا فاصلا بين حياتنا الوتا كانت عبثا قبلها وحياتنا المقبلة التى كنا نظن فى تلك اللحظة انها ستكون حياة زاخرة بالسعادة والحب والهناء .

وصمت قليلا ثم قال :

ـ لقد ظل طعم تلك القبلة فى روحى طوال كل ما انقضى من عمرى .

وتوردت خدود الجدة التى كانت ذابلة من لحظات ، وأحست كأن روحا جديدة سرت فيها سريان السحر فاخضرت مشاعرها اليابسة ، ودق قلبها دقات حانية ، وصدحت بين جوانحها أهازيج رقيقة حالمة كانت قد صمتت صمت القبور من سنين ، وقالت :

ـ ليت الدموع التى ذرفتها فى الليالى الطويلة تكون كفارة عن الحماقة التى ارتكبتها .

ودنا منها قليلا وقال :

ـ لم أعرف حتى الآن لماذا أرسلت الى تلك الرسالة التى

قصور الأماني التي ازدهرت في وجداني ! ان تلك الرسالة حفرت في أعماقي بنار الألم .

وشرد ببصره وراح يقرأ :

« أرجو أن تنسى كل ما كان بيننا .. هذه رسالتي الأخيرة اليك .. وداعا » .

والتفت اليها وقال في مرارة :

ـ أكنت أستطيع أن أنسى ؟ ! كيف طاوعتك يدك على أن تكتبي تلك الرسالة ؟ كانت عباراتها خناجر سددت الى قلبي .

فقالت في صوت متهدج :

ـ كنت أكتبها وقلبي يدمى .

ـ وما الدافع الى كتابتها ؟

ـ أتذكر على ماذا افترقنا في آخر لقاء بيننا ؟

ـ على أن أرسل أمي لتخطبك من أهلك ، وفي الساعة التي كانت أمي تتأهب للذهاب اليكم ، جاءتني رسالتك الظالمة .

ونظرت الى الأغصان العارية وقالت :

ـ كلمة منك هي التي حطمت كل شيء .

فقال في دهش :

ـ كلمة مني أنا ؟ لا أذكر انني قلت كلمة واحدة تخدش شعورك !

ـ قلت لي : ستأتي أمي يوم الخميس لتخطبك . قلت لك وحدها ؟ فقلت لي وحدها ، فليس لي غيرها الا اخت لا تغادر البيت . قلت لك لماذا ؟ فقلت لي لأنها عمياء .

وافترقنا وأنا في قمة السعادة ، ولكن ما ان اغلقت باب غرفتي علي وتمددت في فراشي وأطلقت لخيالي عنانه حتى راح صوتك يرن في جوفي : لأنها عمياء .. عمياء .. عمياء .. ولفتني

رهبة واستولى على خوف شديد ، فقد أخذت أرى فى وضوح أننا تزوجنا وأنجبنا ولدا أعمى فحل الشقاء بنا . وحاولت أن أطرد هذه الصورة الأليمة من ذهنى ، ولكننى أخفقت واستمرت تلح علىّ وتعذبنى .

واحسست بقلبى يهصر هصرا وبألم لا يطاق ينتشر فى كل كيانى ، وحاولت أن أنام دون جدوى فقد استيقظت كل حواسى ، وراح هاتف يهتف بى : لا تكونى أنانية يا سنية ، عليك أن تضحى لتدرئى هذه الجناية . ورحت أقاوم وأصيح ، لا أستطيع .. انى أحبه .. لا أحتمل العيش دونه . وعاد الصوت يصيح بى : ابنك أعمى . وقفزت من سريرى مرعوبة وجعلت أدور فى الغرفة وأنا أصيح : لا .. لا .. لا .

واستقر رايى على أن أضحى بحبنا لأنقذ انفسنا من العذاب الذى يترمص ، فجلست أكتب اليك أن تنسى كل ما كان بيننا وقلبى يتمزق ، والدموع تنهمر على وجهى ، وحزن ثقيل ينزل بى . كان أهون علىّ أن أقتل نفسى من أن أكتب بقلمى سطور شقائى .

وفررت منك وقبلت الزواج من أول رجل جاء يطلبنى ، وذهبت الى بيته بقلب جريح . كان كريما معى وجاهدت لأسعده الا أننى لم أنس أبدا حبى الكبير .

ونظر أمامه ولاح فى وجهه التفكير ، ثم قال فى صوت خافت :

ــ لم يطف بى هذا الخاطر ابدا .

ــ حبى لك هو الذى ضخم فى نفسى ذلك الوهم . خشيتى من أن أراك تتألم هى التى جعلتنى اقدم على هذه التضحية وأنا راضية .

وهزت رأسها فى أسى وقالت :

ــ لم أكن بعد قد تعلمت أن ليس هناك ما يستحق أن نضحى بحبنا من أجله .

فقال لها فى همس كأنما كان يسأل نفسه :

ـ أنادمة أنت على ما كان ؟

وحانت منها التفاتة الى ناهد وقالت :

ـ رضيت بقدرى بعد أن رأيت ابنائى .

والتفت الى سامح ونادى :

ـ سامح .. سامح .. تعال !

وجاء سامح يسعى الى جده وبسيونى ينظر الى عينيه فى اهتمام ، حتى اذا ما دنا سامح منه ضمه اليه وجعل يقبل جفونه وقد ترقرقت فى عينيه المضعضعتين دمعتان .

وجاءت ناهد الى جدتها وقالت :

ـ الا نعود الى البيت ؟

فنهضت الجدة وهى تقول :

ـ متى أراك يا بسيونى ؟

ـ يوم الجمعة القادم .

ـ ولماذا يوم الجمعة ؟

ـ لأنه اليوم آتى فيه مع سامح الى هنا .

فقالت سنية فى ثبات :

ـ عشنا كثيرا لهم وقد آن لنا أن نعيش لأنفسنا ، سألقاك هنا غدا لنسعد بالشمس .

فقال وهو ينظر الى السماء من خلال أغصان الشجر العارية :

ـ غدا اذا اشرقت الشمس .

وسار كل منهما فى طريقه وهو يستشعر أن وقدة من شبابه تتحرك تحت رماد السنين .

« ٨ »

رجـــل من ميـــلانو

كانت الفيات فى كل الأحجام وموتوتسيكلات الفسبا تنساب فى كل فج فى شوارع « كومو » منطلقة فى صعود الى الفنادق والدور المطلة على البحيرة ، ورجال ونساء فى السيارات ، وفتيان وفتيات على الموتوسيكلات ، وضحكات وابتسامات على الشفاه ، وبشر واشراق فى الوجوه ، فاليوم يوم الأحد وقد خلف الناس جميعا متاعبهم فى مصانعهم ومحالهم ومنازلهم وجاءوا الى الطبيعة الخلابة ليرتموا فى حضنها الحنون .

ووقفت سيارة عند باب حديدى وهبط منهـــا بســـكوالى وكلوديا ، فلفح الهواء البارد وجهيهما فاستشعرا انتعاشا يسرى فيهما . واجتـــازت كلوديا الباب فى رقة النســـيم بينما راح بسكوالى يسير بخطى ثقيلة ، ينظر الى البيوت المتناثرة على سفح الجبل بعيون ملأها الحسد .

كانت السحب البيضاء تغطى وجه السماء وتلقى على الدور النابتة كاليواقيت على سفح الجبه الأخضر ظلالا تضفى عليها جلال الغموض ، وكانت البحيرة هادئة وقف على شـــواطئها بعض الشيوخ والأطفال يتسلون بصيد السمك ، ويصـــيحون فى مرح اذا صاد أحدهم سمكة صغيرة لا تغنى ولا تسمن من جوع .

وجلست كلوديا فى شرفة الفندق تدور بعينيها فيما حولهـــا

فتحس كأنما نرشف بروحها رحيق ما فى الكون من سحر وصفاء ، بينما راح بسكوالى يغدو ويروح لا يستقر له قرار ، فالتفتت اليه وقالت وهى تشير الى مقعد وثير الى جوارها :

ـــ تعال ! ما أروع المنظر من هنا !

وظل بسكوالى زائغ البصر وراح يزفر فى ضيق ، فقالت له :

ـــ ماذا بك ؟

فقال فى غضب وهو يشير بأصبعه ناحية البيوت الجميلة المتألقة على سفح الجبل :

ـــ لماذا أجلس أنا هنا بينما هناك من يملك هذه الدور ؟ لماذا لا يكون لى بيت بين هذه البيوت ، وزورق أمرح به فى البحيرة ، وسيارة كبيرة أجوب بها ايطاليا عرضا وطولا .. أنا من ميلانو يا كلوديا ، اننا نمقت الفقر .

فقالت له وهى ترقب سحنته التى لاح فيها طمع يموج بالقلق :

ـــ اننا لسنا فقراء .

فقال فى انفعال :

ـــ ولكننا لسنا أغنياء .. ما اجمل أن اكون غنيا وأن أكون قويا .. أن أكون سعيدا .

ـــ اذا كنت يا بسكوالى تحب المال ..

فقال مقاطعا :

ـــ انى أعبده .. أنا من ميلانو يا كلوديا .

فعادت تقول وهى ترصد انفعاله :

ـــ اذا كنت تحب المال فلماذا رفضت مشاركة لوسيانو فى مشروعه ؟ انه مشروع ناجح ما فى ذلك شك .

ـــ لا ، لا يمكن أن أشترك أنا ولوسيانو فى مشروع واحد .

ـ لماذا ؟

ـ أنا طماع ولوسيانو طماع ، ولا يمكن أن يتفق طماعان .

ـ كل الذين يتطلعون الى الغنى طماعون .

ـ هذا حق ، ولكن الطمع درجات . لوسيانو مثلى .. جشع ، لا يحفل من أين يحصل على المال . كل ما يرجوه أن يستولى عليه حتى لو سلب شريكه ، لو اغتاله . لا يا كلوديا .. لا يمكن أن نتفق أنا ولوسيانو أبدا . أنا أعرفه وأعرف نفسى .

ورمقته بعينين واسعتين وقالت :

ـ لماذا تكشف نفسك يا بسكوالى ؟

فقال وهو يهز كتفيه : مع نفسى لا يهمنى أحد .

ـ والناس ؟

ـ انهم أهون من أن أفكر فيهم . اذا أصبحت غنيا فسيهرعون الىّ وسيبذلون كل ما فى طاقاتهم من مهارات ليكسبوا ودى . سأصبح فجأة ذكيا عبقريا خفيف الظل ، محور كل اجتماع أكون فيه ، وقبلة الأنظار .

ودنا من زوجته وقال وعيناه فى عينيها :

ـ حتى أنت يا كلوديا ستختلف وقتئذ نظرتك الىّ .

فرفت على شفتيها ابتسامة ، وقالت وهى تتظاهر بعدم الاكتراث وان أرهفت حواسها وتأهبت فى قلق لتسمع رأيه ، قال :

ـ أنا الآن زوجك ، أما لو صرت غنيا فسأصبح بنكك .

فقالت فى عتاب وقد بدا الغضب فى عينيها الجميلتين :

ـ بسكوالى !

ـ ما الذى يغضبك فى هذا ؟ أنا رجل واقعى .. رجل من

ميلانو لا تغضبنى الحقائق ، وهذه الحقيقة بالذات لا تقلقنى بل ترضى غرورى .

وانحنى امامها فى حركة تمثيلية وقال :

ـ يسرنى يا كلوديا أن اكون بنكك الذى يلبى كل ما تطلبين .

فقالت فى ضيق :

ـ لا يا بسكوالى ، لا .. هذا فظيع .

ـ ما اكثر الحقائق التى تبدو لنا فى أول الأمر فظيعة .

ـ هذا بشع . لا يا بسكوالى .. دع هذا الهزر وقل لى كلمة رقيقة يا عزيزى اغسل بها والأدران التى صببتها فى أذنى . أنت أرق مما تود أن تصور بك نفسك يا حبيبى .. انا اعرفك جيدا ، اعرفك اكثر مما تعرف نفسك .

ـ لولا انى احبك يا كلوديا ما صارحتك بكل ما فى نفسى . اننا لا نبدو على حقيقتنا الا اذا جعنا واحتجنا أو شبعنا واستغنينا ، ونحن أدنياء فى الحالتين ، وان اكون وضيعا غنيا جير من ان اكون وضيعا فقيرا .

ـ كفى يا بسكوالى انى لا أصدق كلمة مما تقول .

ـ لماذا ؟

ـ لأنى اومن بك واومن بالبشر جميعا .

ـ الفرق بينى وبينك يا كلوديا انى رجل أحب أن أعيش فى الواقع ، بينما أنت امراة عاطفية تتعلقين بالأوهام . سترين يا عزيزتى ماذا سيكون حالنا لو أصبحنا أغنياء .

ـ ماذا سيكون حالنا ؟

ـ سيتوهج معدننا النفس .

ـ خيالات ! ستستطيل انيابنا وتقسو اكبادنا وتغلظ قلوبنا .

ـ أعرف من أين جاءتك هـــذه الأفـــكار ، من تلك الكتب المتشائمة التى لا هم لها الا تنغيض حياة الناس . ماذا يريدون من تسليط أضوائهم على أحط ما فينا ؟ ولماذا لا يحلو لهم أن يعبثوا الا فى الأقذار ؟ اننا لسنا مشاعر هابطة وحسب ، ان فينا نورا يستطيع أن ينير لنا طريق الحياة ، لماذا يجاهدون ليطفئوه بأنفاسهم الخبيثة ؟ ما الذى سيجنونه من بذر بذور السخط بين الناس ؟

ـ نجحوا فى أن يملئوا قلبك بالمرارة ، فلم تر ما حولك من جمال ولم تعرف راحة البال .

ونزل من السماء ماء رذاذ فخرج بسكوالى متبرما من الشرفة وتبعته كلوديا وعادا الى سيارتهما . كانت سيارة متوسطة الحجم لا هى بالكبيرة ولاهى بالصغيرة ، سيارة يتمنى أن يقتنى مثلها ملايين البشر ، ولكنها كانت قذى فى عينى صاحبها لأنها لم تكن أفخم سيارة فى ميلانو .

واشتد المطر وانسابت السيارة فى طريق ميلانو .. كانت الأرض الخضراء الزاهية مترامية على جانبى الطريق تزيد جمال الطبيعة روعة وتمده بسحر تستريح اليه النفـــوس ، وكانت ضحكات الفتيان والفتيات من راكبى الفسبا تجلجل فى مرح فكانت نغما جميلا متساوقا مع زفيف الهواء ورفيف الشـــجر وصـــوت المطر ، الا أن بسكوالى كان مقطب الجبين يصغى فى ضيق الى صوت ارتطام قطوات الماء بسقف السيارة ، ويرقب فى غضب حركة المساحات التى تغدو وتروح على زجاجها الأمامى . وظلت كلوديا صامتة وان كانت تنظر الى الكون فى خشوع ، وقد تفتحت نفسها كأنما كانت على صلة بروح الكون المشرقة .

ودخلت السيارة ميلانو ولاحت كنيستها الكبيرة على البعد ،

وخفت الرجل فى الشوارع وان اشتدت حركة الترام والتاكسى والأوتوبيسات . ووقف بسكوالى على الجانب المواجه للكنيسة أمام الممر الكبير المسقوف بزجاج مقوس سميك ، وهبطت كلوديا من السيارة وتبعها فى سرعة ، وما سارا خطوات حتى وصلا الى المقهى القائم عند ناصية الممر فوقف بسكوالى وقال :

ـ تعالى نتناول فنجانا من الشاى .

وجلسا صامتين ، ولكن بسكوالى كان ينقل عينيه بين العجائز والشيوخ الذين انتشروا على طول الممر يعرضون أوراق اليانصيب الكبير ، وينادون على ملايين الليرات التى تنتظر الرجل السعيد .

وتناول بسكوالى الشاى وهو مشغول باليانصيب ، ورأى نفسه أكثر من مرة وهو يقبض المبلغ الكبير . واستولت عليه فكرة أن يشترى ورقة ويجرب حظه ، ولكنه راح يجاهد هذه الفكرة ويبعدها عن خاطره .

ونهض هو وكلوديا وأخذا يذرعان الممر جيئة وذهوبا .. انطلقا يشاهدان المعروضات فى واجهة محـــل « رنشينتى » وأصوات باعة اليانصيب ترن فى أذنيه ،ثم عاد الى الممر حتى اذا صارا أمام فندق « دومو » كان الاغراء قد بلغ منتهاه فخف بسكوالى يشترى ورقة ، ومرت به فتاة من فتيات الليل فابتسمت له وقالت مداعبة :

ـ اذا كسبت فاذكرنى ، ستجدنى هنا فى انتظارك بعد السحب .

ولم تنفرج شفتاه ودس الورقة فى حرص فى حافظة نقوده ، ثم أسرع الى كلوديا التى كانت ترقبه من بعيد .

ومرت الأيام رتيبة لا ارهاصات فيها ، وذات ليلة عاد بسكوالى الى الدار وهو يعدو كالمجنون ، ووضع المفتاح فى الباب وأداره فى انفعال شديد وراح يصيح :

ــ كلوديا .. كلوديا .. كلوديا ..

وهرعت زوجته اليه فاحتواها بين ذراعيه وطفق يردد فى انشراح :

ــ أنا غنى .. غنى .. غنى يا كلوديا .. انا اسعد مخلوق فى الوجود .

واخذ يقبلها هنا وهناك فى انفعال شديد ويقول :

ــ اصبحنا أغنياء . كسبت البريمو .. انا الآن بنكك . اطلبى ما تشائين .

واغرورقت عينا كلوديا بالدموع ..

وسمع طرقا على الباب فقال بسكوالى فى فرح شديد :

ــ جاءوا يهنئوننى .. افتحى .. افتحى يا كلوديا ..

واسرعت كلوديا الى الباب وفتحته ، فألفت أمامها امرأة من الجيران بدينة قد ابيض شعرها وتجعد وجهها ولاح البؤس فى عينيها ، وصاح بسكوالى يسأل :

ــ من ؟ من يا كلوديا ؟

وقالت كلوديا فى صوت عال :

ــ صوفيا .. جارتنا صوفيا .

ــ مرحبا بجارتنا العزيزه .

وهرع بسكوالى اليها يرحب بها ويدعوها الى الجلوس ، فقعدت العجوز وهى تقول :

ــ تعلم يا بسكوالى كم احبك .

فأسرع بسكوالى يقول :

ــ اعلم .. اعلم .

ــ وتعلم ما يقاسيه ابنى مالفازيو المسكين .

فقالت كلوديا فى صدق :

— قلبى يتقطع كلما أرى مالفازيو العزيز .

فقالت الأم وفى عينيها الدموع :

— ثلاث سنوات وهو فى فراشه ممدد بلا حركة .. انه كل أملى فى الحياة ، قالوا لى : لابد من اجراء عملية جراحية وطلبوا مبلغا كبيرا . ولو طلبوا روحى لدفعتها اليهم وأنا راضية ، أما المبلغ فانى لا أملكه . من أين لفقير مثلى كل هذا المبلغ ؟

وصمتت قليلا ثم قالت وهى ترنو الى بسكوالى فى توسل وعطف :

— هل لك فى ان تنقذ ابنى .. ابنى الوحيد ؟

وأجهشت المرأة بالبكاء فقال بسكوالى فى تأثر :

— كفكفى دموعك يا جارتنا العزيزة ، ابنك سأتكفل به .

وهبت المرأة العجوز لتقبل يديه ، فأسرع بسكوالى يضمها اليه فى عطف ، ووقفت كلوديا ترصد ما يجرى أمامها فى تأثر تكاد العبرات تخنقها ، وما خرجت صوفيا العجوز حتى طوقت كلوديا زوجها وراحت تقبله وتقول له :

— أنت نبيل .. نبيل .

فقال بسكوالى فى تواضع :

— انها جارتنا يا كلوديا .

وجلس بسكوالى يتحدث فى حماس عن مستقبله ، قال :

— سأشترى بيتا فى كومو وسيكون أجمل بيت على سفح الجبل الأخضر ، وسيكون لى يخت فخم وأجمل سيارة فى ايطاليا ، وسنذهب معا الى باريس .. ما رأيك فى باريس يا كلوديا ؟

فقالت وهى حالمة :

ــ الليدو . . مكسيم . . الفولى برجير . . اللوفر . . فرساى . . ما اجمل هذا ! .

ــ كان شهر العسل الذى أمضياه متواضعا .

ــ لم يكن شهرا يا بسكوالى . . كان أسبوعا .

ــ سنطوف العالم وسننزل فى أفخم الفنادق ، وسنرى كل ما فيه من مباهج . نحن أغنياء . . أغنياء يا كلوديا .

وسمع طرق على الباب وخفت كلوديا اليه وبسكوالى فى أثرها ، وفتح الباب عن رجل محطم يلوح الهلع فى عينيه ، وما وقعت عينا بسكوالى عليه حتى أنكره ، انه لا يعرفه ، وراح الرجل يقدم نفسه الى بسكوالى :

ــ انا ألبرتو كردنالى . . اتسمحان لى بالدخول ؟

قالت كلوديا وهى تفسح له الطريق :

ــ تفضل .

وقال بســـكوالى وهو يشير الى مقعـــد بغرفة الاســـتقبال المتواضعة :

ــ تعال هنا يا ألبرتو .

وجلس الرجل واطرق قليلا ثم قال :

ــ اتهمت ابنتى بقتل رجل وقبض عليها ، قالت انها لا تعرفه وقالوا انها كانت عشيقته . . أنا واثق يا سيدى أنها بريئة . . أقسم لكما أنها بريئة .

وساد الصمت برهة ثم قال بسكوالى :

ــ ماذا أستطيع أن افعل لك ؟

ــ أنا فى حاجة الى محام كبير يبرىء ابنتى . . انها أرق من ان تحبس وأصغر من أن تموت .

وقال وهو يقلب عينين واسعتين قلقتين فى وجه الزوجين :

ـــ قالوا لى انهم قد يحكمون عليها بالاعدام ! ابنتى بريئة .. اقسم لكما .

وقال بسكوالى فى تأثر :

ـــ ولكنى لست محاميا .

قال الرجل وهو ينظر الى الأرض :

ـــ اعرف : ولكنك تستطيع أن تدفع أجر المحامى .. أنا لا إملك شيئا .

وراح الرجل يبكى ويقول :

ـــ أنقذ ابنتى البريئة .. أرجوك .. اتوسل اليك .

وقالت كلوديا فى صوت مخنوق :

ـــ اطمئن فسيتكفل زوجى بمصاريف هذه القضية .

وعادا ليطلقا لخيالهما العنان وليتحدثا فى اشراق عن المستقبل الباسم ، وسرعان ما سمع طرق على الباب ، وان هى الا لحظات حتى كانا يصغيان الى زوجة تصف مأساتها .. راحت تقول :

ـــ بيتى سينهار .. سيتشرد أبنائى .. سنموت من الجوع .. أتعرف قسوة الجوع يا سيدى ؟ انى عرفته .. ذقت قسوته .. انه جبار لا يرحم .

ومن خلال دموعها كانت تنظر الى من تجسمت فيه كل آمالها وتقول :

ـــ جردت خزانة زوجى ، فزوجى يعمل صرافا فى الحكومة وقد وجد بها عجز . انه ليس مبلغا كبيرا ولكننا لا نملكه .. زوجى لم يسرقه ، انه سكير هذا حق ، ولكنه لا يسرق .. قد يكون اهمل فيما يتسلم . الحكومة لا ترحم .. أنت تعرف ، وأولادى حرام أن يتشردوا .. حرام أن يهيموا على وجوههم فى الطرقات

.. البرد .. المطر .. الجوع .. ما ابشع هذا ! . ما ابشع هـذا ! .

وراحت تغطى عينيها براحتيها كأنما تحول بينهما وبين منظر مفزض وطفقت تقول :

ــ أنت أملى ، ليس لى باب سواك ، حياتنا كلها بين يديك . وما اقل المبلغ الذى ستشترى به مستقبلنا ومستقبل أولاد صغار أبرياء . زوجى لا يسرق .. مستحيل .. مستحيل .

وخرجت المراة ، وجاء شاب وجلس يروى قصته كأنما كان يجلس على كرسى الاعتراف ، قال :

ــ دخلت السجن ، لا اقول انهم ظلمونى بل كنت أستحق السنين التى قضيتها هناك ، كنت من رجال الليل أعيش على ما افرضه على الفسناء من أتاوات ، وتمردت امراة علىّ ورفضت ان تدنع لى ما كانت تدفعه فضربتها بزجاجة كانت أمامى . ودخلت السجن وأمضيت به سنين طويلة مملة ، وفكرت فى أمرى وقررت أن أستقيم ، أن أكسب قوتى كما يكسب اقواتهم الأشراف . وبعد أن خرجت من السجن بحثت عن عمل ، وجدت أعمالا كثيرة سابقتى تقف بينى وبين تحقيق أمنيتى ، ولم اجد امامى الا ان أبدأ عملا حرا بسيطا ينمو على الأيام ، كانت فكرة جميلة تحمست لها ، ولكن لم اجد المال الذى ابدأ به . وقد جئت اليك التمس منك ان تمدنى بذلك المبلغ الذى سيمكننى من ان ابدأ حياة شريفة .. انى أتوق الى حياة الاستقامة فهل لك فى ان تعاوننى ؟

ولاحظت كلوديا انه يمد عينيه الى التفاح الموضوع فى غرفة

السفرة ، فنهضت وأحضرت التفاح ووضعته امامه فتناول تفاحة واخذ يقضمها فى نهم وبسكوالى يرقبه فى اشفاق .

والتفت الشاب الى كلوديا وقال:

ــ شكرا لكما .. انى لم أذقه من سنين .

وخرج الشاب وغص البيت بشيوخ وعجائز ورجال ونساء وشبان وشابات ، وراح كل منهم يروى مأساة حياته التى تحتاج الى مال . مرضى يلتمسون الدواء ، وآمال كبار اهاض جناحها الفقر ، وسبل سدها العوز ، وبطون عضها الجوع ، وعقول كادت تطيش أضناها التفكير فى الحرمان الطويل .

وتصرم الليل أو كاد ، وخرج اصحاب الحاجات وبات بسكوالى وكلوديا وحدهما ،وامسى بسكوالى مطرقا وقد قطب جبينه وظل صامتا لا ينبس بكلمة ، ونظرت كلوديا اليه فقرأت فى وجهه العبوس ، فدنت منه وقالت له فى رقة :

ــ ماذا بك يا حبيبى ؟

قال وقد قطب جبينه :

ــ لست سعيدا يا كلوديا .

ــ لماذا ؟

فقال فى رقة وقد تهدج صوته تأثرا :

ــ ما كنت أدرى أن فى العالم كل هذه المصائب والآلام .

ودار على عقبيه وسار ، وأحس أن كلوديا لم تتبعه فتوقف والتفت خلفه فألفى ابتسامة حلوة قد رفت على شفتيها ، فقال فى فزع :

ــ أتبتسمين ؟

فسارت نحوه وهى تقول :

ــ أنا سعيدة .

فرمقها فى دهش وقال :

ــ سعيدة ؟ كيف ؟

فطوقته بذراعيها وقبلته فى حرارة وراحت تقول :

ــ سعيدة الانى وجدتك يا حبيبى .


صور

هذه الصور لصديقي الاستاذ عبد الحميد جوده السحار ، الـذى اسـتطاع مع أبناء جيله ـ نجيب محفوظ وعادل كامل والبدوى وغيرهم ـ أن يضعوا الأساس الفعلى لعمارة القصة المصرية ، بالتعبير الصادق عن البيئة في أشكال فنية متطورة .. بل ان معظم المحاولات الشـابة في القصـة والرواية مـا زالت تسـير في نفس الطريق الذى يرتاده جيل « لجنة النشر للجامعيين » .

ولقد عـرض السـحار في كتابه لأ القصة من خلال تجاربى الذاتية » لزاوية في حياته الأدبية والفنية ، ثم عبر عن زاوية أخرى في سلسلة المقالات التى نشرتها « الكواكب » ، وهذه الصـورة جزء من زاوية ثالثة يعرض السحار فيها لحيـاته الوظيفية التى لها تأثيرها الواضـح في معظم نتاجه الفنى . وأرجو ـ كما وعـدنى الأستاذ السحار ـ أن تكون هذه الصـور حلقة في سـلسلة تتناول أدق الفترات وأهمها في تاريخنا القومى المعاصر .

« محمد جبريل »

« ١ »

كان ذلك في عام ١٩٣٧ وفى مكتب مدير مستخدمى وزارة الحربية ، وقد سلم الى سيادته أمر تعيينى مترجما بالسلاح الجوى الملكى بمرتب قدره ثمانية جنيهات ونصف في الدرجة الثامنة الكتابية . وقد تسلمت الكتاب شاكرا وما كنت أدرى أين يقع ذلك السلاح الذى أصبح لى شرف خدمته .

وفى الصباح الباكر كنت مندسا فى الترام الأبيض الذى يصل الى نهاية مصر الجديدة وكانت نهايته فى ميدان الاسماعيلية ، وهناك سألت عن السلاح الجوى الملكى فقيل لى انه فى الماظة ، ونصحنى أحد الجنود أن أخترق الصحراء على قدمى ، وقبلت النصيحة شاكرا . وما توغلت فى الصحراء حتى هجمت على الكلاب فأطلقت ساقى للريح ، ومن حسن حظى أن مر بى ترام الماظة فقفزت اليه وانا أمضغ رعبى والتقط أنفاسى .

واخيرا وصلت الى السلاح الجوى وقدمت أوراقى ، فأمرت ان أتوجه الى مكتب قائد الورش وأقدم له نفسى ففعلت ، ودخلت على سيادته فى مكتبه ، وكان مكتبا متواضعا يتصل بمكتب آخر يجلس فيه صول بريطانى ؛ انه عضو البعثة البريطانية . والتفت الى سيادة الضابط فى عدم ارتياح وسألنى بعض أسئلة فيها استهانة بقدرتى على الترجمة ، ثم أخرج من درج مكتبه نموذجا كتب باللغة الانجليزية وأمرنى بترجمته . وعكفت على عملى منذ اللحظة الأولى التى جلست فيها الى المكتب وكان نضدا مما توضع عليه الآلة الكاتبة !

وخرج الصول البريطانى من مكتبه ومر بالمكتب الذى أعمل به وما كان فيه غيرى وزميل لى ، واذا بزميلى ينهض ويحيى الصول البريطانى الذى رمانى بنظرة خاطفة ، ولم يفكر فى أن يحيينى . .

وبعد أن خرج الصول البريطانى قال لى زميلى :

ـــ لماذا لم تقدم نفسك لمستر أولدلند ؟ . .

فقلت له :

ـــ ومن هو مستر اولدلند هذا ؟

واشفق زميلى من جهلى وقال لى :

ـ انه عضو البعثة البريطانية ، انه كل شيء في السلاح ، انه قادر على أن يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ..

وهمس صديقي وهو يتلفت :

ـ ولا يجرؤ أي ضابط هنا على مخالفة امره .

فقلت في دهش :

ـ هذا الصول ؟!

ـ انه صول بريطاني ، انه عضو البعثة البريطانية .

وغرس زميلي في صدري بذرة الكراهية لمستر أولدلند ، ورحت أرقبه متحفزا ، انه يتسلم الأوامر الفنية باللغة الانجليزية من وزارة الطيران البريطانية فيعكف على قراءتها ، ثم يتوجه الى الورش ويصدر الأوامر التي قرأها في النشرة الى الفنيين وهو يتعالى عليهم بعلمه الغزير ، وما كان يصدرها مرة واحدة بل كان يأمر الفنيين بأن يقوموا بتنفيذ أوامره خطوة خطوة ، ويقـوم بالتفتيش عليهم بين كل خطوة أخرى .

وضايقني ما يفعله المستر أولدلند بالفنيين المصريين ، وما كان يفعل أكثر من أن يتلو عليهم التعليمات التي تلقاها من وزارة الطيران البريطانية . وخطرت لي فكرة : انى أتسلم الأوامر الفنية قبل مستر أولدلند ، وانى أقرؤها ثم أبعث بها اليه .. فلماذا لا أقوم بترجمة تلك الأوامر وأرسلها الى الفنيين بالورش فأقضي بذلك على غطرسة المستر أولدلند !

ولم أتوان عن تنفيذ الفكرة ، فرحت أترجم الأوامر الفنية التي تسلمتها ثم طبعتها على الرونيو ووزعتها باللغة العـربية على الفنيين بالورش ، وسلمت النسخة الانجليزية بعد ذلك الى مستر اولدلند .

وخرج مستر اولدلند بعد قراءة الأوامر الفنية الى الورش في

تيهه وغطرسته وراح يصدر الأوامر الى الفنيين بالورش ، وما كاد يبدأ فى الشرح حتى راح الفنيون المصريون يسردون على مسامعه ما ينبغى عليهم أن يفعلوه لاتمام الاجراءات المطلوبة .

وغضب مستر أولدلند وسألهم عن مصدر تلك المعلومات ، فاخبروه أنى قمت بتوزيع الأوامر الفنية بعد ترجمتها الى العربية ، فعاد مستر أولدلند وطلبنى فى مكتبه وقال فى عنف :

— هل تعرف خطورة ما أقدمت عليه ؟

— وما الخطورة فى ترجمة نشرة من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية ؟

— ان أى خطأ فى الترجمة قد يتسبب فى فقد أرواح الطيارين .

— وما أدراك يا مستر أولدلند أن هناك خطأ فى الترجمة !

— يظهر أنك لا تعرف خطورة العمل فى ورش الطيران . انك بعملك هذا ستساعد على نشر الفوضى فى الورش .

— كيف ؟

— سيشجع عملك العمال على الا ينتظروا الى أن يستمعوا الى تعليماتنا ، وقد يستخدم أحدهم مسمارا أو قطعة غيار ليس عليها ختم وزارة الطيران البريطانية ، ومعنى ذلك أنهم قد يستعملون مسامير أو قطع غيار غير صالحة مما يودى بحياة الطيارين .

— تريد أن تقول لى يا مستر أولدلند أن ورش الطيران بأمريكا وورش الطيران بألمانيا لا تستعمل مسامير ولا قطع غيار الا اذا كانت مختومة بختم وزارة الطيران البريطانية ؟ على قدر ما أعلم يا مستر أولدلند أن هناك مواصفات عالمية للمسامير وقطع الغيار والخامات التى تستعمل فى اصلاح الطائرات ، ولا خطورة

من استعمال مسامير وخامات وقطع غيار غير مختومة بختم وزارة الطيران البريطانية ما دامت مستوفية للمواصفات العالمية .

ـ انصحك أن تقلع عن ترجمة الأوامر الفنية . عرب ما تشاء الا الأوامر الفنية .

وخرجت من مكتب مستر أولدلند وقد صممت على أن أبدأ بتعريب الأوامر الفنية ، وراحت تلك الأوامـــر تخرج من مكتبى بانتظام . ورأى مستر أولدلند الا فائدة من استخدام العنف معى ، فنادانى الى مكتبه وراح يتبسط معى فى الحديث وقال لى انه سيختبر عمالا جددا وقد اختارنى أنا الموظف فى الدرجة الثامنة الكتابية الأعاونه فى اختيارهم . وراح يغرينى بأنه قد كلم تيت بك رئيس البعثة البريطانية ليطلب لى الدرجة السادسة الفنية .

واشتركت مع مستر أولدلند فى اختبار العمال الجدد ، ولم أتوقف عن ترجمة الأوامر الفنية ، فعاد الفتور فى العلاقات بينى وبين مستر أولدلند .

وفى ذات يوم تركت مكتبى وذهبت الى مكتب زميلى فرأيته ينقل من كتاب ضخم بعض كشوف باللغة الانجليزية ، فقلت له :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ أقوم بتموين مخازن السلاح .

ـ وماذا تعرف عن تموين المخازن .

ـ قال لى مستر أولدلند : انقل من هذا الكتاب ما تشاء ، وضع فى خانة الكميات ما تشاء من الأرقام .

ـ ما شاء الله ! أهكذا تمون مخازن سلاح الطيران الملكى ؟ !

ـ انى افعل ذلك كل سنة .

ورحت اقرأ الأصناف التى تمون بها مخازن السلاح ، وهالنى ما رأيت فصحت فى فزع :

ــ طباشير !! قطع خشب !! مزايت صفيح !! لمبات كهربائية !! .. اتشترى هذه الأصناف من انجلترا بالجنيه الاسترلينى ؟ !! كبريت !! ما هذا يا صديقي ؟ سبعة عشر جناحا أيسر للطائرة وجناح واحد أمين ؟ أتعرف معنى هذا ؟ معناه اننا لن نتمكن الا من اصلاح طائرة واحدة ، ثم نبيع ستة عشر جناحا خردة .

فقال زميلى فى استياء :

ــ انى افعل ما يأمرنى به مستر أولدلند .

ــ أتعرف ماذا تعنى هذه الكشوف ؟

فقال زميلى فى عدم اكتراث :

ــ هذا ليس من شأنى .

ــ معنى هذا استنزاف ميزانية الجيش دون تسليحه ، انها سياسة مرسومة يا صديقى .

وبعد سنوات تكدست المخازن بأجنحة لا يمكن استخدامها ، ومهمات انقضى عهدها ، وقطع غيار لطائرات قد الغيت ، ورأى السلاح ان يتخلص من هذه المهمات فأخرجها من المخازن وكدسها فى العراء ليبيعها لتجار وكالة البلح بالمزاد .

«٢»

وانضم الى البعثة البريطانية خبراء جدد وكانوا جميعا برتبة صول ، وجاءوا الى مكتب مستر اولدلند فقام بتوزيعهم على مدرسة الميكانيكا والتسليح ومدرسة الطيران . وكان من نصيب ورشة المحركات صول شاب ، وقد استدعانى مستر اولدلند الى مكتبه وقدم كلا منا الى الآخر ، ثم طلب منى ان امر مع الخبير الجديد فى ورشة المحركات .

كانت ورشة المحركات على بعد خطوات من مكتبنا ، فما مرت لحظات الا وكنت اخترق الورشة وفى صحبتى الخبير الجديد ، وقمت بتقديم الملاحظين الفنيين المصريين اليه ؛ حتى اذا ما وصلنا الى قسم الكاربريتور قدمت الصول البريطانى الى اسماعيل رئيس هذا القسم .

كان اسماعيل شابا اسمر داكن السمرة ، وكانت الطيبة تطل من عينيه ، وان من يراه لأول وهلة يحسبه ساذجا ، ولكن اسماعيل كان مثالا للعبقرية المصرية ، وقد نجح فى صنع كربريتور لا يزيد حجمه على بضعة سنتيمترات يحرك مروحة صغيرة بالبطارية .

توطدت الصداقة فى مدة وجيزة بينى وبين اسماعيل ، فلما وصلت الى هذا القسم راح شيطانى يوسوس لى ان اختبر قدرة ذلك الخبير البريطانى الوافد علينا . فأشرت الى كاربريتور الطائرة

الماجستر ــ وهى طائرة صغيرة للتعليم ــ وقلت للصول البريطانى مستفسرا :

ــ ما هذا ؟

وفهمها اسماعيل فصمت واطرق واخذ يحاول أن يخفى بسمة تريد أن تولد على شفتيه ، ومد الخبير البريطانى يده وتناول الكاربتور واخذ يقلبه ثم قال :

ــ هذا كربريتور لورى كبير .

وابتسم اسماعيل متظاهرا بالاعجاب بغزارة معلومات الخبير الجديد وقال :

ــ تمام !

وانتهت زيارة الورشة وعاد الصــول البريطانى عضو البعثة البريطانية الى مكتب مستر اولدلند ، واسرعت الى حيث كان اسماعيل وما كاد يرانى حتى انفجر ضاحكا وقال :

ــ انه لم يستطع أن يفرق بين كربريتور الطائرة وكربريتور اللورى ! حقا انه خبير !

ــ انه خبير بريطانى !

وصمت قليلا ، ثم قلت له :

ــ انهم يعلمون علم اليقين أنه لا يعرف شيئا .

ــ اذا كانوا يعلمون انه جاهل فلماذا يرسلونه الينا ؟ !

ــ ليتعلم ، اننا حقل تجارب . سيفسد ما شاء من الخامات ، وسيرتكب أخطاء قد تقتل طيارينا ،حتى اذا ما تعلم واصبح صالحا بعثوا به الى وحدة من وحدات الصيانة البريطانية المنتشرة على طول القناة . .

ومرت شهور وحدث ما كنت أتوقعه ، فقد تم تدريب صولات البعثة البريطانية فى ورش سلاح الطيران المصرى وفى مدارس التسليح والطيران ، ثم أرسلوا الى الوحدات البريطانية وجىء بصولات جدد لا خبرة لهم ليعملوا بالسلاح المصرى ، وليكتسبوا خبرات تستفيد منها بريطانيا وإن دفعنا نحن تكاليفها ، وان أطلق على هؤلاء المبتدئين خبراء البعثة البريطانية .

وتوطدت الصداقة بينى وبين عمال الورش حتى انهم كانوا يعرضون على مشاكلهم ويقصون على آمالهم .. وفى ذات يوم جاء الى أحد العمال وقدم الى مجموعة من المفاتيح الصلب تستخدم فى قلوظة المواسير وقال لى انه صنعها بنفسه ، فانشرح لذلك صدرى فقد كنا نستوردها من انجلترا مع ما نستورد من طباشير ومزايت من الصفيح ! .

ورأيت أن أشجع ذلك العامل وان أطلب له مكافأة ، فأخذت المفاتيح وعرضتها على ضابط الورش المصرى فرحب بها وقال لى :

ــ اعرض الموضوع على مستر أولدلند .

وتوجهت الى مستر أولند ومعى المفاتيح ، وقدمتها اليه وأنا أقول فى فخر :

ــ لقد صنع هذه المفاتيح أحد عمال الورش .

وتناول مستر أولدلند المفاتيح وقام بتجربتها ، فاذا بها تقوم بقلوظة المواسير تماما كما تفعل المفاتيح المستوردة من بريطانيا العظمى !

واكفهر وجه المستر أولدلند قال لى :

ــ وماذا تطلب لهذا العامل ؟

ـــ ارى مكافأته حتى نحرض العمال الآخرين على أن يفعلوا مثله .

وقال مستر أولدلند وهو يشعل سيجارته وقد شرد ذهنه :

ـــ أريد أن أرى هذا العامل .

وبعثت فى استدعاء العامل ، وسرعان ما كان ماثلا أمام مستر أولدلند ينتظر أن يسمع منه كلمة تشجيع ، ولكن مستر أولدلند التفت الى وقال بالانجليزية :

ـــ سله كيف تمكن من تسقية الصلب ؟

فسألته فقال :

ـــ وضعته فى حمام الزيت .

وتململ مستر اولدلند وقال :

ـــ سله كم كانت درجة حرارة الزيت لما وضع فيه الصلب ؟

فقال العامل :

ـــ كان فى درجة الغليان .

فقال مستر أولدلند فى حدة :

ـــ اريد أن يذكر لى درجة الحرارة بالتحديد .

وضاق العامل ذرعا بالأسئلة الكثيرة التى سألها المستر اولدلند لتعجيزه فقال :

ـــ المهم أن المفاتيح تعمل ما كانت تعمله المفاتيح الانجليزية .

وضايق هذا الرد مستر أولدلند فقال لى :

ـــ سله من أين جاء بالصلب ؟

فقال العامل :

ـــ أخذت بعض قطع الصلب الخردة الموجودة بالورشة .

فهب مستر أولدلند واقفا وقال :

ــ اى انه سرق الصلب من الورشة !

ثم التفت الى العامل فى تحد وقال له :

ــ ومن أين جئت بحمام الزيت ؟

ــ استخدمت حمام الزيت الموجود بالورشة .

ــ وأين صنعت هذه المفاتيح ؟

ــ فى الورشة .

ــ أى انك سرقت الصلب من الورشة ، واستخدمت حمام الزيت فيما لا ينفع ، وسرقت وقت الدولة .. أنت مثل سيىء للعامل عندنا .

والتفت الى مستر أولدلند وقال :

ــ يخصم من هذا العامل ماهية عشرة أيام وينذر بالرفت اذا ما عاد لمثل هذا العبث ..

فقلت فى انفعال :

ــ لا يا مستر اولدلند ، ما جئت أعرض عليك هذه المفاتيح الا لتشجيعه ومنحه مكافأة .

ولم يلتفت الى مستر أولدلند .. ودق الجرس ، فاذا بزميلى فى المكتب يأتى مهرولا ، فقال له مستر أولدلند :

ــ يخصم من هذا العامل عشرة أيام وينذر ..

وغادر زميلى الغرفة مسرعا لينفذ أوامر مستر أولدلند صول البعثة البريطانية وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى سلاح الطيران الملكى المصرى ، وخرج العامل يجر رجليه جرا ، واصبحت أنا ومستر أولدلند فى الغرفة وحدنا فقلت له :

ــ هذا العامل قد ظلم ، انه لا يستحق هذا الجزاء فقد عرض

على المفاتيح وتحمست له وعرضت الأمر على السيد ضابط الورشة ليمنحه مكافأة ، فطلب منى سيادته ان اعرض عليك الموضوع لتحديد المكافأة لا لتوقيع الجزاء عليه .

فقال لى مستر اولدلند فى هدوء :

ـــ ان تشجيع مثل هذا العامل على ما فعل يفسد العمل . اننا لو شجعناه فسيترك عمله الأصلى ليقوم بصنع عدد ومهمات لم يكلفه أحد بها ، واظن انك توافقنى اننا بذلك نشجع الفوضى فى الورش ..

ـــ اظهر هذا العامل مهارة ولا شك بصنعه هذه المفاتيح ، فلماذا لا نستفيد بهذه المهارة فى صنع عدد اخرى ؟

ـــ ليس الأمر بالسهولة التى تتصورها . ان صنع العدد يحتاج الى معلومات كثيرة فى طبيعة المعادن وطرق معالجتها .

ـــ نزوده بها .

ـــ ليس عند هؤلاء العمال الاستعداد لتحصيل مثل هـــذه المعلومات .

ورايت الا جدوى من مناقشته فى هذه النقطة فقلت له :

ـــ لى رجاء .

ـــ وما هو ؟

ـــ ان ترفع عن هذا العامل الجزاء فانى اعتبر نفسى مسئولا عما حدث ، انا الذى وضعته فى هذا الحرج .

وابى مستر اولدلند ان يقبل رجائى ، فذهبت الى ضابط الورش المصرى وقصصت عليه ما حدث ، والتمست منه ان يطلب من مستر اولدلند الا يوقع على العـــامل الجزاء الذى قرره ، وكلم

ضابط الورش مستر أولدلند فى رفع الجزاء ، وبعد الحاح منى قبل مستر أولدلند ، على أن يتعهد العامل بألا يعود الى فعلته الشنعاء مرة أخرى .

وفرحت بأننى نجحت فى رفع الجزاء عن العامل الذى سولت له نفسه أن يفعل لبلادة شيئا نافعا فى ظل البعثة البريطانية ، بعد أن كنت أطمع فى أن أنجح فى تشجيعه ومنحه مكافأة تباركها البعثة البريطانية !

ولم أنس ما حدث ، ولم أغفر لمستر أولدلند موقفه هذا أبدا .

« ٣ »

انفصلت أعمال الترجمة عن أعمال مكتب الورش ، وخصص لى مكتب وحدى عن يسار مكتب مستر اولدلند ، وأطلق على ذلك المكتب « ادارة المطبوعات » واصبحت مدير هذه الادارة وان ظلت درجتى الدرجة الثامنة الكتابية !

وتوطدت بينى وبين الطيارين المصريين الشبان الصداقة ، فكانوا يأتون الى مكتبى وتدور بينى وبينهم مناقشات كانت محببة الى نفوسنا الفتية ، فقد كنت دائب السخرية من البعثة البريطانية العسكرية ، وكان الطيارون يبثوننى مخاوفهم من صيانة الطائرات التى يشرف عليها صولات بريطانيون لا خبرة فنية لهم الا جنسيتهم الانجليزية !

وفى صباح ذات يوم جاء الى طيار شاب وجلس معى فى مكتبى نتحدث وتشعب الحديث ، وقبل أن نتفق على رأى فى المناظرة التى كانت بيننا نهض وقال :

ــ عندى طيران الآن ، وبعد أن انتهى منه سأعود لنستأنف حوارنا .

وغاب صديقى عن عينى وشغلت عنه بعملى اليومى ، وقبل أن تنقضى نصف ساعة على لقائنا جاءت اشارة من الرئاسة بأن حادثة قد وقعت لطائرة قد سقطت بالقرب من المطار ، وطلب فى الاشارة تقديم تقرير فنى عن الحادث .

وبعد لحظات علمت أن صديقي الذى كان يحاورنى فى الصباح قد مات قبل أن نستأنف حديثنا . وخرج مستر أولدلند فى سيارة ، وما أسرع ما عاد وكتب تقريره الفنى ، وقد ثبت فيه أن الحادثة وقعت قضاء وقدرا .

ومنذ أن عرفت سلاح الطيران لم أعرف سببا للحوادث الكثيرة التى كانت تقع فيه ويذهب ضحيتها شبان فى عمر الورود ، غير القضاء والقدر .

وما أسرع ما انطوى الحادث وعادت الحياة الطبيعية الى السلاح . ومرت أيام وضقت بجلوسى على مكتبى ، فذهبت الى الورش أنظر فوجدت مستر أولدلند يختبر طائرة على الأرض ، فقلت له فى خبث :

— لماذا لا تختبرها فى الجو يا مستر أولدلند ؟

فضحك وقال فى صراحة :

— لو منحونى الف جنية على اختبار كل طائرة فى الجو ما قبلت .

— لماذا يا مستر أولدلند ؟

— لأنى أعرف أن أى خلل مهما كان طفيفا قد يؤدى الى سقوط الطائرة .

— ولماذا يقوم طيارو الاختبار باختبار الطائرات ؟

فقال وهو يضحك :

— لأنهم لا يعرفون ما أعرفه .

ولم أقل لمستر اولدلند : لأنك لا تثق فى الصيانة التى تشرف عليها أنت وصولات البعثة البريطانية الذين لا يملكون من الخبرة الفنية الا أنهم بريطانيون .

وجاء أوان الترقيات ، وكتب ضابط الورش المصرى تقريرا يطلب فيه ترقيتى وبعث به الى ادارة المستخدمين ، واجتمعت لجنة شئون الموظفين وقررت انى وان كنت حاصلا على مؤهل عال الا انى ليس لدى خبرة .. ولم أسافر الى السـودان ، ولذلك لا أستحق الترقية !

كانت لجنة شئون الموظفين مكونة من موظفين حصلوا على مراكزهم بالخبرة ، ففهمت أن المؤهل العالى ليس فى مصلحتى ، ولكنى لم افهم الصلة بين الترقية والسفر الى السودان . فما سألت عن تلك الصلة قالوا لى ان الخبرة فى الحربية لا تكتسب الا بالعمل فى وحدة من الوحدات التى كانت تعمل بالسودان .

وفهمت من ذلك أن باب أكتساب الخبرة قد قفل فى وجوهنا ، ما دامت الوحدات العسكرية التى كانت تعمل فى السودان قد عادت الى مصر !

وفى ذات يوم سقطت طائرة فى أرض المطار وخفت عربة الحريق وعربة الاسعاف الى مكان الحادث ، ومن حسن الحظ أن الطيار لم يصب بسوء ، فجاء الى ضابط الورش المصرى وراح يدلى بأقواله :

قال ان عجلة الطائرة قد فصلت عنها وهو فى الجو ، وذلك بسبب اهمال الصيانة ، فان « التيلة » التى تثبت العجلة فى مكانها لم توضع ، وقد اختل توازن الطائرة بعد انفصال العجلة عنها فاضطر الى النزول اضطراريا ، وقد تحطمت الطائرة ، ولولا لطف الله للحق باخوانه الشهداء .

واستدعانى ضابط الورش وطلب منى أن أشترك معه فى وضع التقرير الفنى عن الحادث ، بعيدا عن البعثة البريطانية ،

ورحنا نكتب التقرير وأنا منشرح الصدر ، فقد قررنا دون موارية أو مداورة أن سبب الحادث اهمال الصيانة ، وأن مشرفى البعثة البريطانية هم المسئولون عن هذا الحادث ، فلو انهم كشفوا على العجلات قبل التصريح بطيران الطائرة لوجدوا أن تيلة العجلة لم توضع فى مكانها .

وانتهينا من التقرير وانا أكاد أطير من الفرح ، فقد آن الأوان لنصفع البعثة البريطانية بالحقيقة السافرة . وجاء مستر أولدلند ليكتب تقريره الفنى فقلنا له : اننا انتهينا منه ، فطلب منى أن أقوم بترجمته الى الانجليزية .

وعكفت على ترجمة التقرير وانا متهلل النفس ، وكان يزيد فى سرورى تصورى لوجه مستر أولدلند المكفهر . وما كدت انتهى من ترجمته حتى طرت به الى مستر أولدلند فراح يقرؤه ، واخذ وجهه يتلون وانا أتمتع بما ارى عليه من ضيق ، والتفت الى وقال فى غضب :

ــ من كتب هذا التقرير ؟

ــ حضره ضابط الورش وانا .

وهب مستر أولدلند واقفا ، واختطف التقرير من على مكتبه وخرج من غرفته كالعاصفة الهوجاء . ومرت فتر قلق ، وما لبث أن عاد « تيت » بك وبعض ضباط البعثة البريطانيـــة ومستر أولدلند ودخلوا مكتب ضابط الورش .

وتبسط « تيت » بك مع ضابط الورش المصرى فى الحديث ، ثم قال له ان ما جاء فى التقـــرير فيه ظلم بين لجهود البعثـــة البريطانية ، وأنه لولا سهر أعضاء البعثة على الصيانة لتضاعفت عدد الحوادث ، وأنه ليس من شيم الكرام انكار الجميل .

واستدعانى « تيت » بك وطلب منى أن اغير التقرير فقلت له :

ـــ وماذا اقول ؟

ـــ قل ان تيلة العجلة قد كسرت والطائرة فى الجو ، وأن الحادثة وقعت قضاء وقدرا ، وانه لولا يقظة البعثة البريطانية لتعددت الحوادث .

وراح يملى على اقوالا كثيرة كلها مديح مستطاب فى البعثة وفى كفاءة أعضائها .

وانقلب تقرير لوم البعثة البريطانية الى شهادة منا بعلو كعب أعضاء البعثة البريطانية فى صيانة أرواح طيارينا .

وعلم الضابط الذى كاد يفقد حياته بما طرأ على التقرير من تبديل ، فجاء ثائرا يصيح :

ـــ كدت أموت لولا لطف الله دون أن ينال المتسبب جزاءه ، من المتسبب فى هذه الحادثة ؟ !

ـــ القضاء والقدر !!

ولاح على وجه الضابط الطيار الغضب ، فراح تيت بك يحدثه عن البعثات التى ستسافر الى الخارج وانه مرشح لبعثة منها ، فانقشع غضب الطيار ، وخرجت من الغرفة وأنا حزين حزن من عاد لتوه من قبر عزيز لديه .

واحس مستر أولدلند أننى قد تضايقت مما حدث ، فبعث الى فذهبت الى مكتبه ، وطلب منى صراحة أن أعمل معه وأن اكون فى خدمة البعثة البريطانية ، وانه مقابل ذلك يضمن لى الدرجة السادسة الفنية .

وكرهت تلك الدرجة منذ ذلك الوقت ، وغادرت مكتب مستر أولدلند وقد عزمت فى قرارة نفسى أن أحارب مستر أولدلند ، وان أعمل كل ما فى جهدى مهما قل شأن ذلك الجهد فى تقويض البعثة البريطانية .

« ٤ »

رقى ضابط الورش ونقل الى وظيفة اخرى ، واصبح قائد السرب « حسن » قائدا للورش . وكان حسن صديقى منذ أيام المدرسة فقد كان طالبا بالمدرسة الخديوية وكنت طالبا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ، الا أن حى العباسية كان يجمع بيننا ، وكنا فى فريق كرة القدم الذى كوناه فى الحى ، وكانت صداقة متينة تربط بينى وبينه .

واحسست راحة لتعيين حسن قائدا للورش ، فقد شعرت لأول مرة انى سأجد من يقف الى جوارى فى وجه البعثة البريطانية . وقد تحقق أملى منذ أول يوم جاء فيه حسن الى مكتبه ، فقد طلب منى الا اقبل من مستر أولدلند اى تقرير فنى ، وان جميع التقارير الفنية لابد ان تصدر منه فقد حصل على شهادة فى صيانة الطيران تؤهله لذلك .

ومرت الأيام والأعمال الفنية بالورش تمر بين مكتب قائد السرب حسن وبين مكتبى دون أن تعرج على مكتب مستر اولدلند ، واحس مستر اولدلند ان هناك تحديا له ولسلطاته فحاول اكثر من مرة ان يقربنى بأن اعرض عليه المسائل الفنية لمصلحة العمل ، ولكننى لم افعل بل مضيت فى تجاهله .

ورحنا نرقب مستر اولدلند ونحصى علية اخطاءه فوجدنا انه يعبث فى الورش فسادا ؛ يطلب اخشابا من المخازن ويقوم بعمل تجارب عليها ، وكانت تلك التجارب تبوء بالاخفاق دائما فيلقى بها

فى المهملات . ولم يكن الحال بالنسبة لخامات المعادن أحسن من حال الأخشاب ، فعكفت أنا وقائد السرب حسن على كتابة تقارير نوضح فيها جهل مستر أولدلند وما يتكبده السلاح من خسائر ، ونرفع تلك التقارير لرئاسة السلاح المصرية .

وعرف ملاحظو الورش أن هناك معركة سافرة بيننا وبين مستر أولدلند فانضموا الينا ، وراحوا يمدوننا بأخطاء مستر أولدلند فى الورش وفى الصيانة . وفى ذات يوم جاء عبد الحليم حسن وكان ملاحظا على ورشة النجارة بنموذج طائرة بنسبة ١ : ٢٥ ، كان النموذج دقيقا حتى انه جعلنا نفكر فى صنع هيكل الطائرة « ماجستر » ، وهى طائرة تعليم تستورد من انجلترا .

ووافق ملاحظ ورش الهياكل فى ذلك الوقت السيد احمد الجندى على صنع هيكل طائرة بالورش . وتحمس العمال للفكرة ، وطلبنا الخشب اللازم من المخازن ، ودبت الحياة فى ورشة الهياكل وسار العمل على قدم وساق . ولاح البشر فى وجوه العمال فقد كانوا يشعرون لأول مرة انهم يقومون بعمل يرضى موازعهم الوطنية .

ومر مستر أولدلند بالورش ورأى العمال منكبين على عمل هيكل طائرة ، فذهب الى السيد أحمد الجندى وسأله عما يجرى فى الورشة ، فقال له أن حضرة ضابط الورش أمر بصنع هيكل طائرة . فضحك مستر أولدلند ضحكة مريضة ساخرة وقال :

ـــ ده لعب عيال .

وانصرف الى مكتبه مطمئنا ، فما كان يصدق أن ورشة سلاح الطيران بكل ما فيها من فنيين بقادرة على صنع هيكل طائرة خشبية !

ومرت الايام ، وبدأ هيكل الطائرة يتشكل ، وبدا أن الرجال

قد عزموا على انجاز ذلك العمل ، وكان قائد السرب حسن يمر عليهم ويشجعهم ويقف بينهم ويسألهم عن الوقت الذى يستطيع فيه أن يجرب هذا الهيكل فى الجو ، فكانوا جميعا يعدونه خيرا .

ومر مستر أولدلند ورأى أن الهيكل أوشك على التمام فجن جنونه ، وهرع الى مكتبه يكتب الى مخازن سلاح الطيران بعدم صرف خامات للورش الا بتوقيعه . ونشبت معركة سافرة بين مستر أولدلند وقائد السرب حسن ، واستعان مستر أولدلند بالبعثة البريطانية واستعان حسن باخوانه المصريين ، وانتصر مستر أولدلند كما كان مقدرا ، وصدرت أوامر صريحة بعدم صرف خامات من المخازن للورش الا بتوقيع مستر أولدلند !

ولم يكتف مستر أولدلند بذلك بل أصدر أوامره بعدم العمل فى الطائرة فى ساعات العمل المقررة ، ولم يدب اليأس فى قلوبنا فاجتمعنا بالملاحظين والعمال خارج السلاح ودرسنا الموقف معهم ، فوجدنا أن الطائرة فى حاجة الى نوع خاص من الغراء . وتطوع أحد العمال بسرقته من مخازن الجيش البريطانى ، وقررنا أن نعمل فى الطائرة بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية .

وراح العمال يعملون فى الطائرة بعد انتهاء العمل حتى منتصف الليل ، وكان العمل خارج الورش التى كان صولات البعثة البريطانية يشرفون على اغلاق أبوابها ، وكان العمل فى ضوء « كلوبات » كنا نستأجرها من أموالنا .

وتم صنع هيكل الطائرة وركب به محرك بريطانى ، وكان لابد أن توزن الطائرة بشركة مصر للطيران قبل تجربتها . وكانت الشركة قريبة من مطار الماظة فراح العمال يدفعونها أمامهم فى

مظاهرة ، وقد خرج أعضاء البعثة البريطانية ينظرون وهم يكادون ان يموتوا من الغيظ !

وجاء وزن الطائرة المصرية مطابقا لوزن مثيلتها المصنوعة فى انجلترا ، وراح العمال يهنىء بعضهم بعضا ، ووضعت الطائرة فى حظيرة الطائرات تنتظر يوم تجربتها .

وفى عصر ذلك اليوم مر على فى بيتى قائد السرب حسن وقال لى :

ــ احب ان اجرب الطائرة بعيدا عن الأنظار .

فقلت فى بلاهة :

ــ وكيف ؟

فقال :

ــ نذهب انا وانت الآن الى المطار ونخرج الطائرة ونقوم بتجربتها .

ــ ولكن الطائرة فى حظيرة الطائرات وقد أغلق عليها الباب .

ــ سآمر بفتح الهنجر .

وركبت الى جواره وانطلقنا الى مطار الماظة وقلبى يدق فى شدة بين جنبى ، فقد كنا منطلقين الى مجهول ، وما كنت واثقا هل ساعود الى بيتى أو الى مجلس تحقيق من البعثة البريطانية .

ووصلنا الى المطار ، وطلب قائد السرب حسن من الصول النوبتجى أن يفتح الهنجر ، ومرت لحظات حسبتها دهرا بعدها فتح الهنجر وأخرجت الطائرة ، وركب قائد السرب حسن فى كابينة الطائرة وأدار المروحة ، ثم راح يدرج على الأرض بالطائرة وقد ذهبت نفسى شعاعا وأحسست أننى فى غيبوبة .

وبدأ حسن يرتفع فى الجو بالطائرة ، ولم أملك نفسى فجلسته

على الأرض مبهور النفس . ودارت أفكار كثيرة فى رأسى فى تلك اللحظة ، اذا لا قدر الله وسقط حسن بالطائرة ومات ، فسيقبض علىّ وأساق الى المحاكمة ، وقد أتهم بأننى أنا الذى حرضته على ما فعل وقد .. وقد ..

وظلت الهواجس تلعب بى وأنا أرقب الطائرة وهى تحلق فى الجو وأنا مشدوه . كنت سعيدا لأن الطائرة قد طارت ولأنى كنت أول من شاهد طائرة مصرية تحلق فى الجو ؛ ولكن تلك السعادة كانت مشوبة بقلق وخوف من أن يحدث بين لحظة وأخرى ما لا يحمد عقباه .

واستقرت الطائرة على الأرض ولم أحس الا وأنا أعدو نحو حسن والدموع تملأ عينى وأنا أقول له :

— مبارك .. مبارك .

وجاء الصباح وذهب حسن الى قائد السلاح وطلب منه أن يأذن له بتجربة الطائرة ، ولكن قائد السلاح لم يستطع أن يبت فى هذه المسألة الخطيرة وحده ، فاتصل بالبعثة البريطانية فأصدرت البعثة أوامرها بعدم تجربة الطائرة .

وأصر حسن على تجربتها فقد كان مطمئنـــا بعد أن قمنـــا بتجربتها سرا ، وراح وقابل رجال البعثة وبعد الحاح قالوا له :

— لا مانع عندنا فى أن تقوم بتجربتها على شرط أن توقع على اقرار بأن التجربة على مسئوليتك الشخصية . وأنه اذا حدث لك حادث فلا تستحق اى تعويض ، واذا مت لا تصرف أية مكافأة أو تعويض لورثتك .

وقبل حسن ووقع على هذه الشروط ، وذهب الى الطائرة

وركبها وقد غص المطار بالعمال والموظفين ، وغاب أعضاء البعثة والضباط فى مكاتبهم .

ودرجت الطائرة على الأرض ثم راحت ترتفع فى الجو وأعتقد اننى كنت اكثر الواقفين على الأرض اطمئنانا ، وراحت الطائرة تحلق فى سماء المطار واذا بالضباط المصريين والجنود يخرجون من مكاتبهم ومدارسهم وورشتهم يصيحون فى فرح عظيم ، واذا بقائد السلاح المصرى يخرج من مكتبه ويجرى تحت الطائرة وهو يهتف فى فرح :

— حسن .. حسن ... حسن .

واغرورقت العيون بدموع الفرح واقبل الجميع يهنىء بعضهم بعضا ، وما ان لمست الطائرة ارض المطار حتى هرع الجميع اليها يتصايحون ، وانقلب المطار الى فرح ، ولم يتقدم واحد من أعضاء البعثة البريطانية لتهنئة من قام بصنع اول هيكل لطائرة مصرية !!

« ٥ »

ذاع فى الورش أن مستر أولدلند الصول البريطانى عضو البعثة العسكرية سيرقى الى رتبة ضابط ، فذهبت الى مستر أولدلند وسألته عن هذه الاشاعة فأكدها مزهوا ، فلما سمع قائد السرب حسن ذلك النبأ ، قال ان هذه الترقية ستحرج مستر أولدلند وتحرجنا ، فقد اعتدنا أن نعامله على انه صول وان كان عضوا فى البعثة البريطانية . ورحنا نفكر فى مخرج من هذا المأزق ، فوجدنا أن الحل الأمثل أن ينقل الصول البريطانى الذى يرقى ، الى وحدة من الوحدات البريطانية حفظا لكرامته ومنعا من الحرج الذى قد يقع فيه من كانوا يعملون معه قبل ترقيته .

ورحت أكتب ذلك الاقتراح ، ولما كنت مقتنعا به فقد سقت حججا قوية حتى ان قائد السرب حسن لما قرأ ما كتبته لنبعث به الى الرئاسات المصرية قال لى فى فرح :

ـ انتهى .. اعتبر أن مستر أولدلاند قد نقل ، فما من أحد يقرأ هذا الاقتراح الا ويقتنع به .

وبعثنا بالاقتراح الى رئاسة السلاح الجوى المصرى وانتظرنا ما تسفر عنه الأيام .

وقيل لنا ان المعرض الصناعى سيفتتح قريبا ، فرأينا الفرصة سانحة لنعرض فيه ما استطعنا صنعه فى ورش السلاح مما كان

يستورد من بريطانيا العظمى . ورحنا نحمس رؤساء الورش والعمال فراحوا يصنعون خزانات البنزين وخزانات الزيت وأجنحة الطائرة « الماجستر » وقطعا كثيرة . والحق لقد كانت تلك القطع لا تقل اتقانا عن القطع المصنوعة فى انجلترا .

ونسقنا الجناح ، ووضعنا الى جوار كل قطعة صنعت فى الورش مثيلتها المستوردة من انجلترا ، وكتبنا على كل قطعة صنعت تكاليف صنعها ، وعلى كل قطعة مستوردة ثمن استيرادها . وقد كانت تكاليف الصنع بالورش أقل من تكاليف الاستيراد بأكثر من ٣٠٪ .

وترقبنا يوم الافتتاح فى شوق فقد كنا موقنين أننا نعرض شيئا يلفت النظر ، وتأهبنا للأسئلة التى ستنهال علينا من رئيس الوزراء الذى سيزور المعرض قبل أن يفتتحه الملك رسميا ، وقبل الافتتاح الرسمى بيوم واحد ، جاء رئيس الوزراء ومر بأقسام المعرض ، واقترب من جناحنا فخفقت قلوبنا فى شدة .

وتقدم قائد السرب حسن لاستقبال رئيس الوزراء وراح يعرض عليه ما صنع فى الورش ويقارن بين تكاليف الصنع وتكاليف الاستيراد . فقال رئيس الوزراء فى امتعاض :

— هذا الخزان يتكلف ٣٠٪ أقل من سعر استيراده ؟ .

فقال قائد السرب حسن فى حماسة :

— نعم ، وهذه هى تكاليف صنع الخزان بالتفصيل .

وقدم قائد السرب حسن تكاليف صنع الخزان الى رئيس الوزراء .

فقال رئيس الوزراء دون أن يأخذ الورقة الممدودة اليه :

— أنت واثق ان هذا الخزان صنع فى ورش السلاح ؟

فتغير وجه قائد السرب حسن وقال فى انفعال :

ــ تمام الثقة .

فقال رئيس الوزراء وهو يزور عنها بوجهه :

ــ كلام فارغ .

وذار على عقبيه واولانا ظهره وانصرف ، وما ابتعد عنا حتى انفجر قائد السرب حسن يسب ويلعن ، ثم راح يواسى نفسه أن الملك فى زيارته سيقدر هذا العمل .

وفى اليوم التالى افتتح الملك المعرض ، ومر بجميع اقسامه ، وقا لنفس ما قاله رئيس وزرائه بالحرف الواحد كأنما كان يلقى درسا حفظه ، حتى نكت الأمس التى أطلقهـا رئيس الوزراء سمعناها من الملك :

وانتهت تجربة المعرض القاسية ولم نكفر بما كنا نعمل ، بل عدنا الى السلاح ورحنا نقيس أبعاد الطائرة « الأتسون » ، وكانت طائرة ذات محركين وكانت اكبر طائرة فى السلاح فى ذلك الوقت . وبلغ البعثة البريطانية ما نفعل فلم يظهروا عدم الاكتراث الذى أظهروه أول مرة ، بل راحوا يتصرفون فى نزق ورعب . أصدروا أوامرهم بأن أى محاولة لصنع هيكل الطائرة « الأتسون » لن يسكت عليها .

واكفهر الجو السياسى ، وراح هتلر يكتسح دول أوربا ويقطع جيوش أوربا كما يقطع السكين الزبد .وجاءت الى مصر قوات المستعمرات البريطانيـة ، وغصت البلاد بالجنود الاستراليين والكنديين والهنود وجنود المستعمرات ، فقد صممت بريطانيا على أن تحارب حتى آخر جندى من جنود مستعمراتها .

كان مستر أولدلند لما ينتهى العمل يترك حقيبته على مكتبه

ويذهب الى السيارة التى تنتظره أمام مكتبه ، ثم يقول لزميلى الذى يعمل فى مكتب الورش :

ـــ الحقيبة من فضلك .

فكان زميلى يحضر له الحقيبة وهو مسرور ، وكان يكافئه على ذلك بأن يحمله معه من داخل الورش بالماظة الى مصر الجديدة ، بينما كنت أقطع المسافة بين الورش وترام الماظة فى ثلث ساعة على قدمى فى برد الشتاء وحر الصيف .

وذات يوم أراد مستر أولدلند ان يكرمنى وأن يضمنى الى معسكره ، فقال لى بعد ان وصل الى السيارة التى كانت تنتظره :

ـــ حقيبتى من فضلك .

وانتظر مستر أولدلند أن أهرع لاحضار الحقيبة مغتبطا ، فيعرض على أن يحملنى الى مصر الجديدة ويرحمنى من حر يوليو القائظ . ولكنى تظاهرت بأنى لم أسمعه ، وسرت فى طريقى بين جموع العمال المنطلقة الى ترام الماظة .

وبعد لحظات مرت بجوارى سيارة المستر أولدلند وقد ركب الى جواره زميلى الذى كان يجد فى حمل حقيبة المستر أولدلند شرفا ما بعده شرف !!

وبلغت منزلى وأنا أتصبب عرقا ورحت التقط أنفاسى فى جهد ، وطافت برأسى فكرة ، لماذا لا اشترى سيارة أذهب بها الى عملى وأرحم نفسى من مطر الشتاء وزمهريره ، وقيظ الصيف ، وتحقير مستر أولدلند ؟ انى احتمل البرد والصيف واحتمل كل آلام الجسد ، أما تحقير مستر أولدلند لى ومحاولات اذلالى فلا احتملها أبدا .

واخذت كل ما كان معى وكل ما كان مع زوجتى وذهبت الى وكالة البلح واشتريت سيارة « أدلر » بخمسة وعشرين جنيها ،

وقد كان مبلغا ضخما فى تلك الأيام ارهقنى وارهق ميزانية بيتى !

كانت السيارة من طراز المانى ، وقد كانت الصدفة هى التى قادتنى الى ذلك الطراز ، ولو كان لى الخيار ما اخترت غير ذلك الطراز اغاظة لمستر أولدلند والبعثة البريطانية .

وذات مساء خرجت من دارى قاصدا نادى التجارة ، وكان فى عطفة أمام جاتينيو بشارع عماد الدين ، وانطلقت بسيارتى الأدلر فى شارع الملكة نازلى « شارع رمسيس الآن » . كانت الأنوار خافتة وكان الشارع يغص بجنود الحلفـــاء ، وبعـــد ان تجاوزت ميدان المحطة بقليل انفصلت عجلة السيارة الأمامية عن محورها وتدحرجت على الأرض ثم ارتطمت بجندى من جنود الحلفاء ، وفى مثل لمح البصر فطنت الى ما سيحدث ، سأذهب انا والجندى الى قسم الأزبكية وكان على بعد خطوات منا فقد كان عند تقاطع شارعى الفجالة وكلوت بك قبل توسيع ميدان المحطة ، وسيحرر محضر بالحادث ثم تتخذ باقى الاجراءات .

كان هذا هو تصورى على اعتبار انى مصرى وان الحادثة وقعت بأرض مصرية ، وعلى بعد خطوات منا السلطة المصرية المختصة .. ولكن ما حدث لم يخطر لى على بال . فقد قادنى جندى بريطانى الى قشلاق انجليزى كان مكان عمارة التأمين المطلة على ميدان رمسيس ، ووقفت أمام ضابط بريطانى . وبعد ان نظر فى رخصة القيادة وبعد ان القى على بعض الأسئلة والأجوبة ، حكم على بدفع قيمة قميص الجندى الذى مزقته العجلة ، ودفعت المبلغ وانا صاغر . ثم سلمت لى العجلة فقمت بتركيبها وسرت بسيارتى الى نادى التجارة دون حوادث أخرى ، وما أكثر حوادث تلك

السيارة التى جعلت بعض زملائى فى السلاح يقترحون علىّ ان اكتب : « مغامرات سيارة ادلر » .

وبعد أن انتهيت من زيارة بعض أصدقائى بنادى التجارة هبطت فى الدرج وكان تحت ابطى كتابان ، وما ان بلغت مدخل النادى حتى وجدت جنديين من جنود الحلفاء يحتسبان زجاجة خمر . فلما رآيانى ألقيا علىّ تحية عسكرية فاضطربت ؛ تذكرت ذلك الرجل الذى قتله جنود سكارى فى شارع فؤاد الأول . وتلك المعركة الدموية التى دارت بين جنود سكارى والأهالى فى شارع الألفى وراح ضحيتها بعض الأبرياء .

ورددت عليهما تحيتهما بابتسامة اغتصبتها اغتصابا ، وقال لى احدهما وهو ينظر الى الكتابين :

— الظاهر انك طالب .

— نعم .

— اننا — ما دمت طالبا — لا نطلب كثيرا ، نريد أن نذهب الى السينما ، تذكرنى اربعة قروش ، وتذكرة زميلى اربعة قروش .

ونظرت الى الزجاجة التى كانت فى يده ، ووازنت بين دفع القروش الثمانية — وما كانت شيئا ذا قيمة .. ولكن ما كان له قيمة هو اذلالى وخضوعى لمن يفرض على الدفع قهرا ، وبين أن تطير تلك الزجاجة وتحطم وجهى ، فرأيت أن أدفع ما طلب فى صمت وما من رأى وما من سمع !!

وخرجت الى الطريق وأنا أحس انى غريب فى بلادى .

وذهبت الى المطار كما اعتدت أن أذهب كل صباح فالفيت العمال يكادون يطيرون من الفرح ، وما أن رأونى حتى هرعوا الى مهنئين :

ـــ مابرك .. رقى مستر أولدلند ونقل الى وحدة من وحدات صيانة الجيش البريطانى بالعباسية .

ودخلت على مستر أولدلند وهنأته ، فقال لى :

ـــ ما رايك فى ان تأتى معى ؟

وحسبته يسخر منى فقلت له :

ـــ وماذا أفعل معك يا مستر أولدلند ؟

فقال فى نبرات جادة :

ـــ تعمل ما تعمله هنا .. تترجم الأوامر الفنية للعمال .

ولم أجد لسانى فقال لى :

ـــ وانى سأحدد مرتبك فى اول الأمر بسبعين جنيها ، أعدك ان أرفعه الى مائة جنيه بعد اربعة اشهر .

كنت فى الدرجة الثامنة الكتابية وقد وصل مرتبى الى عشرة جنيهات بعد اربع سنوات ، وقد حاول السلاح أن يمنحنى الدرجة السادسة الفنية دون جدوى ، ومع ذلك لم يدر عــرض مستر اولدلند راسى فقلت له :

ـــ متشكر يا مستر اولدلند .

ـــ فكر .

ـــ فكرت ، وسأبقى هنا .

وصافحنى مستر اولدلند مودعا وخرج من مكتبه ، ولم أحس فرحا بل كان ما احسست به أن مرحلة من حياتى قد طويت . مرحلة كانت لذيذة بكفاحها ، ترى هل ستنقطع لذة الكفاح بترقية مستر أولدلند ومغادرته للورش التى كان يفخر بأن كل مسمار فيها قد وضعه بيده ؟!

« ٦ »

عين فى مكتبى موظف صغير يحمل الشهادة الابتدائية وكان ابن مدير المستخدمين بوزارة الحربية ، فأسندت اليه ملء نموذج من النماذج البسيطة التى لا تحتاج الى خبرة طويلة . ومرت أسابيع واذا بمدير مستخدمى الحربية يأتى الى السلاح الجوى مؤكدا أن ابنه يقوم بعمل فنى ويطلب من السلاح أن يطلب نقله من الكادر الكتابى الى الكادر الفنى .

كنت فى الدرجة الثامنة الكتابية وكان ابن مدير المستخدمين فى نفس درجتى ، وكنت أقوم بترجمة كل كتب الصيانة الفنية والأوامر الفنية ، بل كنت قد بدأت فى وضع مسميات عربية لقطع غيار الطائرات المختلفة . ورأى السلاح الفرصة مواتية لمنحى حقى المهضوم . فكتب الى الوزارة كتابا يطلب فيه منحى الدرجة السادسة الفنية ونقل ابن السيد مدير المستخدمين من الكادر الكتابى الى الكادر الفنى .

وجاء دور الوزارة بالموافقة على نقل ابن مدير المستخدمين من الكادر الكتابى الى الكادر الفنى ، اما فيما يختص بى فقد أفتى السيد مدير مستخدمى الحربية أن عملى كتابى وأن نقلى من الدرجة الثامنة الى الدرجة السادسة يكاد يكون مستحيلا !!

وبقيت أنا ـ الذى مر على تخرجى فى الجامعة أكثر من اربع

سنوات — فى الدرجة الثامنة الكتابية ، واصبح ابن مدير المستخدمين الحاصل على الابتدائية فى الدرجة الثامنة الفنية .

وكان لابد أن أثور فكتبت الى « صاحب المقام الرفيع » على ماهر باشا شكوى من نار . هاجمت فيها السلاح ومدير مستخدمى الحربية ونفست من غضبى الذى كان يملأ صدرى ، ولم يطل عمر وزارة ماهر فقد استقال بعد أربعين يوما . وعقب استقالته رن جرس التليفون فى مكتب قائد السرب حسن ، وكان المتكلم مدير السلاح اللواء حسين « باشا » عبد الوهاب ، وبعد أن وضع قائد السرب حسن السماعة التفت الىّ وقال :

— قال لى الباشا : « دور عن السحار وتعال » .

وذهبت أنا وقائد السرب الى مكتب الباشا المدير ، وما وقفت أمامه حتى قدم الىّ الشكوى وهو يقول :

— أنت كتبت هذه الشكوى ؟

ونظرت فى الشكوى فوجدت على ماهر قد كتب عليها بقلم احمر رد سريع ، واعدت الشكوى الى حسن عبد الوهاب وقلت :

— نعم أنا الذى كتبتها .

فالتفت الباشا الى قائد السرب حسن وقال فى دهشة :

— يقول انه هو الذى كتبها ؟

ثم التفت الىّ وقال :

— لماذا كتبت هذه الشكوى ؟ الم اكتب للوزارة طالبا ترقيتك ؟

— نعم كتبت ، ولكن الوزارة افتت فتوى لم تقنعنى ، فكتبت لرئيس الوزارة .

فالتفت الى قائد السرب حسن وقال :

— ما رأيك فى حضرته ؟

فقال قائد السرب حسن فى حماس :

ـ انه أكفأ موظف عندنا !

فالتفت حسن باشا الى وقال :

ـ لولا انك حديث عهد بالخدمة لوقعت عليك أقسى جزاء .
تفضل .

وانصرفت وبقى قائد السرب حسن بمكتب الباشا مدير السلاح . ورحت أفكر فيما جرى بينى وبين حسن باشا ، كانت المقابلة أقرب الى لقاء أصدقاء منه الى لقاء رئيس بمرءوس تخطاه وكتب الى رئيس الوزارة شكوى قاسية كتبت بمداد الغضب .
وكان السر أن الباشا المدير كان يريد أن يعرف كل شىء عن الطائرات وأجزائها وصيانتها ، وقد كنت أكتب له بتوجيه قائد السرب حسن تقريرا يوميا عن نظرية الاحتراق الداخلى وكيف ترتفع الطائرة فى الجو ، ووظيفة المحرك ووظيفة أجنحة الطائرة وجنيحاتها وقلاباتها ، وكان الرجل معجبا بالأسلوب البسيط الذى كنت أكتب به تلك المعلومات دون تعقيدات لفظية أو فنية .

وعدت الى مكتبى ولم ينفعنى أن رفعت شكواى الى رئيس الوزراء ، عدت كما كنت موظفا فى الدرجة الثامنة الكتابية بينما ابن رئيس المستخدمين فى الدرجة الثامنة الفنية !

وأراد مدير المستخدمين بوزارة الحربية أن يؤدى لى خدمة ، فأشار على السلاح أن يطلب نقلى من وظيفتى الحالية الى وظيفة أمين مخزن من الدرجة الثامنة الفنية ، وقد فعل السلاح وبر مدير المستخدمين بوعده ، وأصبحت أمين مخزن بالدرجة الثامنة الفنية كابن مدير المستخدمين سواء بسواء .

ولم يرض أصدقائى بالقوات الجوية بهذه النتيجة ، فأشاروا

برفع الموضوع الى حضرة صاحب المعالى الفريق وزير الحربية ، وبلغ الأمر الى صاحب المعالى وقيل له اننى أقوم بوضع قاموس للمصطلحات الفنية واقوم بترجمة أصناف المخازن الى اللغة العربية . فما كان من حضرة صاحب المعالى الفريق الا أن اصدر أمرا بتكليف أحد أقاربه بوضع قاموس المصطلحات الفنية للطيران وبترجمة أصناف المخازن الى اللغة العربية ، ومنحه ثلاثمائة وخمسين جنيها دفعة أولى ، وطلب منى شفاهة أن أعمل مع السيد قريب الوزير ، وبعد أن ينتهى العمل وعدت بأن أمنح الدرجة السادسة الفنية .

وخصص السلاح عربة لتوصيلى كل يوم صباحا الى منزل سيادة قريب الوزير — وزير الحربية — لأقرأ عليه ما وضعت من مصطلحات للطيران وقطع الغيار باللغة العربية . وكان الرجل يتلطف معى ويعدنى بأنه سيبذل كل جهده لاقناع معالي الوزير بمنحى الدرجة السادسة الفنية .

ومرت شهور وأنا اذهب كل يوم الى منزل قريب الوزير ، واندمجت في العمل منشرحا وان كنت لم أنل الا الوعود ، فقد كنت أستشعر أنى أقوم بعمل له قيمة . وفى غمرة العمل نسيت الوزير ونسيت الدرجة ونسيت أن حضرة صاحب المعالى وزير الحربية يمنح قريبه بين وقت وآخر مبالغ طائلة على مجهودى الذى أبذله دون ثمن !!

وسمعت عن صاحب المعالى الفريق حكايات كثيرة لم اكن أصدقها وان كان رواتها موظفى مكتبه . كان معاليه مكلفا بانفاق مبالغ على فقراء ليبيا وتزويدهم بالبطاطين ، فكان معاليه يأخذ من المصاريف مبالغ ضخمة ، وسرعان ما يحول الجنيهات الورقية الى أوراق من فئة الخمسة القروش ويقوم بتوزيعها على اعتبار

ان الورقة من فئة الخمسة القروش جنيه مصرى ، وكان يوزع ست عشرة بطانية وكانت البطانية فى حساب الأرقام بألف ..
وحمدت الله أنه لم يسرق منى غير عرقى !

وفى ذات صباح ذهبت الى السلاح فى الماظة فوجدت حركة غير عادية ، ورأيت أعضاء البعثة البريطانية يغدون ويروحون وقد احمرت وجوههم ولاح الغضب فى وجوههم ، فذهبت أسأل :

ـ ماذا جرى ؟

فقيل لى همسا :

ـ ركب فى الفجر حسين ذو الفقار صبرى وعزيز المصرى طائرة وهربا بها .

ـ الى اين ؟

ـ الى المحور ليعلنا سخطهما على بقاء الانجليز فى بلادنا .

كنت أسمع أن الفريق عزيز المصرى كان طوال حياته ثائرا ، انضم الى مصطفى كمال « اتاتورك » فى ثورته ، وحارب فى ليبيا ، وكان يمقت الانجليز ويكره احتلالهم لبلادنا ، وما لاحت له فرصة للثورة الا انتهزها . فان كان قد فر ليلحق بالألمان فلا غرابة فى ذلك ، وقد كان شعور المصريين كلهم مع هتلر لا حبا فى هتلر ، بل كراهية لاحتلال بريطانيا لبلادنا ..

وأحسست سعادة ونظرت الى أعضاء البعثة البريطانية فى شماتة وذهبت الى مكتبى مغتبطا فيا طالما صفعنا الانجليز وها هم اخوان لنا يردون اليهم الصفعة ، ولم يطل انشراحى فقد جاءت الأخبار أن الطائرة قد اضطرت للهبوط فى قليوب لنفاذ البنزين ، وانه قد تم القبض على عزيز المصرى وحسين ذو الفقار صبرى .

واستولى أعضـــاء البعثة البريطانية على مفاتيح حظـــائر

الطائرات وأمروا الا يوضع فى خزان البنزين الا كمية ضئيلة من البنزين لا تكفى الا للتحليق فى سماء القاهرة ، وبات الانجليز فى رعب من السلاح الجوى المصرى فقد بدت العداوة من طياريه .

وراح أعضـــاء البعثة البريطانية يتخـــذون بعض الاجراءات التعسفية ، فكان مما اتخذوه احالة قائد السرب حسن الى الجيش تأديبا له على صنع طائرة فى ورش السلاح ، وانتقاما من القرار الذى تقدم به وأصبح نافذا فى الجيش الا وهو نقـــل الصـــول البريطانى الذى يرقى الى رتبة ضابط من الوحدة المصرية التى يعمل بها الى وحدة من وحدات الجيش البريطانى ، واحسست غما لما نقل قائد السرب حسن ، وزاد فى ضيقى أن جاء الى مكتبى بعد ذلك الصول البريطانى اولدلند وقد رقى الى رتبة الصاغ !! وقال لى وهو يتيه برتبته الجديدة :

ــ ستار ... أما زلت فى هذا المكتب ؟

فقلت له فى هدوء :

ــ ولا زلت في الدرجة الثامنة الكتابية .

ــ سبق أن عرضت عليك أن تأتى معى وأمنحك سبعين جنيها فى الشهر . ما رأيك فى أن تأتى لتعمل معى وأعطيك مائة جنيه فى الشهر ؟

ــ شكرا يا مستر أولدلند سأبقى هنا فى سلاح الطيران المصرى .

« ٧ »

اقال الملك الوزارة ، ولم يعد صاحب المعالى الفــريق الذى أصدر أمرا بتكليف أحد أقاربه بوضع مسميات عربية لمصطلحات الطيران وكلفنى شناهة بمعاونته فى ذلك — لم يعد معالية وزيرا للحربية ، وعلى الرغم من ذلك كنت أذهب كل صباح الى منزل قريب الوزير الذى أقيل واقص عليه بعض النكات ، ثم أعكف على وضع المسميات العربية لجميع قطع الغيار الموجودة بمخــازن السلاح ، والرجل يقص علىّ فى حسرة ما كان معالى الوزير ينوى أن يفعله لى لو طال عمر الوزارة .

ولم أكن التفت كثيرا الى ما يقول ، فقد انقضت شهور طويلة منذ كلفت فيها بالعمل ، وقد قبض هو اكثر من دفعة ولم أنل انا شيئا اكثر من ازجاء المديح الى شخصى الضعيف الموظف فى الدرجة الثامنة الكتابية !! وبالرغم من ذلك كنت أحب عملى وأبذل فيه غاية جهدى .

واشتدت ضراوة الحرب بين المحور والحلفاء ، ونزلت قوات المحور فى شمال أفريقيــة وراحت تتقدم على طول الســاحل الشمالى متجهة نحو مصر . وكانت حرب الدعاية اشد ضراوة من حروب الميادين ، فانقسم الناس فى مصر الى معسكرين : معسكر الشعب وكانت عواطفه مع الألمان ، ومعسكر أصحاب المصالح وكانت عواطفه مع الحلفاء .

وانقسم سلاح الطيران الى معسكرين : معسكر الشبان وكان يرى الفرصة سانحة للتخلص من الاستعمار ومن البعثة البريطانية ، ومعسكر الرؤساء الذين كانوا يرون أن أى تغيير للأوضاع فى مصر سيكون على حسابهم ؛ لذلك تعاونوا مع الحلفاء ونسقوا أمر دوريات الحراسة الجوية بين سلاح الطيران المصرى وسلاح الطيران البريطانى .

وفتح سلاح الطيران المصرى مخازنه لسلاح الطيران البريطانى ، فأخذ الحلفاء من المخازن ما يشاءون من ذخيرة وأسلحة وقطع غيار ، ولم يكن الضباط الشبان يباركون هذا العمل .

كان الضباط الشبان يجتمعون ويدرسون الموقف الحربى ؛ وكانوا يرون أن كفة الألمان هى الراجحة ، وأن الألمان لو انتصروا فى الصحراء فلن يترك الانجليز البلاد قبل تدميرها . وقد شاع فى ذلك الوقت أن الانجليز قد اتخذوا جميع الاجراءات لاغراق الدلتا لو نجح الألمان فى تقدمهم . كان هذا هو الجو العام فى السلاح الجوى الملكى ، وكانت الرغبة فى تجنيب البلاد هذه الويلات تساور كل المخلصين فى مصر .

كان اغراق الدلتا بالمياه اذا ما تقدمت جيوش المحور اشاعة انتشرت انتشار الريح ، وقد تأكد بعد ذلك أن تلك الاشاعة كانت حقيقة واقعة ، بعد أن تعرفت بالسيد المهندس عبد المجيد داود الذى كان مكلفا بالقيام بعملية اغراق الدلتا ؛ فقد قص على تفاصيل العملية الرهيبة ودور الوزارات المتعاقبة المتخاذل فى ذلك الموقف الخطير ، وقد صورت كل ذلك فى روايتى « الحصاد » .

كانت الرغبة فى انقاذ مصر مما ينتظرها تخامر كل الطيارين الشبان ، وقد آمن بعضهم بأن التعاون مع الألمان وتقديم المعلومات

لهم يجعلنا حلفاء بدلا من أن نكون اعداء ، وأن هذه هى الوسيلة لانقاذ مصر مما ينتظرها من دمار ، وبيت بعض الطيارين الشبان أمر .

وفى صبيحة يوم من أيام الحرب بعد أن وصل روميل الى العلمين ، عدنا الى السلاح بألماظة فرأيت حركة غير عادية يقوم بها أعضاء البعثة البريطانية ، وألفينا وجوما على وجوه كبار الضباط ، ورحنا نتهامس ونصغى الى الأخبار فعلمنا أن الطيار سعودى قد طار فى الفجر بطائرة ، وقال الهمس انه ذهب بها الى العلمين ليتفاوض مع الألمان على ما سيفعلونه بمصر اذا تم لهم النصر على الحلفاء .

كان المنظر يوحى أن البعثة البريطانية قد استولت على المطار ، وأن مفاتيح حظائر الطائرات قد أصبحت فى أيديهم ، وأن الأوامر صارت لهم وأننا جميعا تحت رحمتهم . وساد السلاح قلق وترقب ، وما عدت الى البيت حتى اسرعت الى الراديو لأسمع نشرة الأخبار من محطة برلين .

وأذيعت النشرة وسردت عدد الطائرات البريطانية التى أسقطتها ، وذكرت أنها أسقطت طائرة من الطراز الذى كان يستخدمه سعودى ، فأيقنت أن سعودى أصيب أثناء هبوطه ظنا من المدفعية الألمانية أنه من الأعداء .

وقتل الضابط المصرى قبل أن يتصل بقوات المحور ، وقبل أن يتفاوض معهم فيما سيحدث لو دخلت تلك القوات مصر وفيها قوات الحلفاء .

واشتد عداء الشعب للانجليز حتى خرج الأزهر يهتف فى شوارع المدينة : « تقدم يا روميل » ، وانضم الناس للمظاهرة

واصبح مركز الانجليز حرجا فحاصروا السراى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وانتهت الأزمة بعودة الوفد وعودة صاحب المعالى الفريق الى وزارة الحربية ، وتهلل قريبه بالفرح وبشرنى بقرب ترقيتى الى الدرجة السادسة الفنية .

وكان أول ما فعله صاحب المعالى الفريق فى وزارته أن أمر بصرف مكافأة لقريبه على الجهود التى بذلها فى وضع المسميات العربية لقطع الغيار بالسلاح الجوى الملكى ولم يتكرم حتى بكلمة طيبة لشخصى الضعيف ، ووجدت أن من الخنوع أن تستمر هذه المهزلة .

أضربت عن الذهاب الى بيت قريب الوزير ، وقد بعث الى الرجل أكثر من رسالة ولكنى أهملتها ، وحاول بكل الطرق الودية أن يعيدنى الى عملى الخاص به ولكنه أخفق ، فلم يجد الرجل بدا من أن يذهب الى صاحب المعالى الفريق ويشكو اليه اعراضى عن العمل .

وكلم الوزير مدير السلاح ، فاستدعانى الى مكتبه وأمرنى أن استأنف ذهابى الى بيت قريب الوزير لانهى العمل حتى يقبض الرجل باقى مكافأته ، فقلت للمدير ان الأمر الصادر من معالى الوزير قد كلف قريبه بالقيام بالعمل ولم يأت فيه ذكر اسمى ، وعلى ذلك فليس هناك التزام على بقيامى بعمل حدد قرار وزارى المسئول عن تنفيذه .

وكان مدير السلاح فى ذلك الوقت رجلا متزنا ، فاقتنع بأقوالى ولم يحاول أن يضغط على لتنفيذ رغبات الوزير ، ومر الزمن والجهود الحبيسة تبذل من رجال مكتب الوزير لاستأنف معاونة قريب الوزير لأنهى ذلك العمل الذى طال ، ولكنى ركبت راسى .

وأحيل مدير السلاح الى المعاش وجاء مدير جديد عرف بالشدة والصرامة ولونه الحزبى . فقد كان من حزب الوزير . وفى أول يوم تسلم فيه العمل استدعانى الى مكتبه وقال لى :

ــ أين الترجمة ؟

فقلت فى هدوء :

ــ أية ترجمة يا سعادة الباشا ؟

ــ التى كلفك بها معالى الوزير .

ــ لم يكلفنى الوزير بأية ترجمة .

كان المديرقصيرا وكانت نظراته نارية . فصوب الى نظرة قاسية كأنما يقول لى : « لا جدوى من اللف والدوران » . ثم قال :

ــ غدا صباحا تقدم لى كل ما عندك من أوراق .

فقلت له صادقا :

ــ ليس عندى أية أوراق .

فنادى مدير مكتبه وقال له :

ــ يذهب السحار الى الفردان ويقوم بتسلم سرب البالونات من الانجليز ولا يعود قبل أن يترجم تعليمات السرب الى اللغة العربية .

فقال مدير مكتبه فى دهشة :

ــ وحده ؟ !

فقال المدير فى اصرار :

ــ وحده .

وتأهبت للانصراف فقال لى :

ــ غدا صباحا تكون فى الفردان .

ولم أكن أعرف أين الفردان ولا كيف أذهب اليها ، ولكنى لم

انبس بكلمة وخرجت من غرفة المدير ، ولحق بى مدير مكتبه وكان صديقا لى فقال :

ـ أتعرف كم يوما ستمكث هناك ؟

ـ لا .

فقال فى اشفاق :

ـ ستستغرق هذه المأمورية شهرا على الأقل .

فقلت فى بساطة :

ـ ليكن .

وذهبت أستعد للذهاب الى الفردان . وفى الصباح الباكر كنت منطلقا فى القطار الى الاسماعيلية ، وما كنت ادرى ماذا سأفعل بعد أن أصل الى هناك .

«٨»

كنت وانا فى القطار المنطلق الى الاسماعيلية أفكر فى كيفية الوصول الى الفردان ، وقد شغلنى هذا الخاطر عن كل ما حولى حتى انى لم أفطن الى انى قد وصلت الى الاسماعيلية الا بعد ان وجدت الركاب يغادرون القطار .

وهبطت فى الاسماعيلية اتلفت وخرجت من المحطة فوجدت سيارة من سيارات السلاح الجوى الملكى فى انتظارى فأحسست كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدرى ، وانطلقت بى السيارة خارج الاسماعلية الى الصحراء ، وعند خيمة صغيرة على ضفة القناة وقفت السيارة ، وفى مثل لمح البصر فطنت الى أن تلك الخيمة هى مكان اقامتى .

ونزلت من السيارة واتجهت الى الخيمة ، وخلعت ثيابى وتمددت فى السرير الذى مد فى ركن منها أنتظر مدفع الافطار ، فقد كنا فى رمضان .

ولمحت الجندى الذى كان واقفا بباب خيمتى مقبلا وهو يوسع من خطوه وبين يديه صينية لا ادرى من أين جاء بها ، المهم أننى سأتناول طعام افطارى .

ووضع الجندى الصينية داخل الخيمة ثم هم بالانصراف فقلت له :

— الى اين ؟ انتظر حتى تتناول معى الافطار .

فقال لى :

ـــ انى أتناول افطارى فى « الميز » .

فقلت فى دهش :

ـــ « الميز » ؟ ! وأين هو ؟

ـــ انه هناك على بعد ميلين .

ولم ادر أكان صادقا أم كان مبالغا . وحاولت أن أقنعه دون جدوى أن ينتظر ليفطر معى ، وسقط الظلام فجأة داخل الخيمة فى أثناء تناولى الافطار ، فقمت وأشعلت المصباح « الهاركين » وعلقته فى سقف الخيمة .

وخرجت من الخيمة ورحت أتلفت فأحسست وحشة ، كان القمر يرسل أشعته الفضية فى الصحراء وعلى القناة ، فبدت كسيف ألقى فى فلاة ، وكان للمكان سحر عجيب بيد أنى كنت فى حاجة الى انسان .

ومر الوقت وأنا ممدد فى مقعدى أمام الخيمة أفكر فيما سأفعله فى غدى ، ثم نهضت لأنام .

وفى الفجر كنت أصلى امام الخيمة فأحسست كأن الكون كله معبد لله ، وطلع النهار وجاءت السيارة وحملتنى الى سرب البالون ، وقد كان المكان مخيبا الآمالى . كان مكانا فسيحا به بعض أكشاك خشبية ، فذهبت الى مكتب ضابط بريطانى وقدمت له نفسى ، فما كان منه الا أن أخرج بعض كشوف من درج مكتبه وطلب منى فى أدب أن أوقعها ، وما أسرع أن وقعتها . فقدم الى كتاب باللغة الانجليزية ، فلما تصفحته فطنت الى أنه تعليمات السرب التى أمرنى مدير السلاح الجوى الملكى الا أعـــود قبل ترجمتها .

وعدت الى خيمتى وقد ملئت تصميما وعزما . قررت أن ابدأ

من فورى فى الترجمة ، الا اكف عن العمل حتى يغمى على .
وطلبت من الجندى الواقف امام خيمتى أن يذهب ويحضر لى آلة كاتبة . فلما انصرف خلعت ملابسى كلها ولبست — مايوه — كان معى ، ثم انطلقت الى القناة أتسلى بالعوم الى ان يعود الجندى .

وجاءت الآلة الكاتبة والاوراق ، ورحت أترجم التعليمات واكتب على الآلة الكاتبة فى حماس ، ومر الوقت وانتهيت من ترجمة بضع صفحات وأحسست بصداع ، فنهضت وألقيت بنفسى فى القناة أعوم وألعب وامرح وحدى ، حتى اذا ما استعدت نشاطى عدت الى الخيمة وأنا بالمايوه أستأنف عملى .

ومر اليوم الأول ، وما اسرع أن انقضى اليوم الثانى ، وما اشرقت شمس اليوم الثالث على الغروب حتى كنت قد انتهيت من ترجمة الكتاب . والحق أقول انى امتلأت سرورا لم أحس مثله من قبل ، فقد رن فى أذنى صوت مدير مكتب المدير وهو يقول لى :

— ان هذه العملية ستستغرق شهرا على الأقل .

وتخيلت وجه سعادة المدير وأنا مقبل عليه بعد ثلاثة ايام فابتسمت ، ثم دخلت الخيمة أتناول طعام الافطار . كانت الكنافة مختلطة بالرمل وكان الطعام رديئا ، ولكنى لم أهتم فقد كنت فى قمة سعادتى .

وفى الصباح الباكر كنت فى قطار الاسماعيلية المنطلق الى القاهرة ، ولم أشأ أن أضيع الوقت فما ان وصلت الى محطة مصر حتى انطلقت الى رئاسة السلاح الجوى لمقابلة سعادة المدير .

قابلت مدير مكتبه فقال لى فى دهشة :

— ما الذى جاء بك ؟

— لقد انتهيت من الترجمة .

فغاب فى مكتب المدير قليلا ثم قال لى :

ـــ تفضل .

وتقدمت وأنا ثابت الخطو ، فلما رآنى المدير قال :

ـــ بلغت « فرار » ، أى هربت من الخدمة .

ـــ لا يا سعادة الباشا ، لقد انتهت المهمة .

فقال فى ضيق :

ـــ هل ترجمت تعليمات سرب البالون ؟

فقدمت له الترجمة دون أن أنبس بكلمة فراح يقلبها ، ثم دق الجرس فجاء مدير مكتبه مهرولا ، فقال له :

ـــ خذوا هذه الترجمة وراجعوها .

فقال له مدير مكتبه :

ـــ لا أحد عندنا يراجع ترجمته .

فقال المدير فى ضيق :

ـــ تخنتو ودنه .

ثم التفت الى وقال :

ـــ حضرتك أمين مخزن ، اذهب وسلم نفسك فى المخازن .

وذهبت الى المخازن وأصبحت أمين مخزن الخامات بالسلاح الجوى الملكى ، ولم يضق صدرى بذلك فقد كنت بدأت فى تأسيس « لجنة النشر للجامعيين » وأنا فى الدرجة الثامنة الفنية ، كانت اللجنة قد أصدرت لى « أحمس بطل الاستقلال » ولزميلى نجيب محفوظ « رادوبيس » وكنت أشرف على طبع كتابى « أبو ذر الغفارى » وقد صدرته بمقدمة عن الاشتراكية فى الاسلام ـــ وكان ذلك فى عام ١٩٤٣ .

كنا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان الورق نادرا وكنا

نجد صعوبة فى الحصول عليه ، ولم تعترف وزارة التموين بنا فقد رفضت أن تخصص لنا حصة لطبع كتبنا فكنا نشترى الورق من السوق السوداء ممن كان لهم نفوذ فى ذلك الوقت . الذين يحصلون على الورق ولا يطبعونه بل يبيعونه بعشرة أمثال سعره للغلابة من أمثالنا .

وذات يوم جاء الىّ شاب وسيم وقال لى :

ــ أظن انك فى حاجة الى ورق .

ــ نعم بكم ؟

فابتسم الشاب وقال لى :

ــ بأبخس الأثمان . انى منتظرك غدا لتأتى معى . انى معجب بك وانى على استعداد لأن أؤدى لك خدمة .

وفى اليوم التالى كنت أسير الى جواره فى شارع سليمان باشا ، وصعدنا فى احدى العمارات وفتح باب الشقة بمفتاح معه ودخل وانا فى اثره . وتلفت فى سرعة فوجدت ملابس سيدات داخلية ملقاة هنا وهناك . ودق قلبى فى صدرى وتقدمت فى حذر . وكم كانت دهشتى لما وجـدت نفسى فى مكتب ضـابط بريطانى .

رحب الرجل بى وحدثنى عن اللجنة وتاريخ انشائها ، ثم قال لى الرجل :

ــ انى مستعد أن أعطيك ما تريد من ورق بشرط .

ــ وما الشرط ؟

ــ أن تنشر ترجمة لروميو وجولييت ، وقد قام بالترجمة كاتب كبير ــ وذكر لى اسمه وقد كان كاتبا كبيرا حقا .

كنت أحب ذلك الكاتب من أعماق قلبى ، لكنى وجدت نفسى قد

أغلقت دون الفكرة ، واحسست أن قبولى هذا العرض سيوقعنى فى الشرك ، سأصبح آلة فى يد المخابرات الانجليزية . فقلت الرجل فى أدب :

ــ آسف .

ــ لماذا ترفض هذا العرض ؟ ستخصص لك كمية الورق التي تريدها ولن نطلب منك الا نشر كتب أدبية .

ــ قبولى التعاون معكم معناه أننى بعت نفسى لكم ، وأنا لا أحب أن أبيع نفسى أبدا .

فضحك الرجل وقال :

ــ لا تزال صغير السن . ليس فيما نعرضه عليك ما يرفض .

ثم فتح درجه وأخرج منه كشفا به أسماء كثيرة وقدم الكشف الى ، ونظرت فيه فأصابنى دوار . كان الكشف يضم زعماء سياسيين وكتابا كبارا .. كبارا جدا فى ذلك الوقت ، ورجال دين واقتصاديين ، وراح الرجل يتحدث فى تؤدة :

ــ كل هؤلاء لهم رواتب شهرية من الحكومة المصرية ، كلهم يتعاونون معنا . اننا لا نطلب منك أن تتعاون معنا مثل تعاون هؤلاء العظماء ، كل ما نطلبه أن تنشر قصة مترجمة لكاتب انجليزى بين وقت وآخر مقابل أن نمدك بالورق . انها صفقة أدبية لا دخل للسياسة فيها .

ورفضت ونهضت لأنصرف وأنا أحس فى أعماقى أننى افضل من كل هؤلاء الساسة والكتاب الكبار ورجال الدين ، ولم أدر حتى الآن أكانت تلك الكشوف حقيقية أم أنها كشوف اخترعتها المخابرات البريطانية لتوهين عزائم ضعاف النفوس .

وعدت ابحث عن ورق فى السوق السوداء ، وقد اسعدنى أنى عثرت على ورق كان قد سقط فى الماء من جراء هجوم الطائرات الألمانية على سفن الحلفاء ، واستأجرت مكوجية لكى ذلك الورق لتطبع عليه قصص نجيب محفوظ وعلى احمد باكثير وعبد الحليم عبد الله وكتبى ، فقد عزمت على أن اسير بلجنة النشر للجامعيين مهما كانت الصعاب .

« ٩ »

كنت أول من عرف طريق الوظيفة في أسرتي ، فقد كان كل رجال الأسرة يمارسون التجارة ، حتى أخي سعيد الذي تخرج في كلية الآداب فتح مكتبة واسس مطبعة ، فكنت أرقب أخواني الموظفين فيخيل الي أنهم يمثلون على خشبة مسرح . وقد كان أكثر من اثار دهشتي مديرنا الحزبي الذي راح محاسيبه يذيعون انه مرشح لوكالة الحربية ، وأكد تلك الاشاعة انه أصدر أمرا لورشة السلاح أن تعيد تجديد سيارته الفخمة لتليق بوكيل الوزارة المنتظر .

وخطر لي خاطر : لماذا لا أصور هذا المجتمع العجيب الذي اضطرتني وفاة أبي أن أنتسب اليه برغمي ؟ واستجبت لذلك الخاطر فعكفت على كتابة صور نقدية لأسيادنا الموظفين . وقد كتبت تلك الصور في مكتبي بمخازن السلاح الجوي وكانت عند حدود الماظة وطريق السويس الصحراوي .

كتبت عن مستر أولدلند ، وصورت ما يجري في الورش ، وكان نصيب مديرنا الحزبي ثلاث صور ، وكتبت قصة عن الوزير الذي يملأ جيوبه من المصاريف السرية ، وكتبت قصة عن الجيش في ذلك الوقت بعنوان « هذا هو الجيش » . ولما كنت أعبر عن العنوان بفكرة كاريكاتورية فقد طلبت من المصور أن يرسم ضابطا سمينا جدا في ميزان زنبرك مقسم الى ملازم ثان ، ملازم أول ، يوزباشي ، صاغ ، لواء ، وأن يجعل مؤشر الميزان عند رتبة لواء للدلالة على أن الترقية في الجيش في ذلك الوقت كانت بالوزن .

وفى أيام قليلة انتهيت من اعداد أصول الكتاب والصور الكاريكاتورية . ولما كانت قوانين الطباعة فى تلك الأيام تنص على وجوب موافقة الرقابة على كل كتاب قبل طبعه فقد بعثت بالنسخة الأصلية الوحيدة التى عندى الى ادارة المطبوعات .

وساءت العلاقات بين السراى وبين الوزارة ، وانتشرت الاشاعات تؤكد أن الملك سيقيل الوزارة ، ولما كان كل ما يهمنى من الأمر هو أصول كتابى فقد أسرعت الى الرقابة وقابلت الموظف الذى تسلم منى الكتاب وقلت له :

ــ هل انتهت الرقابة على كتابى ؟

فقال لى الموظف فى اقتضاب :

ــ أصول كتابك فى حقيبة وزير الداخلية .

وزير الداخلية ؟ وما شأن كتابى ووزير الداخلية ؟ . فقلت فى خوف :

ــ ومتى سيعيده وزير الداخلية ؟

ــ لا أعرف .

وراح يستأنف عمله دون أن ينظر الىّ ، وخرجت من عنده وانا قلق لا أدرى أأصدقه فى زعمه أم أكذبه . ورأيت أن أتريث ، وما مر أسبوع حتى أقيلت الوزارة فطار عقلى ، فما كنت أملك غير تلك النسخة الوحيدة التى قدمتها بصورها الكاريكاتورية الى الرقيب .

وأسرعت الى وزارة الداخلية وقابلت الموظف الذى سبق أن أخبرنى أن أصول كتابى فى حقيبة وزير الداخلية ، وما كاد يقع بصره على حتى قال :

ــ لم يعد وزير الداخلية أصول كتابك . لا تزال عنده ولا ندرى اذا كان سيعيدها أو لا يكترث باعادتها .

ولم استطع أن اتريث أو اصدق ذلك الزعم ، فاقتحمت مكتب الرقيب ، وكان الأستاذ توفيق صليب وكان أديبا دمث الخلق رحب الصدر . فما أن القيت عليه التحية وقدمت له نفسي حتى قابلني في ترحاب ، وتفضل وطلب مني أن أجلس . وقبل أن استقر في مكاني قلت :

ــ قدمت للرقابة كتابا ، ولما سألت عنه قيل لي انه عند وزير الداخلية .

فقال الأستاذ توفيق صليب وهو يبتسم :

ــ انه عندي .

وأحسست راحة وهدأت نفسي ، وراح الرجل يتكلم وانا أصغي اليه :

ــ انك لا تزال شابا وامامك مستقبل مزهر ان شاء الله ، فماذا تحاول أن تقضي على نفسك وعلى مستقبلك ؟

ولم افهم ما يقول ، فلم يكن في الكتاب في رايي ما يقضي على مستقبلي . واستأنف الرجل حديثه :

ــ من حسن حظك أن هناك رقابة والا كنت الآن واقفا امام محكمة الجنايات .

ــ لماذا ؟

ــ لأنك سخرت من الجيش وصورته جيشا لا عمل له الا السير في « المحمل » وفي احتفالات افتتاح البرلمان ، وأكدت أن الترقية فيه بالوزن ، وأن الضابط اذا مات يكتب على شاهد القبر : ولد سنة كذا ومات سنة كذا ، ولم يشهد معركة واحدة .

وقذفت في حق وزير واتهمته بالسرقة والنصب واستغلال النفوذ .

ثم صمت قليلا ليترك لي فرصة ان افكر فيما كنت مقدما عليه ، ثم قال لي :

ـ اسمع نصيحتي ولا تنشر هذا الكتاب .

فقلت في حماس :

ـ سأنشره بعد أن ترفع الرقابة ، وأضيف اليه صورة جديدة بعنوان « الرقيب » سأسرد فيها ما دار بيني وبينك .

فابتسم الأستاذ توفيق صليب ثم قال :

ـ الظاهر انك عنيد .

ثم أخرج الكتاب من درج مكتبه وقدمه اليّ فتناولته وأنا اكاد اطير من الفرح . ونظرت الى ختم الرقابة والى العبارة التى كتبت « يصرح بالنشر بعد الحذف » ، فغمرني سرور فياض وما ان تركت غرفة الأستاذ توفيق صليب حتى أخذت اقلب صفحات الكتاب في لهفة فأصبت بخيبة . حذف الرقيب قصة « هذا هو الجيش » ، وحذف قصة « معالي الوزير » وحذف كل ما مس السادة من كبار الموظفين ، وترك لي نقد صغار الموظفين الغلابة .

وطبع الكتاب وتركت بعض العبارات التى حذفها الرقيب ، وما ان تسلمت النسخ الأولى حتى أسرعت الى مكتب مديرنا الجزبي واهديت اليه نسخة وأنا واثق أنه سيعرف القصص التى صورته ، فقد كانت تروى حقائق تدمغه .

وانتظرت أن يبعث اليّ المدير وأن يثور في وجهي وأن يصدر أمر نقلي الى الدخيلة أو الى اية مخازن نائية للسلاح الجوي ، ولكن قبل ان يستدعيني سعادته صدرت اوامر باحالته الى المعاش .

وفي عصر ذات يوم كنت في مكتبة اخي في الفجالة ، واذا

بمديرنا السابق يقبل ، وما ان يرانى حتى يقبل على متهللا ويصافحنى فى شوق ثم يقول لى :

ـ النقد جميل ، ولكن أكثر الناس لا يحبونه .

ثم راح يحدثنى عن الكتاب فى حماسة ، وقبل ان ينصرف عاد وهنأنى بالكتاب وهو يتمنى لى أطيب التمنيات .

وراح مديرنا السابق يمر على المكتبة كلما كان فى الفجالة ويتحدث معى طويلاً اذا وجدنى ، وكان يترك لى تحياته اذا لم يجدنى ، وتوطدت بينى وبينه صداقة متينة ظلت الى آخر يوم من أيام حياته .

ورقيت الى الدرجة السادسة التى أذلتنى والتى كان الوزير الحزبى يلوح لى بها ليستغل جهودى فى سبيل منح قريبه مكافآت سخية بين وقت وآخر ، وأصبحت كبير أمناء المخازن . وجاء الى احد الزميلين اللذين جاءامع مديرنا السابق ، والذين اشاعا الرهبة فى السلاح ، وقال لى فى انكسار :

ـ لم يبق بينى وبين المعاش الا سنة واحدة ، أما أنت فالطريق أمامك مفتوح . لا زلت شابا وبمؤهلك العالى تستطيع أن تصل الى الوزارة . المستقبل أمامك ، أما انا فقد انقضى عمرى وليس لى مطمع الا تحسين معاشى .

كنت ادرى الناس بخيبته ، بيد أن حديثه مس وترا حساسا فى قلبى فقلت له :

ـ وماذا تريد منى ؟

ـ هناك درجة خامسة خالية وقد اصبحت انت المستحق لها ، فاذا قبلت أن ارقى أنا اليها بالاختيار فانك تسدى الى والى أولادى معروفا لن ننساه . انى لا ابغى الا تحسين معاشى

ومعاش أولادى . انها سنة واحدة ثم ترقى الى الدرجة بعد احالتى الى المعاش .

وامتلأ صدرى بالشهامة فقلت له :

ـــ موافق .

وخف الرجل الى مكتبه يكتب مذكرة ترقيته الى الدرجة الخامسة ، وأسرع الى رئيسه المباشر يزكيه ، وفى ساعات كانت المذكرة أمام مدير المستخدمين .

واجتمعت لجنة شئون الموظفين ونظرت فى المذكرة المعروضة ، ثم أصدرت قرارا بترقيتى الى الدرجة الخامسة الفنية ، وذهبت الى رئيس اللجنة . ولم أكن سعيدا بذلك القرار وعاتبته على عدم موافقته على ترقية زميلى الشيخ الذى لم يبق على احالته الى المعاش الا سنة ، فالتفت الى رئيس اللجنة وقال فى دهش :

ـــ سنة ! من قال لك ذلك ؟

ـــ هو .. انها سنة واحدة كانت هذه الترقية سبيله الوحيد لتحسين معاشه ومعاش عياله .

فضحك رئيس اللجنة وقال :

ـــ اطمئن . أمامه خمس سنوات يستطيع أن يحسن فيها معاشه .

وتيقنت من أنه ما جاء الا ليستغل سذاجتى ، ولكننى لم أحقد عليه بل كنت ألبى له كل رغباته ، وقد عذرته فيما فعل ، فطالب العيش ما تجنى .


ذكريات أدبية

« ١ »

كنت فى السنة الأولى بمدرسة الجمالية الابتدائية عام ١٩٢١ ، وكان أخواى أحمد وسعيد فى السنة الرابعة وكانا يعشقان القراءة ، فكانا ينسلان فى فسحة الغداء الى المكاتب المتواضعة المنتشرة على جانبى الطرق الضيقة الملتوية المؤدية الى الأزهر ، وكنت أنسل فى أثرهما . كان لا هم لهما الا التنقيب عن القصص القديمة بين أكداس الكتب الدينية الصفراء ، حتى اذا انتهيا من جمع ما يرغبان يضعانه فى الميزان ، ثم يدفعان ثمنه بحساب الأقة ، فما كان للقصص والروايات سوق فى حى الأزهر !

وكان كل منهما يحمل جزءا من « الشروة » وكنت أحمل نصيبى بين ذراعى وأنا مغتبط ، وكان هذا أول عهدى بالقصص .

الحبر .. والبالوظة !

وفكر أخواى فى اصدار مجلة أدبية فى الاجازة الصيفية ، فعكفا يكتبان الأزجال والقصص والمقالات ، حتى اذا ما انتهيا من تحرير المجلة اشتريا أوراقا وحبرا زفرا و « بالوظة » ، ودفعا بالمواضيع الى فريدون ليرسم صورها ويكتب مواد العدد الأول بخطه الجميل وهو جالس على عتبة باب بيتنا ونحن نرقبه فى اعجاب ، حتى اذا انتهى من كتابة الصفحة الأولى طبعناها على

البالوظة ، فيخطفها الجميع يقرعونها فى سرور ، واستمر فريدون فى عمله الساعات الطوال حتى انجز الحلم الذى كان يراود أخيلتنا . صدرت المجلة وانتقلت من حينا الأحياء المجاورة . انتقلت من شارع جنينة الكوة بالظاهر الى العطوف بالجمالية ! وكان هذا أول عهدى بالطباعة .

واخذ أخواى يقرآن المجلة لكل وافد وانا أصغى منتشيا ، حتى حفظت مواد العدد عن ظهر قلب ، وما زلت احفظه حتى الساعة ، فقد حفر فى الذاكرة .

وكان هذا أول عهدى يتذوق الأدب !

التشجيع توم ميكس .. !

وكنت اذهب مع أخوى الى سينما ايديال كل يوم خميس فى حفلة الساعة الثالثة ، فنمر على سينما اوليمبيا فندلف الى ساحتها نشاهد صورة البطل المعلقة فوق شباك التذاكر ونأخذ فى تقريظها أو نقدها ونحن فى نشوة ، لأنها كانت من تصوير « فريدون » صديقنا الصغير .

وكان هذا أول عهدى بالرسم والنقد .

وحدث أن دار اللطائف عهدت الى صديقنا الصغير « فريدون » برسم مجلة الأولاد كلها ، فشاع السرور فى الحى كله واعتبرنا ذلك فخرا لنا ، وتعلمت أن الأخيلة التى تدور فى أدمغة الصغار قد تتحقق يوما .

وأصدرت سينما أوليمبيا مجلة أنيقة تهتم بالأنباء السينمائية ، وتفسح صدرها للقصص ، فكنا نتخطفها لنعرف أنباء مارى بيكفورد ودوجلاس فيربانكس وشارلى شابلن وزيجوتو وهارولد لويد

وآرت أكورد وتوم ميكس وايلين .. ونجومنا المفضلة . ونتطلع الى صورهم اذا هـزنا الشوق اليهم ، وحال بيننـا وبين السينما .

كتـاب القصـة الآدميـون

وكتب أخي سعيد قصة أقرب الى القصص السينمائية التي نراها على الشاشة ، سلسلة من المصادفات وسلسلة من المواقف المثيرة المفتعلة التي تجعل القارئ يحبس أنفاسه ، ولم يجرؤ على أن يسمي أبطال قصته أحمد وعلى وفاطمة فما كان ذلك مألوفا في ذلك العهد وما كان كاتب يعتقد أن أحمد وعلى وفاطمة يصلحون أن يكونوا أبطالا لقصة !

وظهرت القصة في مجلة سينما أوليمبيا فكدنا نطـير من الفرح ، وعلى الرغم من سذاجة القصة وافتعال حوادثها فاني أعتقد مخلصا أنها كانت أفضل من كثير من الروايات التي تكتب بها اليوم السينما المصرية .

وعرفت منذ ذلك الوقت أن الذين يكتبون القصص أناس مثلنا .

ومرت الأيام وأنا أعيش بين الكتب دون أن أقرأ منها شيئا ، وأسمع الأحاديث تدور حول فانتوماس ، وجونسون وابن جونسون فأشتهي أن أشارك في ذلك الحديث الذي يستحوذ على لبي ، وشحذ ذلك همتي فأغراني على محاولة القـراءة ، وتنـاولت « ماجدولين » للمنفلوطي فتهيبتهـا ، ولكن ما ان قرأت بضـع صفحات منها حتى انشرح صدري وامتلأت غبطة وكدت أطير من الفرح ، لأنني استطعت أن أفهم ما أقرأ ، وأن أتأثر به وأنفعل له .

الأنفاس الأخيرة ، وماجدولين !

ومرت الساعات وانا عاكف على الكتاب ، فنسيت كل ما حولى وعشت مع أبطال الرواية حتى أوشكت على نهايتها ، ومس أذنى اصوات مهمهمة مختلطة فتركت الكتاب على الرغم منى ، وذهبت أرى ما هناك .

ورأيت ابنة أخى الصغيرة نائمة شاحبة تلتقط أنفاسها فى جهد ، وأهل الدار حولها مطاطئى الرءوس فى حزن ، ففطنت الى انها فى النزع الأخير فانقبض صدرى ، ومع ذلك لم استطع أن اترك ماجدولين وهى تجود بآخر انفاسها فأسرعت الى الكتاب وطفقت أقرأ وانا أجفف دموعى ، وما أن انتهيت منه حتى ارتفع من الغرفة القريبة منى صوت ، فخيل الىّ انه ما انطلق الا لموت « ماجدولين » ! .

عنـــدما شــــعرت برجولتى !

وتصرمت مرحلة الدراسة الابتدائية والتحقت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية فأصبحت رجلا ، وصار من حقى أن اشارك أبى مجلسه الليلى .

كان ابى وأصحابه يجتمعون كل مساء فى سلاملك الدار يتحادثون فى حوادث اليوم ، ثم يعكفون على قراءة كتاب والتعليق عليه ، كانوا يقرءون تلك الليلة التى انضممت فيها اليهم كتاب « الأيام » للدكتور طه حسين ، وكان اكثر الموجودين اعجابا بالكتاب شيخ جسيم كليل النظر ذرب اللسان ، وكان يظهر اعجابه بسيل

من السباب تتدفق من فيه قوية مجلجلة ، ولو أن الدكتور طه قدر له أن يسمع ذلك السباب لقرر هجر الكتابة ، على الرغم من أن ما لحق أهله من سباب كان مرجعه الاعجاب !

التجــربة الجــديدة

وبدىء فى قراءة « فتوح الشام » للواقدى بعد أن انتهى القوم من قراءة « الأيام » ونسج الأقاصيص حول المؤلف وحياته وايمانه والحاده وما تطرق اليه الحديث وما تشعب ، وبعد عقد كثير من الموازنات وفيض من التعليقات .

وبدأت بالنسبة الى تجربة جديدة ، فقد كلفت الأول مــرة بقراءة بعض صفحات من الكتاب فأحسست أننى أصبحت شيئا فى ذلك الجمع الذى يضم كثيرا من الشيوخ والرجال .

كان الواقدى يروى حوادث التاريخ فى أسلوب قصصى شائق ، وكان يهتم بالتفاصيل المثيرة التى تستولى على القارىء ، وان أنس لا انس سرده العجيب لوقوع ضرار بن الأزور فى أسر الــروم ، وكيف ارتدت أخته خــولة بنت الأزور ملابس الرجال وهجمت على الروم هجوم الفارس الصنديد الذى لا يشق له غبار ، وكيف احتالت حتى خلصت اخاها من الأسر . وانى أظن أن فى تاريخ الواقدى ــ سواء أطابق التاريخ أم كان من نسج خيال خصيب ــ مادة رائعة تصلح اساسا للباحثين عن روايات المخاطرات ، ان للواقدى الفضل الأول فى تعلقى بالتاريخ وحبى له .

وجرى دم الشباب فى عروقى ، فأخذت أخرج أول الليل الى ميدان الظاهر أرقب الفتيات العائدات من المحال التجارية التى

يعملن بها ، وكانت أغلبهن من اليهوديات القاطنات فى الظاهر والسكاكينى والبكرية .

المــازنى .. وأنا ..

ولمحت ذات مرة الأستاذ المازنى جالسا بمحل حلوانى النجمة بالقرب من محطة الترام يدير عينيه فى الرائحات الغاديات فى الطريق والهابطات الصاعدات فى الترام ، فحزرت أنه يبحث بينهن عن بطلات لقصصه التى ينشرها فى الرواية والرسالة .

وان الدارس المازنى لابد أن يرى أثر تلك الجلسة فى أدبه ، كان يعيش بين اليهود ويتأثربتحررهم ، فكان كثيرا ما يصور الفتاة المصرية أكثر تحررا مما كانت عليه فى ذلك العصر ، وكان هذا بعض ما أخذه عليه بعض من نقدوه من أصحابى ، ولو أنهم عرفوا هذه الحقيقة لوضعوا أيديهم على ما يبرر ذلك التحرر الذى اتسمت به أقاصيصه التى جمعها من الطريق وأطلق عليها « فى الطريق » .

والتقت عيناى بعينى المازنى أكثر من مرة ، وبدأنى بالتحية فحسبت أنه يحيينى لأننى ابن عم صاحب البيت الذى يسكن فيه ، ولكن لما توثقت بينى وبينه الصداقة عرفت أنه يبدأ بتحية كل من يقابله فى الطريق أكثر من مرة .

وفى ذات ليلة انطلقت خلف فتاة لألحق بها ، والتفت حولى فى انطلاقى فلمحت المازنى يسير بالقرب منى ، فخجلت من نفسى ، وخففت من خطوى ، وفطن الى ما اعترانى فابتسم ، وقرأت فى عينيه أنه يدعونى الى استئناف ما كنت فيه فابتسمت ووسعت من خطوى .

ابو حـــديد .. وتيمـــور ..

ووفدت على الشارع اسرة جديدة لم يلفت نظرى اليها الا ذلك الشاب المورد الوجه المرسل الشعر الذى أخذ يدنو منى ويبتسم لى . وتم التعارف بيننا فاذا به طالب فى مدرسة الأمير فاروق الثانوية ، وانبأنى انه رئيس فرقة التمثيل بها .

كنا كلما سرنا فى الطريق يأخذ فى تمثيل دوره فى مسرحية « زهراب ورستم » التى الفها وكيل المدرسة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وطفق يحدثنى عن الأستاذ أحاديث صافية شائقة جعلتنى أنقب عن أقاصيصه ، ورحت أقرأ كل ما يكتب فى الرسالة والثقافة .

وقرأت فى احدى المجلات أقصوصة « يحفظ فى شــباك البوستة » للأستاذ محمود تيمور فأعجبتنى فكرتها ، وكانت هذه أول أقصوصة أقرؤها له ، ثم قرأت الشيخ سيد العبيط ومجموعاته الأخرى ، ومن ذلك الوقت أصبحت الأقاصيص والروايات قراءتى المفضلة

فى الحيـــاة الجامعيـــة

ودخلت الجامعة فبدأت قراءتى فى الآداب الأوربية . اننى أذكـــر أننى قرأت فى المـــدارس الثانوية « ابراهام لنـــكولن » و « كريتن العجيب » و « جزيرة الكنز » ، ولكن تلك القراءة لم تكن محببة الى قلبى كثيرا فقد اكتنفهـــا كثـــير من التعقيـــدات الدراسية .

قرات فى الجامعة « قصتى المفضلة » وهى مجموعة اقاصيص لأشـــهر الكتاب الانجــليز ، ومنتخبـــات من أشهر المسرحيات الانجليزية ، وجميع أعمال جولزويرزى . وقد سرنى أننى كنت أفطن الى كثير من الحقائق التى لا يفطن اليها مدرس اللغـــة الانجليزية . سأله طالب يوما عما يقصده جولزوبرذى من عنوان احدى مسرحياته « الأول والأخير » فقال انه لا يدرى وانه يحسب أن المؤلف قد وضع هذا الاسم الجذاب ليغرى الناس على قراءة مسرحيته أو مشاهدتها ، ولم يقنعنى ذلك الرد فما كنت لاعتقد أن مؤلفا يضع لعمله اسما لا يدل عليه أو لا تكون له به صلة ولو من بعيد ، فقمت أشرح وجهة نظرى .

قلت ان المؤلف يشير بعنوان مسرحيته الى ذلك الأخ الذى كتب لأخيه النائب العام معترفا بأنه هو الذى قتل المرأة التى وجدت قتيلة فى الحى ، لأنها كانت عشيقته ثم هجرته . وبعد اعتراف الأخ انتحر ، فما كان من النائب العام الا أن أحرق ذلك الاعتراف لأن أخاه كان الأول والأخير الذى كان يعرف أمره ، وقال مدرس اللغة الانجليزية ببساطة : ربما !.

خطـــوة نحـــو المجـــد ..

وكنت فى كل صباح انطلق الى شارع فاروق لأستقل الترام الى العتبة ومنها الى كلية التجارة بالقصر العينى ، وفى ذات يوم لمحنى المازنى وانا فى وقفتى ، فدعانى للركوب معه فى سيارته وأوصلنى الى الكليه وهو فى طريقه الى البلاغ ، ومنذ ذلك اليوم صرت أركب سيارة المازنى كل صباح ، وقد أتاح لى ذلك فرصة الحديث فى الأدب .

وانتقلنا من حى الظاهر الى الجنزورى فجعلت ارقب جيراننا الجدد بعين مفتوحة ، فاذا بى أجد أن جارتنا تسيطر على زوجها وابنائها السيطرة كلها . كانت كلمتها هى العليا ، اذا أرادت أن تخرج خرجت ، سواء أخرج الزوج معها أم بقى فى البيت ، وان شاءت ان تقابل هذا او ذاك قابلته لا فرق بين حضور الزوج أو غيابه .

واحتل امر هـذه الأسرة تفـكيرى واسـتولى على لبى ، وأحسست احساسا خفيا يوسوس فى أعماقى أن أكتب قصة هذه الأسرة ، واسرعت الى مكتبى واخذت أكتب قصتى الأولى وأنا فى شبه غيبوبة ، ولما انتهيت منها بعثت بها الى مجلة الرسالة ، وكم كانت دهشتى لما وجدت فى المجلة بالحروف الكبيرة « رجل البيت للأديب عبد الحميد جوده السحار » فخفق قلبى فى شدة وغمرتنى نشوة لذيذه ، وقابلت المازنى وأنا نشوان ، كنت أقدر فى أعماقى أنه لابد قد قرأ القصة وأنه قد عرف أننى أديب . وقطعنا الطريق وأنا ألمح الى قصتى ، ولكن المازنى لم يفطن الى تلميحى ، انه لم يقرأ قصتى ولم يلتفت اليها ، مع أن له قصة فى نفس العدد ، ولم يكن فية قصص مصرية الا قصتى وقصته .

« ٢ »

عكفت على كل ما تصل اليه يدى من قصص وروايات ، واصبحت التهم جميع الفصول الأدبية التى تنشرها الصحف ، تتبعت « يوميات نائب فى الأرياف » فى مجلة الرواية ، والأساطير اليونانية التى كان ينشرها الأستاذ دريني خشبة ، وقصص تيمور والمازنى وطاهر لاشين وأبو حديد ، وأخذت أنشر بعض أقاصيص فى الرسالة والجامعة والـ ٢٠ قصة .

ولفت نظرى فى هذه الآونة قصاص ناشىء كان يكتب فى الرسالة والرواية أقاصيص مصرية جيدة . وكانت هذه الأقاصيص هى أول ما أقرؤه فى المجلة ، وكان هذا القصاص الذى راح يشق طريقه بين الصخور هو نجيب محفوظ ، ولم يدر فى خلدى فى ذلك الوقت أن الزمن يدخره لى ليسير معى جنبا الى جنب فى طريق الكفاح فى سبيل اتاحة الفرص لجيل جديد من الأدباء ، كانت آثاره مطمورة فى أدراج المكاتب قد حكم عليها أصحاب دور النشر بألا ترى النور .

ورأيت أن أبدأ فى دراسة الرواية والأقصوصة دراسة فنية بعد أن كتبت بعض أقاصيص نشرت جميعا فى المجلات التى كنت أراسلها من مكتبى دون أن أقابل أحدا من أصحابها أو من المشرفين على تحريرها ، ودون أن أتقاضى ثمنها فما كنت أعرف أن للأدب ثمنا !!

عرفت الفرق بين الأقصوصة والرواية ، ورسخ فى ذهنى أن

الأقصوصة قطاع فى شخصية أو صورة ترسم بالألفاظ ، وبدأت أكتب أول أقصوصة لى بعد الدراسة وبعثت بها الى مجلة الرسالة فلم تنشر ، وانتظرت وطال انتظارى ، وكانت هذه ول صدمة لى .. كان الطريق ممهدا ميسورا أمامى قبل أن أدرس ، فلما تسلحت بالمعرفة سد فى وجهى الطريق !

وقرأت رواية فرنسية عن طفل سرق وهو فى المهد ، ونشأة ذلك الطفل وعمله مع « قرداتى » ، وما احتمل من شدائد حتى عثر عليه أهله ، ولم يكن فى القصة الا روعة الحوادث وتسلسلها ، وقد صدرها المؤلف بمقدمة قال فيها انه يكتب روايته وصورة ابنته تتخايل له فيسطر ما يعتقد انه يدخل السرور على قلبها الصغير ، واحتلت رأسى فكرة بعد أن انتهيت من هذه الرواية ، لماذا لا أكتب قصة تاريخية تعتمد على ضخامة الحوادث تغتبط بها ابنتى اذا ما قرأتها يوما ؟ ! واستولت الفكرة على لبى واستبدت بى فلم أجد بدا من كتابة القصة لأستريح ! ..

ورحت أكتب الساعات الطوال وأنا مستغرق فيما أكتب كل الاستغراق ، حشدت الحوادث حشدا وجعلت بطل قصتى قادرا على كل شىء ، يقتحم الأخطار وينتصر ، ويغزو القلوب وينتصر ، ويغنى بنفس المهارة التى يخوض بها الحرب ، ويلعب بالآلات الموسيقية لعبه بالرماح ، وكانت مادة وحيى روايات المغامرة التى نشاهدها على الشاشة .

وانقضى عشرون يوما وأنا فى مكتبى أكتب لا أقابل احدا ، حتى السينما التى أحبها بعد بينى وبينها المزار ، وقرب منتصف ليلة من ليالى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ انتهيت من كتابة آخر كلمة فى قصتى الأولى « أحمس بطل الاستقلال » !

كانت الأيام والليالى التى امضيها فى الكتابة من أمتع أيام

حياتى ، فقد كنت اعيش فى عالم وردى من نسج خيالى . فلما انتهت الكتابة وافقت من الحلم اللذيذ ، بدات فكرة نشر الرواية تؤرقنى وتعكر صفو حياتى !

لم أكن ممن يجرون وراء الخيال ، فلم افكر مرة فى عرض الرواية على دار من دور النشر ، لأننى وجدت أن الكتب التى تصدرها هى لكبار الكتاب الذين رسخت اقدامهم فى سوق الأدب ولم أجد من بينها كتابا واحدا يحمل اسما لمغمور من أمثالى ليكون ذلك حافزا لى على الاقدام ، فجعلت اقلب الراى لعلنى اهتدى الى الطريق الذى يقودنى الى نشر الرواية دون أن ارتطم بصخرة الناشرين .

وقرأت فى الصحف أن روايتى « رادوبيس » لنجيب محفوظ و « سلامة القس » لعلى أحمد باكثير قد فازتا بجائزة السيدة قوت القلوب الأدبية ، وترقبت صدور هاتين الروايتين لأقراهما ولكن طال ترقبى ، ثم ظهرت رواية « سلامة القس » مسلسلة فى مجلة الثقافة ، ولم تر « رادوبيس » النور . ونشرت الصحف أن رواية « ملك من شعاع » لعادل كامل و « كفاح طيبة » لنجيب محفوظ و « واسلاماه » لعلى أحمد باكثير و « عودة القافلة » ليوسف جوهر و « زينات » لحسين عفيف قد فازت بجائزة وزارة المعارف فى المسابقة التى أشرف عليها المجمع . وحسبت أن هذه الروايات التى توجتها الدولة سيقبل عليها الناشرون وان هى الا شهور حتى تأخذ مكانها بين الكتب التى تموج بها المكتبات . ولكن خاب ظنى فلم ينشر من هذه الروايات الا « زينات » ، أما القصص الأخرى فقد قبعت فى ذلة فى مكاتب مؤلفيها !

واتضح لى اننى لست وحدى الذى تؤرقه فكرة نشر قصته ،

وتبتت فى رأسى فكرة أن يتكتل الذين لا يجدون الناشر الذى يقوم بنشر آثارهم ، وأن يتعاونوا على تقديم أنتاجهم الى الجمهور كأنما لميكن يكفينى أن أحمل عبء نفسى فرحت أفكر فى حمل عبء الآخرين ، وكأية مصادفة من مصادفات الروايات المفتعلة تقابلت أنا ونجيب محفوظ .

كنت من طلبة فؤاد الأول الثانوية وكان نجيب طالبا فى نفس المدرسة ، وكنت ضمن فريق كرة القدم بها وكان نجيب مغرما بالكرة ، وكنت من سكان العباسية وكان نجيب من سكانها ، وكان أصدقائى أصدقاءه ومع ذلك لم نتقابل أبدا ، وحدث أن توفيت قريبة أحد أصدقائى فذهبت لأسير فى الجنازة ، وبينما نحن فى طريقنا الى المقابر قام صديقى بتعريفى بنجيب ، وان هى الا لحظة حتى نسينا الجنازة وجرفنا تيار الأدب فخضنا فى أحاديث فتحت أمام عينى أبواب الأمل ، وإن كان كل ما حولى يوحى بالمـوت والعدم .

وصلنا الى المدفن والشمس تغيب ، وقد لف المكان ظلام زاد المشهد قتامة ورهبة ، وارتفعت أصوات الناس والمرحومة تدلى فى حفرتها ، فابتعدت أنا ونجيب ورحنا نستأنف حديثنا ، وما قبرت المرحومة التى لم نكن نعرف عنها أكثر من انها قريبة لصديقنا حتى كانت فكرة انشاء دار للنشر قد ولدت فى أعماقى .. ولدت الفكرة وما أيسر ولادة الأفكار وما أعسر اخراجها الى عالم النور لمن كان مثلى لا يملك اية أداة من أدوات التنفيذ . ومنذ ذلك اليـوم أصبحنا نلتقى أنا ونجيب محفوظ فى قهوة الفيشاوى وفى قهوة عرابى فى ميدان الحسينية وصرنا لا نفترق لا حديث لنا الا حديث الأدب ، نعيش على أمل واحد ان تعرف كتبنا رفوف المكاتب ، فما كنا نطمع فى أن تحتل مكانا فى الواجهات الزجاجيـة التى

خصصت لكبار الكتاب المحظوظين . وعرفت ان نجيب دار بقصصه الفائزة بجوائز الدولة على دور النشر فاعتذرت له لأنه ليس من مشاهير الكتاب ، كأنما قد ولد هؤلاء وهم من المشاهير ، فزاد ذلك في تصميمي على انشاء دار للنشر هدفها نشر آثار المغمورين .

وقام بعض شباب الموظفين من خريجي الجامعة بتأسيس « اتحاد خريجي الجامعة » للمطالبة بالانصاف والدرجات والعلاوات ، وكان أغلب القائمين بهذه الحركة من زملائي في الدراسة وفي الوظيفة ، فسألوني ان انضم اليهم فقبلت لا طمعا في درجة ولا رغبة في علاوة ، بل حسبت انني بمعاونة هؤلاء الشبان المثقفين قد استطيع تحقيق الفكرة التي أصبحت اعيش لها .

حضرت اجتماعاتهم على الرغم مني فأنا اضيق بالاجتماعات العامة وتتلاشى شخصيتي فلا استطيع ان اصيح كما يصيحون أو أعلن رايي في صوت جهوري وانا اضرب المنضدة بقبضتي ، لقد اعتدت ان أفكر في صمت وان انفذ افكاري في هدوء دون صخب أو ضجة ، انني أعرف نفسي خائبا اذا ما وضعت في لجنة أو وقفت أمام جماعة ، أما اذا ما ترك لي امر شيء وحدي فانني أتفانى فيه .

ودارت المناقشات حول الدرجات وكتبت المذكرات ، وترادفت المقابلات ، وفي وسط هذا الصخب تقدمت على استحياء اقترح أن يكون هدف الاتحاد أسمى من الدرجات والعلاوات فعليه أن يهتم بالفنون وأن يأخذ بيدها ، واقترحت تكوين شعبة للأدب هدفها نشر ثمرات قرائح الشباب المتوثب الذي سيقف في سبيله الجمود .

ولم تجد الفكرة ترحيبا وقيل في أدب انها سابقة لأوانها ، ولكني لم يدب اليأس في قلبي فقد طفقت اقنع كلا من أصدقائي على

حذة ، ولما كنت أثيرا عندهم فقد قبلوا مشكورين تأليف لجنة لقراءة الكتب المقترح نشرها اكراما لى .

وقرأت اللجنة قصتى ، وقابلنى بعض أعضائها وناقشونى على اعتبار أنها كتاب تاريخ ! وضقت كعهدى بالمناقشات وطول الاجراءات ومستوة الطلبات ، حتى استقر رأيى على أن أعتمد على نفسى ، وعلى أن أجازف بكل ما أملك وليكن ما يـــكون ، ولكن واحسرتاه لم أكن أملك ما أجازف به .

وذهبت الى أخى سعيد صاحب مكتبة مصر وخريج كلية الآداب من الجامعة المصرية ، وعرضت عليه المشروع ولكنه لم يؤمن به ، كان يرى أن سوق الأدب نافقة ، وأن من الخير له أن يركز جهوده فى كتب المدارس ، من حساب ومحفوظات ونصوص ، فانسحبت مقهورا ، ولكنى لم استسلم ولم يتزعزع ايمانى وهو كل سلاحى الذى صممت على أن اقهر به ما يعترض سبيلى من صعاب وعراقيل .

ولاحظت زوجى كثرة شرودى فاستفسرت منى عما يشغلنى عن كل ما حولى ، وكانت ــ والحق يقال ــ أشباح الشك تتراقص فى سؤالها ، فلما أنبأتها بما يحتل تفكيرى أشرق وجهها اطمئنانا ، وحسبت أن كل شىء قد انتهى ، واذا بى أفاجأ فى العصر بجنيهات توضع فى يدى . باعت زوجتى أساورها لأحقق حلمى .

وقدمت القصة للمطبعة واشرفت على جمع كل حرف فيها ، ولما تم طبعها ودفعت بها الى السوق ، انقبضت ، فقد اهتديت اخيرا الى انه لم يكن جديرا بى ان ابدأ حياتى الأدبية بمثل هذه الرواية ، وضقت بالقصة ، وامعنت الفكر فيما افعل لأتخلص منها فقر رأيى على ان اجمع الرواية من السوق وأن أعدمها ، ولكن

جاء الفرج من حيث لا أدرى . قررت وزارة المعارف شراء ٥٠٠ نسخة منها فأرضانى هذا حل الرضا فلن أخسر ثمن النسخ ولن يعرف أحد عن الرواية شيئا . ستبتلعها أرفف مكتبات المدارس ، وستستمر « لجنة النشر للجامعيين » التى أسستها بثمن أساور زوجتى فى طريقها ، ممهدة السبيل لكتاب من الشبان قادرين على أن يحملوا عن شيوخهم الشعلة المقدسة .

« ٣ »

بدأنا نستعد لطبع رواية « رادوبيس » أول غانية فى التاريخ ، وأول قصة لنجيب محفوظ نالت جائزة ، ولا اقول أول قصة له ، فقد سبقتها قصة « عبث الأقدار » التى نشرها سلامة موسى فيما كان يصدر من كتب ملحقة بمجلته .

كنا فى شهر يونية من عام ١٩٤٢ ، وكانت أسعار الورق خيالية ، ولم نكن نملك ما نشترى به ورقا يكفي لطبع الرواية ، فاعتمدنا على مكتبة مصر فى تدبير أمر الورق !

لم نفكر فى أن نولى وجوهنا قبل وزارة التموين فقد كنا واثقين أن الوزارة لا تصرف الورق الا للعمالقة والمحاسيب والأصهار ، ولم نكن ـ من سوء حظنا ـ فى أى عهد من العهود من العمالقة ولا من المحاسيب والأصهار ، فقد نشأنا فى أسرة كلها تجار ، بعيدة عن الحكم والسادة المتصرفين فى أقدار الناس !

وراحت المكتبة تبحث عن الورق ، فعز عليها أن تعثر على القصاصات المتخلفة من الصحف المتحكمة فى سوق الورق ، وأخيرا اهتدت الى ورق قد انتشل من البحر بعد أن غرقت السفينة التى كانت تحمله فاشترته .

لم يكن الورق مصقولا يصلح للطبع ، فجىء « بمكوجية » ليبسطوا ما به من تثلمات ، وحتى بعد أن تم كيه اتضح أنه لابد

من قطعه قطعا صغيرة لا تكفى القطعة الا لطبع صفحتين اثنتين ، فلم يكن أمامنا الا أن نفعل ذلك .

ودارت « ماكينة البدال » تطبع صفحتين صفحتين ، وانتهت مشكلة الورق لتقوم فى وجوهنا مشكلة أخرى ظلت كالسيف المسلط على رقابنا ألا وهى مشكلة الرقابة !

كانت القصة تدور حول ملك يعشق راقصة ويهيم بها حبا حتى ينسى فى غمرة حبه شعبه ، فيثور وزيره عليه ويؤلب الشعب ضده ، وتنتهى القصة بنجاح ثورة الشعب !

كنا نقدم الى الرقابة ما نقوم بجمعه لتوافق عليه قبل طبعه ، فاذا تمت الموافقة على جزء طبعناه ، فماذا يحدث لو أن الرقابة قررت عدم التصريح بالقصة اذا ما رأت أن فى ختامها تحبيذا للثورة على الملكية !!

كان معنى ذلك بالنسبة لنا أن تتوقف « لجنة النشر الجامعيين » عن السير فى طريقها ، وأن تقتل كل آمالنا الجياشة فى صدورنا ، وأن تعود كتبنا الى أدراج المكاتب بعد أن عرفت طريقها الى المكتبات ، فرحنا نرقب « الرقيب » وتأشيراته على ما يرسل اليه من أصول الرواية ، ونحن فى قلق دائم وخرف ثقيل !

وجاءت اللحظة الفاصلة ، واذا بالفصول الأخيرة تتعثر فى الرقابة واذا بعامل المطبعة يعود يوما ليقول ان الرقيب يرى تغيير ختام الرواية لأنها نصور أن فى الامكان نجاح ثورة الشعب على الملكية . فانقبض صدرى ولكن لم يدب اليأس الى قلبى وقررت أن أذهب لمقابلة الرقيب .

انني خجل من مقابلة من لا أعرفه ، ويضيق صدرى اذا ذهبت الى موظف فى مكتبه . وبالرغم من ذلك اقتحمت عرين الرقيب ،

وحاولت جاهدا أن أقنعه أن في تغيير ختام القصة اعتداء على التاريخ ، وظللت به حتى صدق على الطبع وأنا مقتنع في قرارة نفسي أن القصة كلها لا تمت الى التاريخ بسبب ! .. ومما يسر مهمتي — والحق يقال — أن فضائح الملك لم تكن قد فاضت في ذلك الوقت ، وأن علاقته بالراقصات لم تلكها الألسن ، ولو كان قد عرف عنه بعض ما عرف بعد ذلك لما رأت قصة « رادوبيس » النور . وكان من المقرر على لجنتنا أن تموت في شبابها وهي تضع ابنا جميلا ، ولكنه ليس أجمل أبنائها ، ولكن الله سلم !

وتم طبع القصة ، وجاء نجيب محفوظ الى المكتبة وفي جعبته قائمة بأسماء جهابذة الأدب الذين سيهدي اليهم قصته ، وجلس يتفنن في الاهداء ، ويحسن خطه وهو بادي البشر ، وانها لأجمل لحظة في حياة الأديب الناشيء تلك التي يجلس فيها يخط على الصفحة الأولى أسماء العمالقة الذين يرفع اليهم جهد الليالي والأيام !

وجاءتني رسالة رقيقة من الأستاذ تيمور يثني فيها على قصتي التي أستقر رأيي على أن أبرأ منها ويدعوني الى مقابلته في محل « الجمال » فأثلج صدري ، واخذت أنتظر موعد المقابلة وأنا مغتبط . وكان يشوب هذه الغبطة بعض القلق فأنا لم أشاهد الأستاذ تيمور من قبل وأن كنت قد قرأت كل كتبه ، ولا أعرف عن « الجمال » الا أنه ذلك المحل الذي يجلس على افريزه توفيق الحكيم ، وعلى ذكر توفيق الحكيم و « الجمال » أقول اننا كنا نتندر بجلسة توفيق الدائمة هناك وفي يده عصاه ، فنذكر أن عمال المحل يضعون توفيق في مكانه في الصباح عندما يقومون بصف المناضد والكراسي ، ويدخلونه آخر الليل داخل المحل اذا ما قاموا بجمع الأثاث !

ووافى الميعاد وذهبت الى محل الجمال وسألت عن الأستاذ تيمور ، فقادونى الى ركن هادىء جلس فيـــه الأســـتاذ وحوله مريدوه ، فتقدمت على استحياء ، وسرعان ما ذاب خجلى فقد ردنى الى طبعى اقبال تيمور وترحيبه بى .

وتشعب بنا الحديث ، وطلبت من تيمور معاونته لنا فرحب كل الترحيب ووعدنى بمساهمه معنا بمسرحيته « قنابل » .

وخرجت من عنده وأنا مسرور ، وفى الطريق داعبتنى فكره طالما راودت خيالى ، لماذا لا أستعين بالمازنى ؟ ! اننى أقدر الرجل وأحب أدبه ، ولكن هل يكفى حبى له أن أطلب منه أن يشترك معنا فى مشروعنا ؟ ! . اننى لا أملك ما أدفعه للمازنى لأطلب منه أن يكتب لنا قصة ، ومن أنا حتى أطلب من المازنى أن يكتب لنا ؟ ووأدت الفكرة على الرغم منى ، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه .

ودخلت مكتبى وحررت رسالة للأستاذ باكثير مدرس اللغة الانجليزية بمدرسة الرشاد الثانوية بالمنصورة ، لم يسبق لى معرفة باكثير ومع ذلك كتبت اليه أدعوه أن يشترك معنا .

وجاءنى رد باكثير يرحب بالفكرة ويحدد موعدا لزيارتى فى منزلى ، وفى الميعاد المحدد وقفت فى الشرفة أرصد مقدمه ، كنت كلما رأيت رجلا ضخما حسبته باكثير فأتأهب لاستقباله ، ولكن الرجل كان يمر بالمنزل دون أن يعرج فأعود للتطلع والتطوع بمنح شخصية باكثير لكل قادم طويل عريض .

وأخيرا سمعت طرقا خفيفا على باب مكتبى ، واذا بالأستاذ باكثير أمامى ، واذا به يختلف عن كل الصور التى تبرع بهـا خيالى !

وجلسنا نتحادث فأحسست أن روحى تنجذب اليه ، وشعرت بعد لحظات قصار أننى أمام صديق أعرفه من سنين ، اتد تفتح له

قلبى منذ اللحظة الأولى التى عرفته فيها، وتيقنت اننى امام انسان يمكن أن يمنحه المرء كل ثقته وهو مرتاح الضمير .

وقدم الىّ قصته « سلامة القس » وسألته عما يطلبه فاذا به يستنكر سؤالى ويسارع ليقول انه لا يريد مالا ،وكل ما يطلبه هو بعض النسخ لأصدقائه .

وذهبت ذات يوم الى « الجمال » لمقابلة تيمور وكان ذهابى فى الموعد المضروب بيننا ، فجلست الى نضد قريب من ذلك النضد الجالس اليه — أو الموضوع عنده بمعنى أصح — الأستاذ توفيق الحكيم ، وجعلت ارقب الأستاذ من بعيد .

وجاء بائع الكتب المتجول ووضع كتبه أمام الأستاذ ، فجعل يتناول بعضها ويقلبها فى يده ، ووقعت فى يده نسخة من « رادوبيس » فجعل يقلبها ويتعجب ، وقال انه لا يصدق ان مثل هذه الرواية يمكن أن تباع بعشرة قروش ، وبدأ يحسب ما فيها من ورق .. ولو علم الأستاذ يومها أن الورق الذى أعجبه ان هو الا قصاصات ورق سبنل عملت فيه المكواة عملها ، وأن مؤلفها لم يقبض مليما ، وأن اللجنة التى نشرتها لن تكسب منها قرشا اذا ما نفدت جميع نسخها ، لزال أو لزاد عجبه ، لست أدرى !!

وترادفت دعوات تيمور ، ودعانا ذات يوم من أيام رمضان — أنا ونجيب لنفطر معه فى محل « على حسن » .. فذهبنا واذا بأصدقاء تيمور حوله ، البعض يقص بعض الذكريات ، والأستاذ شوقى أمين يروى نتفا أدبية فكهة ، وأطلق مدفع الافطار وقمنا الى الطعام ، واذا بالأستاذ زكى طليمات قد أقبل ، واذا به يعتذر بأنه شبعان ، ولكن ما أن مضت دقيقة واحدة حتى خلع الأستاذ

طليمات طاقم أسنانه وراح يلتهم ما أمامه ، ولفت ذلك نظر نجيب فقال له مداعبا : أنت مدخل لا مخرج !!

وفى ذات يوم ، ذهبت أنا ونجيب الى احدى المكتبات لشراء بعض الكتب ، فلفت نظرنا وجود نسخة من قصة « رادوبيس » فأخذناها فرحين ، وما أن فتحنا غلافها حتى علت الدهشة الوجوه : كانت النسخة من النسخ التى أهداها نجيب الى أحد العمالقة وكل ما يرجوه أن يتفضل العبقرى الكبير بقراءتها ، ولم يدر بخلده أبدا أنه سيجدها يوما بين الكتب المعروضة للبيع .

ولم نجد تفسيرا معقولا لوجود النسخة المهداة فى مكتبة عامة فدفعنا الفضول لسؤال صاحب المكتبة ، فاذا به يقرر فى بساطة أن العبقرى الكبير قد اعتاد أن يبدل الكتب التى تهدى اليه بكتب هو فى حاجة اليها ، ومنذ ذلك اليوم تعلمت الا أهدى العباقرة كتبا فقد قر فى ضميرى أن الكتاب الذى يهدى لا يقرأ !! ..

« ح »

يا طالما سيطرت على فكرة تقديم قصة للمازنى فى سلسلة « لجنة النشر للجامعيين » ، كانت تداعبنى كلما قرأت له أقصوصة فى مجلة أو مقالا فى جريدة ، وما كان أكثر ما ينشر له فى تلك الأيام ، وكان يهيض جناح خيالى يقينى أننى لا أملك ما أدفعه للمازنى ثمن قصة ، ولو كنت قادرا لذهبت اليه ودفعت له فوق ما يطلب . الأحقق حلما كان يتخايل لى كلما فكرت فى غاية ما أتمناه للجنة ، التى بدأت تشق طريقها وتنساب فى موكب الحياة !!

وأوشكت سنة ١٩٤٤ على الانتهاء ، فرحت أفكر فى القصة الجديدة بأن أستفتح بها العام الجديد ، واذا بفكرة تقديم قصة للمازنى تعود لمراودتى وتحتل كل تفكيرى . فلم أجد مفرا من أن أتقدم للمازنى بعرض خيالى ، لأقنع نفسى أننى فعلت غاية ما فى وسعى ، ولأستريح من تلك الخواطر التى كانت تطفو على سطح ذهنى حاجبة كل ما عداها من أفكار .

وجلست الى مكتبى أخط رسالة التمس منه فيها أن يتفضل بكتابة قصة جديدة للجنة تنشر فى أول العام الجديد ، على أن نسترد تكاليف الطبع وثمن الورق والدعاية ، وأن يترك له كل ما تحققه القصة من أرباح ، فغاية ما نبغيه أن يشرفنا بقصة من قصصه ، أما الربح المادى فليس هدفا من أهدافنا ولم يخطر لنا على بال .

كنت أكتب الرسالة والدماء تتدفق حارة فى عروقى ، وموجة

من الايمان تغمرنى . فكانت كل كلمة من كلمات الرسالة توحي بصدق الشعور والاخلاص ، ولكن ما أن وضعت الرسالة فى صندوق البريد حتى أحسست ندما ، وفطنت الى أن رسالتى لن تنال الا ما تستحق من زراية واستخفاف !

انني اعرف ذاتى ، قاسيا على نفسى ، لذلك لا اقدم على عمل قد يكون نتيجته جرح شعورى الا بعد روية وتفكير ، فكيف أقدمت على بعث تلك الرسالة ، وبدأت أحاسب نفسى حتى أصبحت نهبا لتأنيب داخلى ، فكنت أتكمش ، ويتفصد العرق من جبينى كلما فكرت فيما فعلت .

وتقضت الأيام وأنا فى قلق ، ثم تلقيت رد المازنى فأخذت أقرؤه خافق القلب . انه يرحب بالاشتراك معنا ولكنه يبدى دهشته من الشروط العجيبة التى عرضتها عليه ، فلم يسبق أن تقدم اليه أحد بها . ثم ذكر أن دور النشر تحدد نسبة مئوية للمؤلف من قيمة بيع النسخ المطبوعة ، وطلب منى فى ختام الرسالة أن أقابله صباح يوم الجمعة فى منزله لنتدارس الموضوع لأن المشافهة أجدى من الرسائل فى مثل هذه الأمور .

وأنكر ما جاء فى رده علىّ من أننا لا نبغى ربحا ، فقد قرر أن « من لا ينشد الربح يخشى أن يمنى بخسارة » وقد كان صادقا فى قراره ، فقد قاسينا من الكتب التى لم تغط تكاليفها ، حتى انها عوقت نشاطنا بل كادت تكتم أنفاسنا !..

وجاء يوم الجمعة فأحسست ذلك الاضطراب الذى يحسه المقدم على مخاطرة ، كنت أعرف المازنى ، وكنت أركب سيارته كلما وجدنى على محطة الترام وأنا فى طريقى الى الكلية ، وقد كتب مقالا ضافيا عن كتاب لى ، ومع ذلك تهيبت المقابلة ..

وصعدت فى درج منزله متمهلا لأجمع شتات نفسى ، ثم وضعت اصبعى على الجرس فأحسست رنينه فى جوفى ، وفتح الباب فاذا بخادم شعثاء تطل برأسها ثم تتركنى وتختفى دون أن تسألنى عمن أكون وما أريد ، وسمعت صرير باب فالتفت فاذا بالباب الذى عن يمينى يفتح ، واذا بالخادم تدعونى للدخول . ودخلت وأغلقت الباب خلفى ، وانسلت الخادم وأغلقت باب الغرفة خلفها ، وبقيت وحدى .

درت بعينى فى المكان قبل ان اجلس ، فاذا بكتب تغطى المكتب والأرائك ، والمقاعد ، فتقدمت على حذر حتى لا ارتطم بالكتب التى صفت على الأرض ، وازحت بعض الكتب عن مقعد قريب فى حرص ثم جلست .

ومرت دقائق فتح الباب بعدها ودخل المازنى يرتدى جلبابا فوقه عباءة من وبر الجمل ، وتقدم الى وصافحنى ، واعتذر فى بساطة عن الكتب المبعثرة ثم جلس ، وقد لفت نظرى انه كان يضم العباءه بيديه ، بينما انفرج جلبابه عن صدره العارى .

وبدأ يتحدث فانقشع اضطرابى واصخت سمعى وتعلقت عينى به ، فهو محدث بارع ، واننى اقرر بعد أن عرفت جميع كتابنا الكبار أن المازنى كان البقهم حديثا ، واكثرهم تدفقا ، حتى انك لا تحس فرقا كبيرا بين كتابته وحديثه ، وما أوسع الهوة بين احاديث كثير من كبار كتابنا وكتابتهم !!

ومر الوقت دون أن أحس به ، وحانت منى التفاتة الى ساعتى فاذا بها تؤكد لى اننا امضينا ساعتين فى الحديث ، فاستأذنت وانصرفت وأنا أفكر فيما دار بيننا ، فأفطن الى أننى قد اتفقت مع

المازنى على أن يكتب لى قصة « ثلاثة رجال وامرأة » على أن أدفع له مبلغا معلوما ، وما كنت أملك من ذلك المبلغ قرشا .

ولم تكدرنى تلك الحقيقة فقد كنت سعيدا بالمقابلة ، فانطلقت مسرورا الى كازينو بديعة لأقابل صديقى نجيب ، فقد اتخذنا الكازينو مكانا مختارا لنا نجتمع فيه صباح يوم الجمعة من كل أسبوع بعد أن تركنا قهوة الفيشاوى لبعدها عن كثير ممن أصبحوا يواظبون على حضور اجتماعاتنا .

وبلغت الكازينو فاذا بنجيب وعادل كامل والشيخ كامل عجلان وآخرين ممن أعرفهم يتسامرون ، وقد جلس معهم شاب لم أعرفه ، فعرفنى به نجيب ... كان صلاح ذهنى .

كان يضع على رأسه طربوشا أحمر قصـــيرا ، وكان مشرق الوجه دائم الابتسام يروى نكات بارعة ، وقد لفت نظرى انه قبل رواية أى نكتة يقول « هذه النكتة سمعتها من سليمان نجيب » أو « هذه النكتة رويتها لسليمان نجيب » فأحسست أن سليمان نجيب شئ هام فى حياته .

كانت اجتماعاتنا فى كازينو بديعة فرصة طيبة يظهر فيها كل منا مقدار ثقافته ، وقد لاحظت أن أحد زملائنا كان حريصا على أن يطلع علينا فى كل اجتماع برأى جديد ، وكثيرا ما كانت آراؤه يعارض بعضها بعضا ، فأيقنت أنه يذاكر ليلة الجمعة فى كتاب ما ، حتى اذا ما اجتمع بنا ألقى على مسامعنا خلاصة ما قرأ دون أن يكون لنفسه رأيا ، ليدلل على سعة اطلاعه وغزارة مادته ، وليعلن تفوقه على الحاضرين .

واننى أقرر صادقا أن هذه الحلقات كان لها أكبر الأثر فى تكويننا وفى اختيار بعض مطالعاتنا ، على الرغم مما كان يسودها

أحيانا من صخب وتنافر فى الاتجاهات والأمزجة كانت تصل أحيانا الى حد « العكننة » .

وانفض اجتماعنا الأسبوعى ، وبقيت وحدى طول الأسبوع افكر فى المبلغ الذى اتفقت مع المازنى على دفعة ، وفى ذات ليلة جاء الفرج على غير انتظار .

كنا نجتمع فى « سلاملك » البيت أنا واخوتى كل ليلة ننتظر أصدقائنا الذين كانوا يمضون عندنا الأمسية ، وقبل ان يصل أحد منهم راح أخى الاكبر يتحدث عن قسمة فى الميراث لم افهم منها الا أننى سأقبض مبلغا عن بعض فروق تقدير الحصص ، وكان هذا يكفى ما يستحقه المازنى ، فوافقت على الفكرة فورا الانام هانئا مغتبطا .

وفى البكرة تسلمت المبلغ ، وقبل ان تبلغ الساعة الثامنة صباحا كنت أطرق باب المازنى ، وفتحت لى الخادم الشمعثاء ثم تركتنى وفتحت باب المكتب ، فدخلت ثابت الخطو . وان هى الا لحظات حتى كان المازنى امامى وانا أدفع له المبلغ .

حاول أن يكتب ايصالا ولكنى رفضت ، فسألنى كيف ادفع مثل هذا المبلغ دون ايصال أو حتى دون تسلم أصول القصة على الأقل فلم أجبه الا بالاستئذان فى الانصراف . ومنذ ذلك اليوم توطدت بيننا صداقة متينة . وكتب لى أقصوصتين فى مجموعة « أقاصيص » ورفض رفضا باتا أن يتقاضى ثمنهما .

وعلى ذكر هذه الحادثة أؤكد اننى طبعت اكثر من سبعين كتابا دون عقد أو تسلم ايصالات ، وقد حدث مرة واحدة ان اصر احد المؤلفين على كتابة عقد فكتبت له العقد من صورة واحدة وسلمتها له ، وعند الحساب ذكر شروطا تخالف نصوص العقد وادعى أن

الصورة التى عنده فقدت ، ودفعت له ما أدعى . وكانت المرة الأولى والأخيرة التى تعاملت فيها معه .

واكب المازنى على كتابة قصة « ثلاثة رجال وامرأة » وراح يسلمنى أصول ما يكتب وأنا أدفع به الى المطبعة ، حتى اذا ما سلمنى أصول الفصل الأخير ذهب معى ليصحح التجارب .

واتضح أن القصة قصيرة وقد حددنا عشرين قرشا ثمنا لها ، وكأنما ضايقه صغر القصة فطلب ورقا ووقف يكتب على نضد جمع الحروف وقد أسند ساقه المهيضة على العارضة السفلى الواصلة بين رجلى النضد الأماميتين ، ولم يغادر مكانه الا وقد انتهى من كتابة فصل كامل ودفع به الى المطبعة .

وقرأت ذلك الفصل بعد جمعه فأحسست أسى ، كانت الفصول الأولى قوية رصينة تمتاز بنضج الفكرة ، واذا بالفصل الأخير يقوض الصرح الجميل ويذيب جهد الليالى ، ولعنت فى نفسى القارىء فارغ العين الذى يزن الكتاب بيده قبل أن يشتريه .

« ٥ »

جاءت سنة ١٩٤٤ بمتاعبها ، فارتفعت نفقات الطباعة واختفى الورق من الأسواق حتى ان قصاصات ورق الصحف كانت تباع فى السوق السوداء . واضطرت بعض دور النشر الى أن تتوقف عن اصدار كتبها ، ولاح أن المد الأدبى الذى صاحب سنين الحرب بلغ نهايته وأن الجزر قد بدأ .

وكان على لجنة النشر للجامعيين أن تموت فى ريعان شبابها ، وكم من شباب ذوى فى سنين الحرب قبل أن يكتمل ازدهاره ، أو أن يتنفس صناعيا حتى تمر الأزمة ، فوطنت النفس على أن أبذل غاية ما فى وسعى لأبقى عليها ، فأطلقت لخيالى العنان ورحت أفكر فيما أفعله لأقلل تكاليف الكتب الى ادنى حد ، حتى تغطى الكميات الضئيلة التى نطبعها النفقات المتزايدة .

وهدانى فكرى الى طبع مجموعة « أقاصيص » لكتاب الأقصوصة فى مصر على أن يهدى كل منهم اقصوصة الى اللجنة ، وحدثت صديقى نجيب محفوظ عن الفكرة فرحب بها وقدم الى أقصوصة ، وقدم كل من المازنى وتيمور وسعيد عبده وصلاح ذهنى أقصوصة ، ثم طلبت من صديقى عادل كامل المساهمة فى المجموعة .

كان عادل يعمل محاميا وكان كاتبا قصصيا كتب مسرحية « ويك عنتر » وبعض أقاصيص ، وفازت قصته « ملك من شعاع » بجائزة وزارة المعارف ، ولكن لم يكن فى حياته ممن يجرون وراء

الخيال ، كان واقعيا لذلك قرر منذ البداية أن يتفرغ للأدب اذا كان الأدب وحده يضمن له حياة رغدة ، والا هجر الأدب وأوهامه وانغمس في المحاماة ..

عرضت عليه أن أنشر له « ملك من شعاع » وأن أدفع له ما أدفعه للذين يشتركون معنا ولكنه رفض وطلب تلميحا مبلغا لم يكن مغاليا فيه ، إلا أن النسخ التى كانت توزع فى ذلك الوقت لم تكن لتغطى ذلك المبلغ ، لذلك سكت ولم ألح فى الطلب ، وان كنت أتمنى أن تتاح لى فرصة تقديم جميع أدباء الشباب .

شرحت له الدافع الذى جعلنى أفكر فى نشر مجموعة « أقاصيص » وقد هيأت نفسى للرفض ، ولكنه لم يرفض الفكرة بل قدم الى أقصوصتين .

ودارت ماكينة الطباعة وصدرت المجموعة تحمل أسماء المازنى وتيمور والمصرى وسعيد عبده وصلاح ذهنى وعادل كامل ونجيب محفوظ والسحار .وكانت هذه أول مرة تكتب فيها أسماؤنا مع أسماء أساطين القصة فى مصر !

وتسللت المجموعة الى الأسواق وأشارت الصحف اليها فى صفحاتها الأدبية .. ولكن ناقدا وقف طويلا يحلل أقاصيص المجموعة ، فراح يتحدث عن أسلوب المازنى « المتدفق فى استرساله ، القوى فى بلاغته ورصانته » وأسهب فى وصف فن تيمور حتى قال : « يجد المطالع ما تعود أن يلقاه فى أقاصيص تيمور : مزيج متوازن بين الواقعية والوجدانية فى الموضوع ، ودراية بارعة فى بناء الأقصوصة وحبك حوادثها ، الى سلامة فى الأسلوب ووضوح فى أخلاق الأشخاص » ..

وقال فيما قال عن أقصوصة المصرى : « نجد صورة من الحياة

المصرية الطريفة ، على الطريقة التى عودنا الأستاذ المصرى عرضها ، معارضة بين الماضى والحاضر ، بين القديم والجديد ، بين الغرائز والتقاليد » .

وتحدث عن سعيد عبده وصلاح ذهنى محددا سمات كل منهما ، حتى وصل الى أقاصيص نجيب محفوظ وعادل كامل وانا من الأدباء الناشئين فقال : « اذا كان من الصعب الحكم على كاتب من خلال أقصوصة واحدة ، فاننا نلاحظ فيما طالعناه فى هذه المجموعة لهؤلاء الأدباء مواهب فنية فى التأليف القصصى ، ومقدرة على حسن البناء ونسيير الحوادث ووصف مختلف المشاعر والأحاسيس .. وانما ينقصها الكثير من العمق والاتساع » .

ينقصنا العمق والاتساع ، لقد ضايقنا ذلك كثيرا حتى اننى انا ونجيب محفوظ أخذنا نناقش ذلك ساعات طويلة ونعتب على الناقد اغداقه أجمل النعوت على كبار الكتاب ، ثم يرمينا بالضحالة والضيق لأننا فى زعمه أدباء ناشئون ! ..

ثرنا فى مجلستنا على الناقد ثورة عارمة ، ولو كنا ندرى ما ينتظرنا من بعض الشبان النقاد من ذوى الميول الخاصة فى الأدب بعد عشر ستين أو يزيد ، وبعد أن تكتمل ملامح أدبنا ، لأرسلنا الى الناقد رسائل شكر على انصافه !!

وقال الناقد فى ختام مقاله : « أما مجموعة أقاصيص » فقد أصابت الغاية التى رمت اليها لجنة النشر للجامعيين ، حيث ضمت فيها باقات متناثرة من أدب القصة المصرية ، وصورا شائقة لأقلام كتابها .

هذا ما قرره الناقد فى ثقة ، وانا أقول ان اللجنة لم تصب الغاية التى رمت اليها من نشر هذه المجموعة ، فقد نفدت جميع

النسخ ولم تغط مصاريف الطبع والنشر والاعلان ، على الرغم من أن جميع الكتاب قد قدموا أقاصيصهم هدية .

الأدب والسينما !

ونشرنا قصة « سلامة القس » لصديقى باكثير وكانت قد نشرت تباعا فى مجلة « الثقافة » فيسر ذلك أمر توزيعها — على عكس ما كنت أظن — وفى ذات يوم بلغنى أنها ستخرج فى السينما فسررت ، فقد كنت لجهلى بالسينما المصرية فى ذلك الوقت أن ذلك نصر للأدب .

لم أكن أقابل باكثير الا نادرا حين يأتى من المنصورة الى القاهرة ، وحدث أن التقينا مرة وتحدثنا عن سلامة والسينما فعلمت أنه باعها بقروش ، فلم يحزننى ذلك النبأ ،فما كانت المادة — فى ذلك الوقت على الأقل — هدفنا .

وظهرت « سلامة » على الشاشة الفضية وهرعت لمشاهدتها ، فاذا باسم المؤلف قد ضاع فى غمار السيل المتدفق من أسماء الممثلين والفنيين ، وترادفت حوادث الرواية فاذا بالعقلية السينمائية المصرية تشوه كل ما فى القصة من جمال .

خرجت من السينما منقبضا حتى اننى فكرت فى أن أكتبه مهاجما كل من عبث بالقصة ، ولكن بعض النقاد كفونى ذلك ، فعقدوا مقارنة بين القصة المطبوعة والقصة السينمائية وفضلوا القصة المطبوعة ، وكنت أحسب أن الأمر سيقف عند هذا الحد ، ولكن كتب أحد دعاة السينما — دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل — أن قصة سلامة وردت فى « الأغانى » ، وأن كاتبه

السيناريو استعان بالمراجع القديمة ، واستمر فى مغالطاته وفضح نفسه ، فقد اتضح من كتابته انه لم يقرأ القصة المطبوعة ، فلو انه فعل لتيقن أن الرواية السينمائية مستمدة منها ، وأن النهاية المفتعلة اماتها العقلية السينمائية الفاسدة .

وراحت الاذاعة تذيع اغانى سلامة ، ويعلن المذيع : « تسمعون الآن : أحب القس سلامة لعبد الرحمن القس » ولفت باكثير نظر الاذاعة الى أن القطعة من تأليفه ، فاختفى اسم عبد الرحمن القس ولم يذكر اسم المؤلف الحقيقى لأنه لا يزال حيا يرزق !

اللغة العامية وثورة الكبار :

يعشق أخى أحمد الزجل ويكتبه خفية كأنما يقترف اثما ، وقد حاول كتابة السيرة النبوية بالزجل ، وقطع فيها شوطا ثم توقف خشية أن يتهم بالأمية ! وعلى الرغم من تنكره للزجل فهو محب لمجالس الزجالين ، وقد جاءنى يوما يقص على نوادر شيخ الزجالين « حسين مظلوم رياض » ، ثم ختم حديثه بأن حسين قد كتب رباعيات الخيام بالزجل ، وأخذ يزين لى نشرها .

واجتمعنا يوم الجمعة فى كازينو بديعة كعادتنا ، وأقبل أخى وحسين مظلوم رياض وشاركنا مجلسنا ، وان هى الا لحظة حتى سيطر حسين على المجلس ، فهو محدث لبق يروى نوادر مجاذيب الحسين فى رشاقة ، ويخرج من جيبه بطاقات تحمل أسماء هؤلاء المجاذيب ، وقد نعتوا أنفسهم بصفات القواد والملوك والسلاطين ، وأصغى نجيب محفوظ اليه وقد تعلقت عيناه به ، ولا غرو فنجيب مفتون بحى الحسين ومجاذيبه !

وتحدثنا عن الرباعيات، وبدأ مظلوم يسمعنا رباعياته بعد ان اخبرنا انه اعتمد على ترجمة محمد السباعى :

نبه النــــايم على فــرش الأمــل
كم امــل فى الحلم تفســيره الاجل
فوز بكأس الصــفو دى الأيام دول
والحياة يومين ، سرور يوم وارتحال
بعد كأس العمــر . . . .

وما انتهت جلسة يوم الجمعة حتى كنا قد اتفقنا على طبع الرباعيات .

وطبعت الرباعيات وظهرت فى السوق ، وذهبت الى المطبعة لأشرف على طبع كتابى « بلال مؤذن الرسول » ، فاذا بى أجد الدكتور زكى مبارك هناك ، وما ان رآنى حتى ثار وراح يصيح فى وجهى : كيف تدعو الى الأمية وانت تحمل اسم الجامعيين ؟ كيف تسمح بنشر الزجل فى مطبوعات اللجنة ، لقد قوضت كل ما بنيته . وظل فى ثورته وأنا صامت .

وذهبت الى المكتبة فاذا ببعض أصدقائى من مدرسى اللغة العربية يعاتبوننى على نشر الرباعيات ، ولم أتأثر بثورة الدكتور ولا بعتاب أصدقائى ، ولكن حدث حادث جعلنى أنفض يدى من الزجل والزجالين .

اقبل حسين مظلوم ذات يوم علينا ونحن فى الكازينو ، فاردت أن اعرفه بأحد الجالسين فقلت :

ــ الأستاذ حسين مظلوم رياض ، مؤلف رباعيات الخيام بالزجل .

فاذا بحسين يقول مصححا :

ـــ لم أكتب الرباعيات بالزجل ، بل كتبتها باللغة العربية الدارجة »

وسكت وان أحسست مرارة ، وخاب أملى فى الزجل فلا خير فى فن يخجل منه أربابه .

انا والشيخ حسن البنا :

وتم طبع كتابى « بلال مؤذن الرسول » ، فذهبت الى الحلمية ودخلت على الشيخ حسن البنا وقدمت له نســخة من الكتاب واستأذنت فى الانصراف ، فاذا به يجذبنى من يدى ويستبقينى . واقبل على زواره هاشا باشا ، وبلباقة تخلص منهم ولم يبق فى الغرفة غيرنا .

والتفت الى وكرر الترحيب بى ، ثم قال لى : « الظاهر انك مغرم بالتاريخ الاسلامى ، فلماذا لا تشرف على اصدار سلسلة اسلامية معنا ؟ » لم أشعر بارتياح لا لأن الفكرة لا تعجبنى ، بل لانى بطبعى لا احب ان اتقيد بهيئة أو اتلقى توجيهات غيرى ، اننى احب أن أفكر فى طلاقة ، وان اعمل بوحى من نفسى ، فاذا تفتحت روحى للتاريخ الاسلامى كتبت فيه ، واذا خطرت لى اقصوصة كتبتها ، واذا احتلت رأسى أفكار رواية عكفت على تسجيلها فى شغف ، اننى اقرأ الأدب الألمانى والانجليزى والفرنسى والأمريكى والروسى ، لا فرق عندى بين ادب وأدب ما دمت أجد متعة روحية . اننى لا اصلح داعية لمذهب ، وما اكثر الأشياء التى لا اصلح لها .

وطلبت من فضيلته ان يمهلنى لأفكر ، واستأذنت وانصرفت ولم اعد .

« ٦ »

اعتدت أن أنام مبكرا لأستيقظ فى الفجر أقرأ وأكتب ، حتى اذا ما أشرفت الساعة على السابعة وأقبلت عربة الحكومة التى تقلنى الى محطة مطار المالطة الجوية حيث كنت اعمل مترجما بها ، تركت كل ما فى يدى وهرولت فى الدرج هابطا . ويا طالما قطع بوق السيارة حبل أفكارى ، وعكر على صفو حياتى ، فقد كنت أضطر فى أغلب الأحايين الى وضع القلم دون أن أتم الجملة التى أكتبها ، أو أوفى الاحساس الذى أنفعل به حقه من التعبير .

وكنت أقاسى الأمرين اذا ما عدت فى الليل لأستأنف ما بدأته فى الصباح ، فقد كنت أجهد ذهنى لأتذكر باقى الجملة التى لم تتم ، وأضنى روحى حتى يعود الانفعال الذى كنت أحسه ليحتل أقطار نفسى ، وتتلاشى شخصيتى الواعية وأذوب فى الجو الذى كنت أعيش فيه .

كنت أكتب من أوقات ينعم فيها زملائى بالنوم اللذيذ أو برعاية أبنائهم أو بالترويح عن نفوسهم ، وكنت والحق يقال أستشعر سعادة تغمرنى ما كان يعكرها الا ذلك الصوت الزاجر فى أعماقى الذى كان يتهمنى بالأنانية ، لأننى أهمل زوجتى وأولادى فى سبيل متعة نفسى . وأخذ ذلك الصوت فى الارتفاع حتى صاح بى يوما أننى أتعاطى الكتابة كما يتعاطى المدمنون المخدرات ليفروا من واقع الحياة الأليم ، ولكننى أعرضت عن صياحه وسرت فى طريقى وقد عولت على الا التفت للنباح ولو كان منبعثا من أغوارى .

وذات صباح دخلت مكتبي لأبدأ في كتابة قصة طويلة كنت قد استغرقت فيها حتى احتلت كل تفكيري ، ولم يبق أمامي الا أن أضع ما يزخر به ذهني على الورق ، ولكني ما أن أمسكت القلم في يدي حتى أشفقت على نفسي . فالقصـــة تروي حياة أسرة تموج بالشخصيات الكثيرة ، ليس لها بطل واحد يربطها من أولها الى آخرها ، ما كانت تعالج فكرة بعينها بل كانت تهدف الى تصوير الحياة كما هي ، وتعـــالج مشاكل الناس العادية المــألوفة ، لا أرهاصات ولا انفعالات عنيفة ، ولا مواقف مسرحية .

وزاد في رهبتي انني لم أقرأ في الأدب المصري قصة عولجت بالطريقة التي تداعب خيالي ، فالقصاصون المصريون الذين قرأت لهم يسلطون الأضواء على شخصية واحدة أو شخصيتين على الأكثر بينا تدور باقي الشخصيات في فلك الشخصية الرئيسية ، أما أنا فقد عزمت على أن أسلط الأضواء على جميع الشخصيات بالعدل ، فليس في الحياة بطل أو بطلة بل شخوص انسانية لكل منها دوره واهميته .

وقاومت خوفي وهممت بخط السطر الأول في قصتي ، وهو أشق خطوة في أي عمل أدبي ، واذا بنصيحة صديقي نجيب تطفو على سطح ذهني : « هذا النوع من القصص يحتاج الى تجربة ومران طويل . . انني أفضل أن تؤخر هذه القصة » . لم نختلف على طراز القصة فقد كنا نعلم أن تولستوي كتب قصة أسرة زاخرة بالشخصيات في روايته الخالدة « الحرب والســلام » ، وأن جولزويرذي كتب رواية « فورسيت ساجا » وهي تدور حول أسرة « فورسيت » وتروي قصة أجيال ، وقد رسم كل شخصياته دون أن يميز شخصية على أخرى .

واحسست اننى فى دوامة ، وماج فى أعماقى قلق وحيرة ، ورأيت أن انتشل نفسى مما أنا فية فتناولت كتابا وجعلت اقلب صفحاته . كان الكتاب « مروج الذهب » للمسعودى وكانت الصفحة التى اخذت فى قراءتها تقص ثورة أبى ذر الغفارى على معاوية فى الشام .

استهوانى الموضوع فاستغرقت فى القراءة ، وتلاشى قلقى وانتشت روحى ، ولم يخرجنى من نشوتى الا بوق السيارة التى جاءت تحملنى الى مقر عملى .

ونبتت فى رأسى فكرة ، لماذا لا أكتب قصة هذا الثائر الزاهد الذى هب فى وجه السلطان لما انحرف عن الجادة ، يصيح فى وجهه أن المال مال الله . وأخذت الفكرة تتضخم حتى عشت فيها ، وقر رأيى على أن أبدأ فى جمع المعلومات عن الصحابى الجليل الذى لم يكن يخشى فى الحق لومة لائم .

لم أكن أملك من المراجع العربية الا النذر اليسير ، فكنت أذهب عصر كل يوم الى دار الكتب أقرأ فى قاعتها المراجع الاسلامية ، وأدون فى كراسة كل ما يعيننى على رسم شخصية أبى ذر ولكنى لم أجد فى الكتب ما يشفى غليلى وما يعيننى على كتابة قصة الرجل وافية دون أن أستعين بخيالى ، وكدت أعرض عن الموضوع وأعود الى كتابة قصة الأسرة التى أشفقت على نفسى منها ، ولكن حدث ما لم يدر فى حسبانى .

خرجت من دار الكتب بعد الغروب ، وفيما أنا فى طريقى الى الترام قابلت صديقا سألنى عما كنت افعل . فأخبرته اننى أجمع ما يساعدنى على كتابة كتاب اسلامى ، وانى لم أجد فى المراجع التى قرأتها ما يروى ظمئى ، فعرض على الصديق ان اذهب معه

الى الحلمية لمقابلة الشيخ حسن البنا ، فهو حجة فى هـذه الأمور .

وانطلقت مع صديقى الى دار متواضعة ، وصـعدنا بعض درجات متداعية ، ثم دلفنا الى حجرة ليس بها الا مكتب بسيط وبعض كراسى قديمة . وتقدم صديقى من الجالس خلف المكتب وطلب منه مقابلة المرشد ، وما هى الا دقائق حتى أذن لنا بالدخول .
دلفنا الى حجرة المرشد فاذا بها لا تختلف عن الحجرة الأولى فى بساطتها . مكتب متواضع وقف خلفه حسن البنا فى جلباب أبيض عليه عباءة يمانية ، وبعض الأرائك والمقاعد القريبة من المكتب .

وصافحت الرجل وجلست ، فاقبل على هاشا باشا مرحبا ، وذكر صديقى ما جئنا من أجله ، فارتسمت على شفتى المرشد بسمة لم أدر مدلولها وان كان حديثه قد عبر عنها ، قال : « ومن تكتب عن أبى ذر ؟ ان ما اشتهر به أنه من رواة الحديث » . لم يفت ذلك فى عضدى بل أحسست دماء حارة تتدفق فى عروقى ، فقلت فى حماسة : سأكتب عن الاشتراكى الزاهد ، « وسأصدر الكتاب بمقدمة عن الاشتراكية فى الاسلام » ، ولم تغض البسمة المرتسمة على شفتيه بل قال : احب أن اقرأ هذا الكتاب قبل طبعه .

وخرجت من عنده أفكر فيما دار بينى وبينه ، لقد أكدت له أننى سأصدر الكتاب بمقدمة ، وما خطر ذلك لى قبل المقابلة ولكنه كان وحى الساعة ، واسترحت للفكرة فاستأنفت البحث فى بطون الكتب وأنا متفائل ، وزاد فى نشوتى أن ما كنت أقرؤه كان جديدا بالنسبة لى . كنت كالسائح الذى يرتاد بلادا جميلة لأول مرة .

وانتهيت من جمع « النظام المالى فى الاسلام » وما عثرت عليه فيما وقع فى يدى من مراجع عن أبى ذر ، وبدأت فى الكتابة ، واذا بى احس اننى مكبل لا استطيع ان اعبر عن كل ما يدور فى وجدانى ، كان شبح الأزهر يفزعنى ، وقد خطر لى أكثر من مرة اننى معرض للطرد من حظيرة الايمان . وقد أثبتت الأيام اننى لم اكن مبالغا فى تشاؤمى ، فقد حدث بعد ظهور كتابى وظهور كتاب آخر فى ابنان عن أبى ذر بعد كتابى بسنوات ، أن انبرى عالم من علماء الأزهر يذكر على صفحات الأهرام أن أبا ذر قد أخطأ وأن له أجر من اجتهد وأخطأ . ولست فى حاجة الى أن أقول ان كل من قرأ مقال العالم الجليل فى الأهرام قد انفرجت شفتاه عن بسمة اشفاق ، فقد أحس الجميع أن المقال لم يكن خالصا لوجه الله ، وأنه ما كتب الا ارضاء للاقطاعيين من ذوى السلطان !

وانتهيت من الكتاب وما كنت فى قرارة نفسى راضيا عنه كل الرضا فقد كان ينقصه الاشباع ، وذهبت الى الشيخ حسن البنا ودفعت به اليه ليقرأه وليرى أننى استطعت أن أكتب عن صحابى لم يذكر التاريخ كثيرا عنه ، ولأثبت انه من الميسور وضع تراجم لأناس ليسوا خلفاء ولا قوادا .

وأعاد الى الشيخ أصول الكتاب بعد أن كتب مقدمة له ، فانطلقت الى المطبعة وبدأت أطبع « الاشتراكى الزاهد : أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله . مصدرا ببحث واف عن الاشتراكية فى الأسلام » . وظهر الكتاب فى السوق ، وفى عصر يوم من أيام الأحد اشتريت البلاغ لأقرأ مقال الأستاذ المازنى فما كان يفوتنى أثر من آثاره ، فلما فتحت الصفحة التى كان يكتبها خفق قلبى فى

شدة ولفتنى إضطراب وأخذت ابحلق فى عنوان المقال وأنا مذهول ، كان مطبوعا ببنط عريض « أبو ذر الغفارى للأستاذ عبد الحميد جودة السحار بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى » . ورحت أقرأ المقال وقلبى يخفق فى صدرى كجناح حمامة . كانت هذه أول مرة يكتب فيها عن اثر من آثارى صفحات كاملة ، وزاد فى غبطتى أن كاتبها استاذ كانت غاية أمنيتى أن يتنازل ويشترك معنا فى إصدار كتاب !!

تكلم الأستاذ عن الكتاب فى إسهاب وذكر فى ختام مقاله :
« ... ومما يضاعف فضل المؤلف أنه أثار بحثا يحسن التوسع فيه لامكان الانتفاع بما نخرج به منه فى هذا العصر الذى تصطرع فيه المذاهب ويضطرب العالم اضطرابا لم يسبق له نظير فى التاريخ . وقد أحوجت الحرب كل أمة الى النظر فى شئونها ومحاولة تنظيمها على نحو جديد ، يكون أعدل وأكفل بإزالة الفوارق الكبيرة بين الطبقات ، وتحرير الخلق من رق الفاقة والمرض والبطالة وما الى ذلك » .

ونفد الكتاب وطبع طبعات كثيرة ، وهنأنى الكثيرون بما كتبت عن الاشتراكية فى الاسلام . وزادت عبارات التقدير فزاد عذابى فقد عرفت بعد طبع الكتاب أننى أخطأت يوم ربطت الاســلام بالاشتراكية ، فالاسلام نسيج وحده له نظـامه الاقتصـادى المتكامل ، فاذا ما كانت بعض المذاهب الاقتصادية الحديثة قد شابهت بعض نظمه فليس معنى ذلك أن نتعسف لندلل على أن هذا النظام أو ذاك هو النظام الاقتصادى الاسلامى ، فما كان ذلك مما يزكى النظام المالى فى الاسلام ، فهو ليس فى حاجة الى تزكية .

وغصت المكتبات بعد ذلك بالكتب التى تبحث فى النظام المالى فى الاسلام ، وراحت كلمة الاشتراكية الاسـلامية تتردد فى جنبات تلك الكتب ، فكان ذلك يزيد فى ضيقى حتى فكرت يوما فى اعادة تاليف كتاب ابى ذر الغفارى لاصوب ما وقر فى أذهان الناس من الربط بين الاشتراكية والاسلام ، ولكن كان الأمر قد خرج من يدى فلم يعد الكتاب ملكا لى ، فاذا ما اردت أن اصوب ما جاء به فعلى أن اكتب كتابا آخر . واقتنعت بهذا الرأى ، ورأيت أن اغض الطرف عن الكتاب فما أكثر الأبناء الذين يشقون طريقهم فى الحياة دون أن يرضى آباؤهم عن سلوكهم .

« ٧ »

ظهرت مجموعة اقاصيص «ع الماشى» للأستاذ المازنى ، واراد أحد زملائه الصحفيين أن يجامله فكتب نقدا للمجموعة جاء فيه : « .. قصة جديدة ذات روعة ، نزع فيها ــ كعادته ــ نزعة دراسية تحليلية .. ان الأستاذ المازنى محلل قدير ، تسعفه سعة اطلاعه وقوة هضمه وسلامة لغته وبلاغتها فى هذا التحليل والتخريج فيه ، وانك لتجد فى قصته الجديدة أثرا لكل ذلك ، فالحوار الذى يحدثه بين أبطال قصته فى كل حين ، بل فى كل مناسبة ، يغرى القارىء الفطن على مشايعة الفكرة العامة فى التأليف ، ســواء أكانت مقصودة لذاتها أو غير مقصودة » .

واستمر الناقد الصديق فى نقد مجموعة الأقاصيص على أنها قصة تحليلية طويلة ، وقرأ المازنى النقد فثار ثورة عارمة لأن الصديق المجامل كتب ما كتب دون أن يكلف نفسه مشقة تقليب صفحات الكتاب ، وكانت فضيحة .. وعزم المازنى على ابلاغ الأمر لنقابة الصحفيين ولكنى أخذت فى تطييب خاطره واعدا اياه أننى سأقوم بتصحيح هذا الخطأ .

كتبت مقالا عن مجموعة « ع الماشى » جاء فيه : « وقد وفق الأستاذ فى اختيار اسم الكتاب كل التوفيق ، فهو مجموعة مشاهد واقاصيص وقعت حوادثها « ع الماشى » فى لبنان والعراق ومصر ، فسجلها المؤلف الفاضل « ع الماشى » بأسلوبه الفكه الفريد .

واسلوب الأستاذ المازنى قوى مرن مطواع ، له طابع ينفرد به وحده ، وشخصية خاصة يتميز بها عن شتى الأساليب ، حتى ليخيل الى أن القارىء العادى لو قرأ مقالا للأستاذ المازنى غير ممهور باسمه لأمكنه أن يرده اليه دون عناء ، وهذا الأسلوب الفريد الذى يتدفق فى يسر ، والذى يصور فى اقتدار مختلف المشاهد المتباينة ، والذى يعبر أصدق تعبير عن أدق المشاعر والأحاسيس ، لهو سر نجاح الأستاذ ولا شك .

واسترسلت فى المقال اكيل المديح للمازنى لأزيل ثورته على صديقه الذى نقد كتابه دون أن يقرأه ليرضيه ،ومرت الأزمة بسلام ، ولكننى رحت أحاسب نفسى فقد اقتنعت فى أعماقى أننى لا أختلف كثيرا عن ذلك الصديق ، فقد كتب مقالة دون أن يقرأ الكتاب ليرضى المازنى ، وقد قرأت الكتاب وكتبت المقال لأرضى المازنى ، وكلانا كان الحافز الى نقده ارضاء المازنى وحسب ، وان كان ذلك على حساب الفن .

وكان درسا قررت بعده الا انبرى لنقد كتاب .

اصـــحاب النفـــوذ :

وانتى اقرر أن النقد فى مصر لم يكن فى يوم من الأيام خالصا لوجه الفن ، فاننا قوم عاطفيون نجامل على حساب كل شىء ، نتعصب لأصدقائنا وشيعتنا ونهبهم مواهب ليست فيهم ، ونقـــدح فيمن نحسبهم خصومنا ونسلبهم كل محاسنهم ، وما قرأت نقدا الا احسست الدوافع الخفية الحافزة اليه ، وما اكثر صفات المديح التى دبجت بعد موائد عامرة بما لذ وطاب كان لى فيها نصيب .

شاع فى الأوساط الأدبية انى المسيطر على لجنة النشر للجامعيين ، فتدفقت على رسائل المديح ، وكان فى رفق كل رسالة قصة طويلة أو مجموعة أقاصيص يبغى صاحبها نشرها . كنت فى ذلك الوقت كرؤساء تحرير الصحف الذى يتلقون القبض المنهمر من رسائل المعجبين الطامعين فى نشر مقالاتهم أو شعرهم أو أقاصيصهم ، وتعلمت أن أصحاب النفوذ يمتدحون دائما ، لذلك هان فى نظرى أمر النقد ، ولم يعد يفرحنى أن أقرأ تقريظ لكتاب من كتبى ، ولم يعد يثيرنى أن اقرأ نقدا لاذعا لعمل من أعمالى ، وصرت أكتفى بلذة النشوة التى أحسها كلما اندمجت فى الكتابة نفسها .

السباعى والأطياف :

وظهرت فى السوق أول مجموعة أقاصيص ليوسف السباعى بعنوان « أطياف » كان غلافها ملونا لامعا مصقولا ، وورقها أبيض ناصعا على الرغم من أزمة الورق فى ذلك الوقت ، وكانت صورة الغلاف امرأة عارية ناهدة الصدر ثقيلة الأرداف لا يربطها بالأطياف سبب واحد ، ولا أدرى ماذا كان يصور يوسف على الغلاف لو كان عنوان المجموعة « أجساد » !!

وفكرنا فى أن نضم يوسف الى لجنتنا ، ولكن الغلاف الملون المصقول والورق الأبيض الثقيل والطباعة الأنيقة جعلنا نئد الفكرة ، فلو أننا طبعنا له كتابا واحدا على غرار « أطيافه » لذاب المال الذى فى أيدينا وتوقفنا عن النشر ! وتركنا الأديب المترف يشق طريقه

وحده ، ورحنا ننشر للأدباء المساكين من أمثالنا ، القانعين بورق الصحف والغلاف الخشن .

الفن للفن والفن للحياة :

اتسمت حلقة الادب التى كنا نعقدها صباح يوم الجمعة بكازينو بديعة ، واحتدم النقاش الدائر بين أدباء الشباب ، وطرحت مشكلة الفن للفن والفن للحياة بكازينو بديعة قبل أن تخوض الصحفة فيها بعشر سنين على الأقل ، وكان عادل كامل من أنصار الفن للحياة ومن أشد المتحمسين له ، لذلك وضع قصته « مليم الأكبر » وقد صور فيها الصراع بين الطبقات .

وتقدم بها الى المجمع فرأت لجنة المجمع الا تمنحها الجائزة ، فكتب عادل مقدمة طويلة على لسان « مليم » بطل قصته هاجم فيها المجمع ورجاله .

وطبع عادل القصة على نفقته الخاصة وان ظهــرت ضمن مطبوعات اللجنة ، وكتب فى الاعلان عنها « القصة التى رفضها المجمع » وتلقف النقاد القصة وراح كل يكتب عنها حسب هواه ، قال ناقد : « الأستاذ عادل كامل من أدباء الشباب المصريين الذين لهم فى عالم القصة قدر ملحوظ ، وقد فازت قصة « ملك من شعاع » بالجائزة الممتازة فى مسابقة وزارة التربية والتعليم ، ولكن قصة « مليم الأكبر » لم تفز بشىء من ذلك مع أنها فى نظرنا خير من القصة الفائزة ، وكان ظريفا من لجنة النشر للجامعيين أن تختار هذه القصة بالذات لتقدمها لجمهورها من القراء لتعطيهم مثلا من

أمثلة التحكيم الأدبى فى مصر ، وخصوصا ذلك التحكيم الرسمى العجيب » .

وقال ناقد آخر : « تقدم الأستاذ بقصته الى المجمع فلم تمنحها اللجنة الأدبية جائزة القصة المقررة ، وقد وافقنا نحن اللجنة فى قرارها على أساس أن مثل هذا الاتجاه مما يحتمل الكاتب تبعته وحده أمام القراء مباشرة ، بلا وسيط من الهيئات المسئولة » .

ولما كان بعض الأدباء المحدثين يظنون أنهم يثيرون مشكلة جديدة عندما يتحدثون عن الفن للحياة ، فقد رأيت أن أنقل اليهم ما قاله أحد النقاد الشبان سنة ١٩٤٤ عندما ظهرت قصة « مليم الأكبر » :

قصة « مليم الأكبر » هى قصة الصراع بين الطبقات مصبوبة فى قالب فنى فهى على هذا الوضع من أدب « الوعى الاجتماعى » الذى يدعو اليه جمهور من المفكرين فى جميع أنحاء العالم ، وتدعو اليه الاشتراكية والشيوعية بشكل خاص !

ولهذا النوع من الأدب قيمته — وبخاصة فى هذه الفترة من حياة العالم — ولكن الذى يثير الانتقاد هو غلو الداعين اليه ومبالغتهم فى فرضه على جميع الفنانين بوصفه ضريبة انسانية على كل فنان . هذا الغلو غير مفهوم من الوجهة الفنية ، بل من الوجهة الانسانية — فالانسانية ليست من هذا الجيل ، وليست هى بضعة الأجيال المقبلة .. هى الأجيال الماضية منذ الأزل ، والأجيال المقبلة طول الأبد . وهذه أو تلك لا تنكمش فى هذا الحيز الضيق ، حيز جيل من الأجيال . ثم ان هناك مطالب الانسانية التى لا تنحصر فى ضرورات الطعام والشراب ، ولا فى حيز الضرورات

على الاطلاق ، انما تتطلع الى آفاق ارفع وارحب وتهفو حتى فى أشد حالات الضرورة الى الوان من الفن المطلق الرفيع .

واذا صح أن أدب الوعي الاجتماعى ضريبة على كل فن ، فلتكن نسبته هي نسبة الضرائب الى مجموعة الايراد ! بل ليكن فرض كفاية على الفريق المهيأ له من بين جموع الفنانين ، فالتجنيد قد يصلح فى كل بيئة الا بيئة الفنانين » .

رهدات معركة الفن للفن والفن للحياة ، وراح كل فريق يكتب ما هو مهيأ له ، الى أن قام أنصار أدب الدعاية ينفخون فى بوق الحرب وهم يحسبون أنهم أول من خاض غمار القتال ! وما ذنب الناس اذا ما احب يافع وظن انه أول من استشعر مشاعر الحب بين البشر ؟!

الفـــن والأخـــلاق :

وعرض على أحد دعاة الأدب الموجه أن أنشر له مسرحية مترجمة فاعتذرت بحجة اننا نشـــجع التأليف وأن هنـــاك لجانا تخصصت فى نشر الكتب المترجمة ، ولكنه أخذ يزين لى طبع المسرحية ، فعرضت عليه أن أساعده فى طبع مسرحيته على أن يقوم هو بتوزيعها .

وذهبنا الى مطبعة صديق لى ، ودفعت بالمسرحية الى المطبعة بعد أن أكدت لصديقى أننى ضامن لتكاليف الطباعة ، وتم طبع

المسرحية وتسلمها الداعية الكبير ، وبعد يومين علمت أنه سافر الى الخارج ولن يعود !!

لقد كان يؤمن بالمذهب الذى يدعو اليه ايمانا عمليا ، ظن أننى راسمالى كبير فرسم طريقته الفذة ليحقق مبادئه ، ودفعت تكاليف طبع مسرحيته من مرتبى وقوت عيالى ، بينما كان الداعية الداهية يمرح فى باريس !!

واقنعنى عمليابالمذهب الذى يدعو له .

بسم الله الرحمن الرحيم

النظـــرية الالهيـــة
والتفســـير الـــروحى للتـــاريخ

« رسالة بعث بها المؤلف الى الرئيس جمال عبد الناصر عقب صـــدور القوانين الاشـــتراكية سنة ١٩٦١ » .

« هذا ما رأيته ، فان يك صـــوابا فمن الله وان يك خطأ فمنى » .

(عمر بن الخطاب)

مقـــدمة

الله هو خالق الناس وهو اعلم بهم ، فاذا وضع لحياتهم منهجا فهو المنهج الذى يحقق لهم كرامتهم ، ويمنحهم حريتهم ، ويحقق مصالحم .

والمنهج الالهى مبرأ من نتائج الهوى الانسانى ، والضعف الانسانى ، والرغبة الانسانية فى النفع الذاتى .

والتشريع البشرى الذى يضعه فرد حاكم ، أو أسرة حاكمة ، أو طبقة حاكمة ، او أمة حاكمة ، او جنس حاكم ، يستحيل أن يتجرد من الهوى .

فاذا أردنا تحقيق العدل الحقيقى الشامل الكامل ، فأمامنا التشريع الالهى ، علينا ان نفرع منه ولا نشرع .

فالناس لا يعلمون العلم المطلق الذى يعلمه الله ، لذلك كان عسيرا عليهم أن يضعوا مناهج للبشرية ، تحقق العدل والحرية .

وهذه الرسالة ان هى الا محاولة لوضـــع المنهج الالهى فى نظرية .



آراء فى الاســلام :

يقول كانتول سميث فى كتابه « الاسلام فى التاريخ المعاصر » صفحة ٣٢ : « يرى المسلم ، مثل الماركسى ، وعلى غير ما يرى الهندوكى ، أن ما يحدث هنا فى هذه الأرض ذو دلالة باقية ولا مفر منها ، وأن بناء حياة الجماعة فى الأرض على أسس سليمة هو الأمر الحتمى الأسمى . ولا شك أن المحاولة الاسلامية بالنسبة لكل المحاولات التى بذلت لنشر العدالة بين الناس ، كانت وما تزال الى هذه اللحظة أشدها جدا وأكثرها جهدا . والى قبل قيام الماركسية كانت كذلك أكبرها وأشدها طموحا . ومع ذلك فهى تفترق عن الماركسية فى أن الاسلام يرى أن كل حدث دنيوى له مرجعان ، وينظر اليه فى ضوأين معا ، فكل حركة يتحركها انسان تتوافق مع غيرها فى عالم الخلد وفى العالم الموقوت معا . وخط السير المستمر للأمور الدنيوية هو مسرحية جماعية تعرض ما تتخذه الجماعة من عمل . وفى الوقت ذاته هو مجموعة من الأعمال المفردة المتميزة بعضها عن بعض ، يسأل كل فرد بمفرده يوم القيامة عن نصيبه الذاتى فيها ، أى أن كل عمل له نتائج من نوع معين فى هذه الدنيا ، ونتائج من نوع آخر فى العالم الآخر . وبعبارة أخرى فان كل عمل ينبغى أن يوزن فى ذاته ، كما يوزن من حيث صلته بالتطور التاريخى .

ويستطيع الميتافيزيقى أن يقول ان هذا اللون من الحكم على الأعمال ، اقرب الى الحقيقة الموضوعية لهذا العالم الذى نعيش

فيه ، ولهذا الكائن الذى يتكون منه النوع الانسانى ، وللحياة التى يتكون منها تاريخ معيشتنا من اية نظرة ذات جانب واحد تنكر وجود قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضى المستمر فى الجريان . فالتاريخ ذو دلالة ، ذو معنى مطلق ، ولكن معناه لا ينتهى فى ذاته ، بل الأحرى أن هناك معايير ومقاييس يمكن — وينبغى — الحكم بمقتضاها على هذه الأحداث التاريخية . وانها ليحكم بمقتضاها بالفعل فى الفكرة الاسلامية » .

وكتب كثير من كتاب الغرب أن الاسلام يوائم بين المثل العليا الإقتصادية التى تتطاحن أوربا بسببها ، فقال جيب : « ما يزال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغالبين فى دنيا الغرب ، الرأسمالية والشيوعية » . وقرر الأستاذ ماسينيون : « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليات **المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربوية** ، والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبهذا يحتل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية » . وعلى ذلك فالاسلام يقف **بمثابة خالق السلام** بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة . فلنظامه الاجتماعى خصائص لا تجدها فى غيره ، فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تشغل الذهن البشرى ، بحيث تنسيه القيمة الحالية للحياة ، الأن من أول ما يتلقاه المسلم من دروس ، هو أن واجب الله مقدم على كل واجب سواه .

خصائص الاسلام الاقتصادية :

١ ــ فيه حسنات الراسمالية وحسنات الشيوعية .

٢ ــ انه مشيئة السماء فله الاستقرار الذى لا تتسامى اليه النظم التى من وضع الانسان . فكل نظام اجتماعى يحتاج الى قوة دنيوية تظاهره ، فى حين أن النظام الاجتماعى الاسلامى يقوم دون أن يظاهره حكام أو حكومات . فالشيوعية لم تقم فى روسيا بسبب مطابقتها لعقلية الشعب ، بل بالقوة الجبرية ، وكذلك الفاشية ، وكذلك الراسمالية ، القوة الحقيقية ليست فى يد عامة الشعب ، ولكنها فى أيدى اليهود أو الراسماليين .

٣ ــ نظام ثابت فى خطوطه الرئيسية ، مرن فى التنفيذ .

٤ ــ يهدف الى حفظ المساواة ، كلما كانت هذه المساواة فى الامكان . فهو يرفع الأدنى الى المستوى الأعلى ويعمل على اغناء الفقراء ، لا كما تفعل الشيوعية التى تسعى لتطبيق المساواة بافقار الأغنياء .

٥ ــ المال وسيلة لا غاية « ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

٦ ــ وجمع المال فى الاسلام ليس امرا مستهجنا . « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة » ، كما أنه غير محرم . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . ولكن كنز المال وعدم تداوله هو المحرم .

٧ ــ الناس طبقات ودرجات ، فما من رجلين بمتشابهين ،

ومـ عقلاهما بمتساويين ، وما قدرتهما على العمل بواحدة .
نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم
فوق بعض درجات » . « والله فضل بعضكم على بعض
ى الرزق » . وهذه الفروق لا يمكن محوها . والشيوعية
ام تستطع أن تعمل شيئا حيالها ، فخروشوف والعامل الذى
يعمل فى منجم لا يتساويان ، والا فلنضع خروشوف فى
المنجم وندع عامل المنجم يحكم روسيا لنرى النتيجة ! .

٨ ـ الاحسان اجبارى فى الاسلام . فما يكسبه الانسان ثمرة
عمله ولا يمكن أن يحرم هذه الثمرة ، ولكن على المسلم أن
يدفع للدولة نسبة ثابتة من ماله لتنفقها الدولة فى الصالح
العام .

٩ ـ الزكاة عملية تزكية وتطهير للمال وقدرها ٥ر٢٪ من راس
المال تدفع كل عام ، وهى نظام حكومى ، ويجب على
الدولة جمعها ثم توزيعها على الجميع (وهل زادت ملكية
الدولة للصناعات والمتلكات فى ثروة الدولة ؟) .

١٠ ـ بحترم الملكية الخاصة ، ويرمى الى زيادة عدد الراسماليين
حتى يستمر التنافس بينهم جهد الطاقة ، فتعم الفائدة .
وما الزكاة الا عون للفقراء على أن يبدءوا أعمالهم براس
مال صغير .

ملكية الدولة لكل وسائل الانتاج والغاء الملكية الخاصة
يجعل فى الميدان راسماليا واحدا ، وبذلك تقع ابشع
مساوىء الراسمالية . خنق كل نقد . لا يمكن وقف ظلم
الحكومات . تملك الدولة لكل منابع الثروات فى يدها أخطر
سلاح للبغى والطغيان .

١١ــ نظام التوريث يفتت الثروات فيزيد بذلك عــدد صغار الراسماليين . فالاســلام يقدم بنظــام التوريث اصــلاحا مضاعفا ، فكلما مات مسلم يحل كثير من صغار الرأسماليين محل رأسمالى كبير ، ويقضى على طغيان رأس المال وتكديس الأموال فى عدد قليل .

ونظام التوريث نظام عادل ، لأن الأبناء غالبا ما يرثون اغلب خصائص الوالدين من سفه أو عته أو جنون أو ذكاء أو غباء أو نحو ذلك من الخصائص ، فكيف نحرمهم من أن يرثوا بعض جهود آبائهم ، وثمرة كدهم ؟

النظـــرية

١ - المال مال الله :

أكد الاسلام في كثير من آياته أن المال مال الله ، لا هو مال الحاكم ولا هو مال الدولة ولا هو مال الناس ولا هو مال الجماعة . « ولله ملك السموات والأرض » . « ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض » . « قل اللهم مالك الملك » . « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما » .

وأكد الاسلام أن الله هو الرازق ، وهو مقسم الأرزاق ، وهو وحده الذى يملك الرزق . « وفى السماء رزقكم وما توعدون » . « ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » . « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . والله يأمر عباده الا يخشوا الفقر ، وألا يقتلوا أولادهم خشية املاق لأنه هو الرزاق . « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم » . « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم » .

ولو أن الله هو الرزاق ، فليس معنى ذلك أن يتواكل المسلمون وأن يهجروا العمل ، فالاسلام يحض على العمل ويجعل الثواب على كل عمل يؤديه المسلم ، وفى القرآن آيات كثيرة : « من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم » . « وأما من آمن وعمل عملا صالحا فله جزاءً الحسنى » . « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا » . « أم حسب الذين اجترحوا

السيئات أن نجعلهم كالذين آمنو وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ». « وما الله بغافل عما تعملون » . « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها وله بذلك اجر » .

وقال عمر : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى ، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

٢ ـ يؤتيه لمن يشاء من عباده بحقه :

الله يؤتى ماله لمن يشاء من عباده ، فهو الذى جعل الناس مستخلفين فى ماله : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

واعطاء الله ماله لبعض الناس دليلا على رضاه عنهم ، ولكن لينظر ماذا يفعلون بذلك المال ، اينفقونه فيما امرهم أن ينفقوه فيه ؟ أم يحبسونه عن التداول فيحق عليهم نار جهنم ؟ « ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعلمون » . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

والله يعلم طباع البشر ، يعلم أن بعض الناس لو رزقهم لضلوا ، لذلك يقدر رزقهم : « ولو بسط الله الرزق لعبادة لبغوا في الأرض » .

حـــق المـــال

البيـــــع :

أحل الله التجارة ، وكان رسول الله يقول : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » وكان صلى الله عليه وسلم تاجرا : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ولكن ينبغى الا تلهى التجارة وجمع المال الناس عما هو أهم من البيع والتجارة . « قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة » .

ووضع للتجارة شروطا سما بها ، ويمكن بالاطلاع على سيرة ابى حنيفة النعمان ، وكان من اكبر تجار عصره ، ومن الأئمة الأربعة : كيف أرهف الاسلام حسه التجارى حتى جعله يخشى الربح الفاحش ، أو الغش او ما قد يوحى بأنه غش .

قال صلى الله عليه وسلم : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

وحسن المعاملة من صفات الاسلام : « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » .

وان كان فيما يباع عيب ، فالواجب أن تخبر به المشترى . قال صلى الله عليه وسلم : « ولايحل لامرىء يبيع سلعة يعلم ان بها داء الا أخبره » .

ويجب أن يعطى المشترى فرصة معاينة ما يشتريه .

والحنطة كمثل نظر اليها الاسلام نظرة خاصة . **يمكن تطبيقها على كل مواد التموين ، اذ حتم الاسلام عرضها فى الأسواق ، وان تباع بتكاليف زرعها** ، فالمضاربة فى بيعها حرام ، وخزنها حتى ترتفع أسعارها تبعا لذلك حرام .

ونظم العلاقة بين الدائن والمدين تنظيما راعى فيه التيسير على المدين ولم يجعله عبدا لدائنه كما فعلت القوانين الرومانية . طالب المدين أن يكون أمينا فى سداد الدين . قال صلى الله عليه وسلم : « خيركم أحسنكم قضاء » . وطالب الدائن أن يكون فى منتهى السماحة والرفق ، فقد قال سبحانه وتعالى : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » .

وعلى الحكومة الاسلامية أن تدفع كل دين ثابت بعقد صحيح عجز المدين عن أدائه .

* الزكاة :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم » . « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

ليس فى فرض الزكاة اذلال للفقراء . فالحكومة هى التى تجبيها ، كما تجبى الضرائب الآن ، وهى ضرورة ، ولكن العمل مهما صغر أفضل من انتظار الصدقات فالاسلام شرف العمل ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده » . « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره ، خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » .

والزكاة هى الحد الأدنى الواجب السداد ، فاذا قصرت الزكاة عن سد حاجات الناس ، فللحاكم أن يأخذ من الأغنياء ما يحتاج اليه الفقراء ، وقد قال على رضى الله عنه : « قال رسول الله ﷺ : ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما

يصنع أغنياؤهم ، الا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا أليما » .

وقال عمر بن الخطاب : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » .
وقال ابن حزم : « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد ان يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم » .

وقد حبب الاسلام الناس فى الانفاق : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله عليم » .

الــزراعة :

زراعة الأرض فى الاسلام صدقة : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير او انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة » .

الأرض البــور :

قال عمر : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » .

الأرض الزائدة عن المزارع :

قال ﷺ : « من كانت له ارض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ؛ فان أبى فليمسك أرضه » .

الواقع التـاريخي :

اعتبر عمر أرض العراق والشام والجزيرة ملكا للدولة ، وفلاحيهـا اجراء عليها ، لهم ما يكفيهـم وبعض ما يفيض عن حاجاتهم ، ثم يؤخذ الباقى للدولة ، وقد قال لحكامه على هذه البلاد : « كيف وضعتم على الأرض ؟ لعلكم كلفـتم أهل عملكم (الفلاحين) ما لا يطيقون » ، فقال أحدهم : لقد تركت فضلا ، وقال آخر : لقد تركت الضعف ولو شئت لأخذته .
ولو شئت لأخذته .

ولما فتح المسلمون الأندلس قسموا أرضها على فلاحيها الذين كانوا عبيدا ، ويقول ليفى بروفنستال : « ان الازدهار الزراعى الذى أصاب أسبانيا بعد الفتح الاسلامى يعود أيضا الى التقسيم الكبير للملكية الأرض » .

٣ ــ ولى الأمر خليفة الله فى ارضه :

قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم » . فطاعة ولى الأمر واجبة بشروط :

أن يكون من المؤمنين : « انما وليكم الله ورسولة والذين آمنوا » ، وأن يستجيب لأوامر الله : « ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء » . فأولئك هم الظالمون » .

ويعتبر رئيس الحكومة فى الاسلام نفسه مسئولا أمام الله أولا ، ممثلا لمن ولوه عنهم ثانيا ، وأن يفسح صدره للرعية . قال أحد الرعايا الفقراء لعمر : « اتق الله يا عمر » . فأراد بعضهم أن يسكت الرجل ، فقال عمر : « دعوه يقول قوله ، فلا خير

فى الناس ان لم يقولوا مثل هذا القول » ، وقال رسول الله ﷺ : « سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة » .

فولى الأمر فى الاسلام فى خدمة الرعية ، يشعر بمسئوليته امام الله سبحانه وتعالى ، ويحكم بين الناس بالعدل ، ويستشير ولا يستبد برأى . « وأمرهم شورى بينهم » ؛ وأمر الله نبيه بمشاورة أصحابه : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

وواجب الناس نحو الحكومة هو ان يحترموا قوانينها ويطيعوا اوامرها ، وعلى ولى الأمر ان يكون قريبا ممن يحتاج الى معونته : « من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » ، وعلى ولى الأمر ان يتقى الله ويخشاه : « ان أحب الناس الى الله يوم القيامة واقربهم منه مجلسا ، امام عادل ، وان ابغض الناس الى الله يوم القيامة واشدهم عذابا ، امام جائر » .

كانت الحكومات الفاشية تخبرنا فى وضوح : « الحكومة هى الكل فى الكل ، وما الفرد فيها الا عبد يعمل وفق مشيئتها » . وتقول : « الانسان حر فقط فى حيز المجموع » .

والشيوعية ، وهى بلا شك الحكومة الراسمالية ، تسلب الانسان مرتبه وماله . والديمقراطية دعواها ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، فهى تستعبد — مستترة بأسماء مختلفة — أكثر من نصف الجنس البشرى بغير ذنب الا ضعفه . يجب أن تكون الحكومة النبع الذى تصدر منه سعادة البشر ، لا مصدرا يهدد هذه السعادة .

٤ ـ واذا لم يحكم ولى الامر بما انزل الله لا تجب طاعته :

قال الله تعالى : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . « والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير » . « وان الظالمين بعضهم اولياء بعض » .

وقد خطب ابو بكر بعد ان ولى امر المسلمين : « اما بعد ، ايها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينونى ، وان اسأت فقومونى ، الصدق امانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى اريح عليه حقه ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبلاء ، اطيعونى ما اطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وعلى ولى الامر ان يولى اصلح من يجده للعمل . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو اصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله » .

وقال عمر رضى الله عنه : « من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

ولا يقدم الوالى احدا لانه طلب الولاية او طلب العمل ، فان طلب العمل يستوجب المنع ، قال ﷺ : انا لا نولى امرنا هذا من طلبه » . لان طالب العمل هدفه تحقيق مصلحته لا مصلحة المجموع .

« فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ،

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها » . وعلى ولى الأمر أن ييسر على رعيته ، قال ﷺ : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » .

٥ ـ واذا استكان الناس لظلم ولى الأمر حق عليهم عذاب الله :

الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديهم صراطا مستقيما ، أما الظالمون فما لهم من ولى ولا نصير ، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . وقد أمر الله المؤمنين بقتال أولياء الشياطين ، قال الله تعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

اذا أعرض ولى الأمر عن شريعة الله ، واذا استكان الناس له ، حق عليهم العذاب : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . وهلاك القرى هو الجزاء لولى الأمر الجائر ، وللرعية التى هانت واستكانت للطغيان : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

والله يمهل لعل عباده يسارعون بالتوبة اليه من ظلمهم : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » ، ولكن اذا أراد الله أن يهلك قرية حق عليها العذاب ، فما أهون ذلك : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ، و « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

والله يذهب الظالمين اذا أمعنوا فى ظلمهم ، ويأتى بخلق

جديد ، فهو سبحانه القائل : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوما آخرين » .

وهو قادر على أن يطوى أقواما ويأتى بأقوام آخرين : « ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » . « ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » ، « أن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . وقضى عدله الا ينزل غضبه على عباده الا بعد أن ينذرهم وأن يذكرهم فهو سبحانه القائل : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها » ، « وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين » .

التفسير الروحى للتاريخ

كان آدم على علم ، فعلم ابناءه ذلك العلم ، « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » ، وغرقوا فى ماديات الحياة . ولما كان الله لا يهلك قرية ظالمة الا بعد أن يرسل اليها نذيرا ، فقد أرسل الرسل ، وجاء نوح وراح يدعو قومه للعودة الى الله ، فلما أعرضوا عنه جاء الطوفان ، وأذهب الله قوم نوح وأتى بخلق جديد .

وكذلك الحال فى قوم ابراهيم وقوط لوط .

وازدهرت الحضارة بازدهار الديانات ، وكانت دفعة الروح هى التى تدفع الشعوب للرقى ، فما كان هناك رقى بشرى الا فى ظل الديانات ، ويتبع كل نهضة دينية نهضة فى العالم ، ويعقب النهضة الدينية عصور مادية هابطة ورفاهية وانحلال .

فباستقراء التاريخ نرى ماذا جرى لقوم عاد ، لما طغوا فى البلاد ، واكثروا فيها الفساد .

ونرى كيف أرسل الله صالحا لقدمه « ثمود » ليهديهم سواء السبيل ، وكيف أعرض قومه عنه ، وكيف دمدم عليهم ربهم بذنبهم نسواها .

ونرى حالة العالم أيام موسى ، وطغيان فرعون ، واغراق الله فرعون بطغيانه ، ومجيء خلق جديد .

ونرى بنى اسرائيل لما طغوا وأغرقوا فى المادية ، كيف بعث الله لهم بختنصر ليذهبهم ويأتى بخلق جديد .

ونرى انحطاط العالم قبل مجيء المسيح ، واغراق الناس فى المادية ، ودعوة المسيح الروحية وأثرها فى رقى العالم . وكيف أنه لما طال على المسيحيين الأمد قست قلوبهم ، وغرقوا فى الترف والمادية فانحطت حضارتهم .

ونرى ظهور الفساد فى البر والبحر قبل الاسلام ، من الجاهلية الجهلاء وغنى قريش والانحلال والانحطاط البشرى .

ثم نرى شروق شمس السلام ، وأثره فى ارساء قواعد نهضة عظيمة شملت الجزيرة العربية وما جاورها من البلاد من الخليج الى المحيط . ثم أثره الواضح فى نهضة أوربا ، وفضل العرب على الغرب .

ونرى ازدهار الحضارة فى الاسلام ما دام الدين مطاعا ، وأن أسباب سقوط الدولة الأموية كانت انتشار المادية وانحطـــاط الروح .

وأن أسباب نجاح حملات المسلمين على الأندلس كانت أسبابا روحية ، وأسباب هزيمة الأسبان كانت ترجع الى انحطاط الروح فيهم .

فقد نجح طارق بن زياد فى غزو الأندلس بدافع من الحماس الدينى ، اذ رأى رسول الله ﷺ فى المنام وهو شاهر سيفه ويتقدم جيوش المسلمين ، فكان يحارب الأعداء وهو على ثقة أكيدة من نصر الله اياه .

هذا هو تاريخ البشرية فى لمحات سريعة ، وهذا هو التفسير الروحى للتاريخ .

وهذا ما تكسبه البشرية ان هى اهتدت الى الطريق المستقيم ، وما تخسره ان هى ضلت سواء السبيل .

فهرست

صفحة

رقم الايداع ٢٥٣٠

الترقيم الدولى ٩ ــ ٤٧٩ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ١٥٠ قرشا